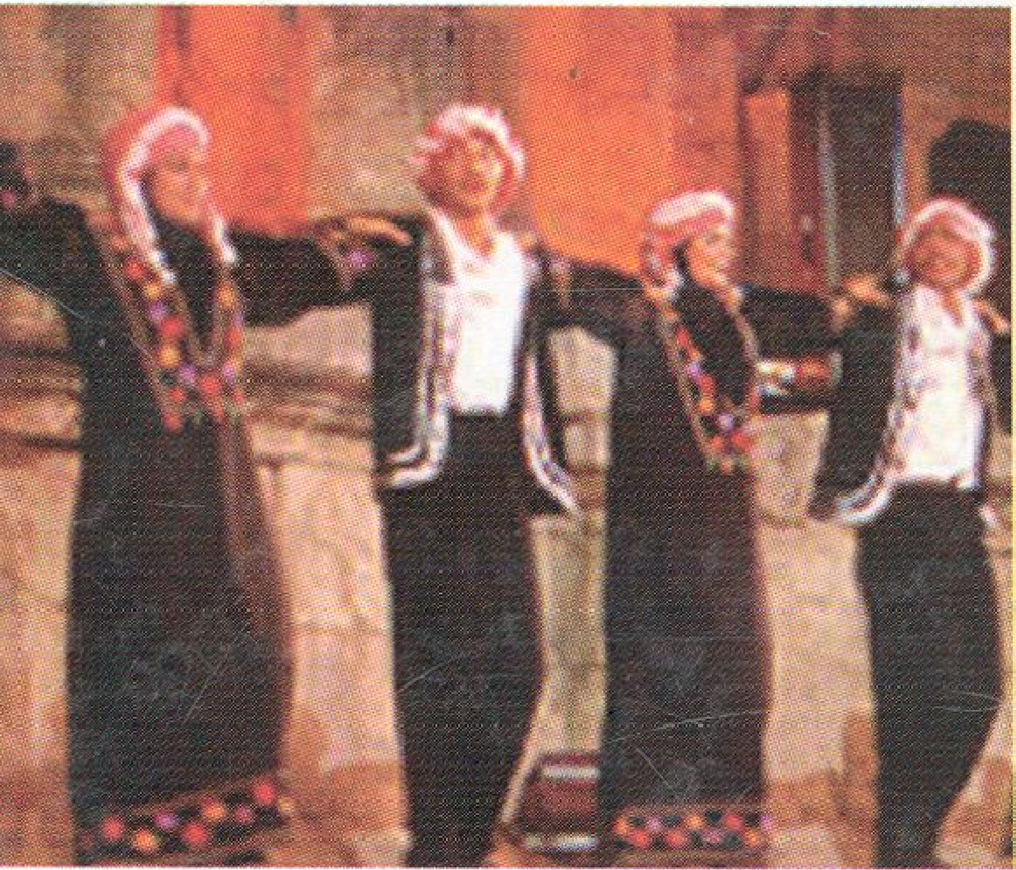
الفلكلور

التراث الشعبي

الموضوعات، الأساليب ، المناهج





عزام أبو الحمام المطوّر



الفولكلور

التراث الشعبي

"الموضوعات، الأساليب، المناهج"

تأليف

عزام أبو الحمام المطور

دار أسامة للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمّان

- هاتف: ٥٦٥٨٢٥٢- ٥٦٥٨٢٥٣
- فاكس: ٥٦٥٨٢٥٤
- ص.ب: ١٤١٧٨١
- Email:darosama@wanadoo.jo

الطبعة الأولى

٢٠٠٧

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٧/٦/١٧٦٨)

٣٩٨

المطور، عزام

الفلكلور: التراث الشعبي: الموضوعات، الأساليب، المناهج/ عزام أبو الحمام المطور._ عمان: دار أسامة، ٢٠٠٧.

(   )ص.

ر.أ.: (٢٠٠٧/٦/١٧٦٨)

الواصفات: /التراث الثقافي//الفلكلور//الثقافة/

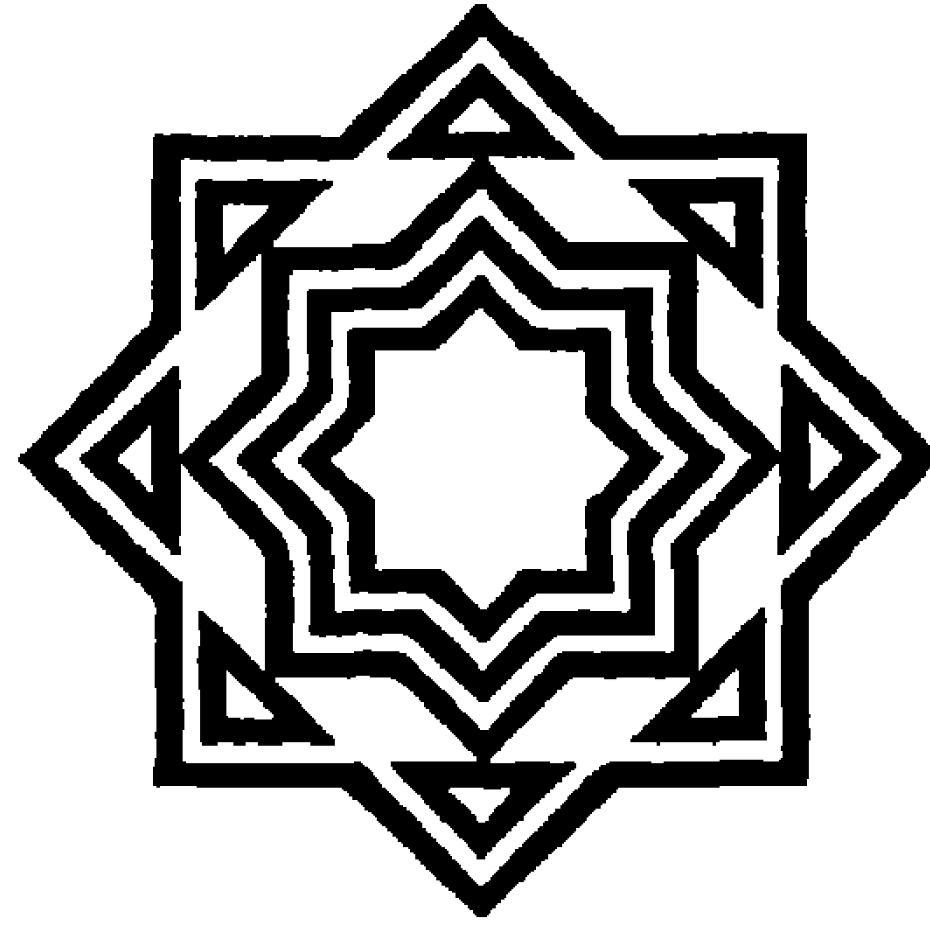
❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الإهداء...........

جمعية إنعاش الأسرة (البيرة – فلسطين) ومركز الأبحاث التراثية فيها.

جامعة بيرزيت – رام الله – فلسطين.

جمعية الصداقة الأردنية – الفلسطينية – عمان.



المقدمة

احسست بالحاجة إلى كتاب تمهيدي للدارسين والمهتمين بعلم الفولكلور منذ بداية اهتمامي بهذا المجال في أواسط الثمانينيات في جامعة بيرزيت، وقد لاحظت خلو المكتبة العربية من الكتب الشاملة في هذا الموضوع وحتى ايامنا هذه، ولا أزعم انني قدمت عملا شاملا بأي حال من الأحوال، لكنني حاولت أن يتضمن كتابي هذا كل ما يحتاجه الباحث المبتدئ من أساليب ومناهج في البحث الفولكلوري تحديدا، مرتكزا على عمادين أساسيين لهذا الكتاب:

١-ما قدمه الباحثون في مجالات البحث العلمي الاجتماعي عموما والبحث الفولكلوري خصوصا، على ندرة الكتب المنهجية المتخصصة في الفولكلور.

٢-تجاربي الشخصية في هذا المجال، وهي على كل حال تجارب متقطعة، لكنني أفدت من تحصيلي الأكاديمي في حقلي علم الاجتماع والتربية في مضمار البحث واساليبه ومناهجه.

والمشكلة الأساسية لدارسي الفولكلور العربي هي ندرة المراجع المتخصصة بمجال اهتمامهم هذا، وينطبق ذلك على الطلبة الجامعيين في سنواتهم الأولى، مثلما ينطبق على الفئات الأخرى من المهتمين بالتراث من جامعين لمواده وأولئك الباحثين الذين يرغبون بدراسة مجتمعاتهم دراسة علمية جادة. وعادة ما يضطر هؤلاء إلى البحث في (مراجع البحوث الاجتماعية) لمساندتهم في استكمال معارفهم في هذا المضمار، فيكتشفون أن الكثير من

المراجع في الأساليب والمناهج تتجاهل أساليب ومناهج البحث الفولكلوري، ولا تشير إليه لا من قريب ولا من بعيد، مكتفية باستعراض عام لبعض تلك الأساليب والمناهج، ومن النادر أن تجد فيها بعض الأمثلة والتطبيقات الخاصة بالمجالات التراثية والفولكلورية، ولذلك حاولت التركيز على الأمثلة التطبيقية في التراث لتكون هاديا ومناخا مواتيا لهؤلاء الدارسين والمهتمين.

يتوزع الكتاب على أربعة فصول كما يلي:

الفصل الأول: فيه توطئات متنوعة تنقل القارئ إلى الأجواء العامة المحيطة بالفولكلور مثيرة بعض القضايا الاساسية في هذا العلم من جهة، وفي الواقع الاجتماعي الثقافي الذي فيه يعيش الباحث، ومنه يستقي ملاحظاته. بعد ذلك استعرضنا نشوء وتطور الاهتمام بالدراسات الفولكلورية في الغرب، ثم في العالم العربي وتخصيصا في فلسطين والأردن كأمثلة معبرة. ثم انتهينا بأن قدمنا تعريفات الفولكلور التي قدمها الباحثون الغربيون، وقدمنا تلخيصا لها، وأوضحنا بايجاز علاقة الفولكلور بالعلوم الأخرى.

الفصل الثاني: إقتصر هذا الفصل على استعراض الموضوعات الرئيسية التي تندرج في الدراسات الفولكلورية، بدءا بالأدب الشعبي ثم الفنون الشعبية ثم التاريخ الشعبي ..إلخ من الموضوعات، ونحاول دائما التركيز على الأمثلة التطبيقية لتحقيق المزيد من الفائدة للمبتدئين.

الفصل الثالث: اختص باستعراض الأساليب البحثية المستخدمة في جمع البيانات الفولكلورية بدءا من الاستبيان، ثم الملاحظة، ثم المقابلة، ثم البحث المكتبي، ثم التحري والاستقصاء الذي لم نجد له ذكرا في المراجع التي اطلعنا

عليها على الأقل. وقد حاولنا الاستفاضة بالقدر المستطاع في استعراض هذه الأساليب، إيمانا منا بحاجة المبتدئين الماسة لمثل هذه الاساليب.

الفصل الرابع والأخير: فيه استعراض موجز لمناهج البحث العلمي الأكثر استخداما في الفولكلور، وهي: المنهج الوصفي، التاريخي، تحليل المضمون، المنهج الأرتباطي – العلائقي، المنهج الأدبي، منهج النظم، منهج الحديث النبوي الشريف.

غير أنني وجدت أنه من الأهمية بمكان التقديم لهذه المناهج بتعريف العلم وخصائص المنهج العلمي، ثم تعريف المنهج العلمي وتصنيف المناهج، ثم علم المناهج والمنهجية، واستعرضنا أيضا بعضا من قضايا واشكالات الاساليب والمناهج، ثم استعرضنا تصنيفات المناهج المختلفة بين باحث لأخر، وانتهينا إلى خطوات البحث العلمي بشيء من الايجاز. وذلك كله سعي منا لتجنب الابتسار أو الاختزال الذي لمسناه في معظم الكتب التي تناولت أساليب البحث العلمي ومناهجه، بحيث ان الكثير من تلك التعريفات الجامدة قليلا ما تفيد المبتدئين أو الراغبين بالمزيد من التوسع والايضاح.

وأنا على يقين بأن عملي هذا يعتريه الكثير من النقص وربما الهنات هنا وهناك، لكنني على ثقة بأنه سيكون معينا جيدا للمهتمين بجمع التراث ودراسته دراسة علمية، وهو أيضا سيكون مفيدا لطلبة العلوم الاجتماعية عموما والفولكلور تحديدا.

وأخيراً، يتوجب علي الاعتراف بالمساعدة التي تلقيتها من العديد من الناس، أفراد أسرتي، والدكتور سليم إزريقات الذي تفضل وراجع وصحح الكثير من الاخطاء اللغوية، ثم مكتبة شومان التي وفرت لي الكثير من مراجع الدراسة،

وفي النهاية كل الشكر لدار أسامة للنشر والتوزيع – عمان، ولمديرها الدكتور (نبيل أبو حلتم) الذي كان كريماً ونبيلاً بالفعل.

وأسأل الله التوفيق فيما سعيت إليه.

عزام ابو الحمام المطور

الفصل الأول

ما هو علم الفولكلور

تمهيد :

أصبح مصطلح الفولكلور مصطلحا دارجا ليس في أفواه المتخصصين أو المثقفين في عالمنا العربي وحسب، بل في أفواه العامة من الناس لدرجة تم فيها إستخدامه بعيدا عن معناه الحقيقي المتضمن البعد العلمي وليس المعنى التراثي المتقادم أو المنقرض أو المتروك مثلما يستخدم في أفواه العامة، وأكثر من ذلك فإن بعض المثقفين والدارسين أعدوا الكثير من الكتب تحت عنوان الفولكلور التقليدي هذا، لتجد أن هذه الكتب ما هي إلا صور لبعض الأدوات أو الملابس أو قليل من الأغاني الشعبية وغير ذلك، فيما تعكس هذه الكتب أدنى مســتوى من الوعي النظري أو غيابه على الاطلاق. ومن ألف باء أي علم أن يتم الإلمام بإطاره النظري إلماما تاما للكتابة فيه، وقبلا لاستيعاب مفاهيمه وهضمها، ثم حسن التعامل بأساليبه ومناهجه ...

ويجب بداية، أن نعلم (ولشديد الاسف أننا لا زلنا بحاجة الى مثل هذه الملاحظة)، أن الفولكلور هو في الحقيقة علم مستقل بذاته منذ عشرات السنين، خلافا لما يعتقده بعضهم من أن الفولكلور لا يتعدى أن يكون موضوعا أو مادة للهواة أو المتحمسين أو الرومانسيين أو حتى بعض المحافظين الوطنيين، وإذا كنا لا ننكر على كل إنسان استخدام تراثه الشعبي بالطريقة التي تناسبه، فإنه من حق هذا التراث، على الأكثرين علما وتأهيلا تناوله كمادة علمية من أبعادها المتنوعة، وذلك ليس حفاظا عليه من السرقة او الاضمحلال وحسب، بل سبرا لأغواره العميقة لفهمه وهضمه وإعادة انتاجه في حياتنا وآدابنا وربما علومنا المختلفه، ومن ثم التعامل معه كمادة علمية قمينة بهذا الدور، يمكن من خلال دراستها تفهم الماضي، التاريخ والهوية، وكذلك الحاضر لمحاولة تخطيطه، والمستقبل لمحاولة التنبؤ ببعض جوانبه، أو المساهمة في تكوين

النظريات والمبادىء العلمية حول تطور وتغير المجتمع والثقافة من جوانبها المتنوعة وهذا ما يفعله العلم بالمجمل.

إذا، لابد أن يؤمن الدارس بأنه إنما يتعامل مع علم له أصوله ومناهجه وأساليبه ونظرياته وأهدافه التي تميزه عن غيره من العلوم الإنسانية، كما تربط بينه وبينها، خاصة تلك العلوم ذات الصلة الحميمة بمجال اختصاصه كالانثروبولوجيا، وخاصة الأنثربولوجيا الثقافية والدراسات الاجتماعية والأدب[١]. وانه مثله مثل أي علم من العلوم الاجتماعية والإنسانية، بحاجة إلى تصورات نظريه متكاملة، ومناهج وأساليب بحثية كباقي الحقول العلمية الأخرى. وأنه لمن المفيد تكرار نداء د. احمد مرسي في بداية ثمانينيات القرن المنصرم لأن نطبق القانون العلمي على الظاهرات الفولكلورية باعتبارها ظاهرات إنسانية (إذ إن كل ثقافة تخلق مصطلحاتها وأشكالها الفنية الخاصة بها) أي أن نتمعن في خصائص مادتنا وواقعنا التراثي لاستنباط واستقاء ما يخصه من قوانين تصلح لدراسته، لا أن نستورد فقط من الغرب ما توصل إليه بشأن تراثه[٢]. وهو النداء نفسه الذي نادى به عالم الاجتماع الفرنسي أميل دوركايهم (١٨٥٨- ١٩١٧) قبل أكثر من مائة عام، لا بل أن ابن خلدون (١٢٣٠- ١٣٣٠) كان قد اكتشف هذه الحقيقة وتناول الظاهرات الاجتماعية (العمران البشري) وفقهها قبل الغربيين بمئات السنين ، صحيح أن في الفولكلور الكثير من أصناف المادة التي تتصف بالمتعة والإثارة إلى درجة السحر إحيانا وبما يضفي عليه خصائص الغرابة واللامنطقية والرومانسية وغير ذلك مما يخالف الصيغ العلمية والموضوعية، غير أن كل هذه الخصائص وغيرها هي جانب من الجوانب التي يتعاطى معها العلم والمنهج العلمي كموضوعات للمعرفة بشكل عام والمعرفة الاجتماعية بشكل خاص، وهذه الموضوعات تتضمن قدرا كبيرا من الإشكالات والمفاصل والتعقيدات النظرية والميدانية لا يرتقي لمواجهتها إلا كل من تسـلح بالنظرية والمراس وروح البحث العلمي وأساليبه ومناهجه ...إلخ. وإنه لكي يصل الى هذا المستوى من التعامل مع الفولكلور – مادة وعلما – لابد له من بعض المشقة والمثابرة والبحث والدرس لكي

يستطيع تبين ابعاد تلك التشكيلات المتنوعة من المادة الفولكلورية، ولا بد له من التزود بكثير من المعارف لتذوق تلك النصوص تذوقا لا يكتفي بالقشور، بل يغوص الى الجواهر واللب. لا أن نكتفي بتسجيل ما غرب أو لمع أو درس من هذا التراث بدافع الحمية الوطنية أو الرومانسية.

وبالمقابل، يجب عدم التهيب المبالغ فيه من التعامل مع هذا العلم كأن نعتبره علما مثل العلوم الطبيعية كالطب والرياضيات والذرة في قوانينه وصرامته وتعقيداته، فهو واحد من العلوم الاجتماعية التي يمكن هضمها واستيعابها ببعض الجد والدرس والمثابرة، وأنه ليس من باب التبسيط أو المبالغة القول إن التعاطي مع بعض مستويات هذا العلم متاح وميسر للعديد من الدارسين الذين يتمتعون بالحد الأدنى من المبادىء العلمية، بحيث يمكن لهم القيام بإسهامات جيدة في تحصيل بعض الإنجازات في هذا المضمار وخصوصا ما تعلق بجمع المادة التراثية من الميدان وتصنيفها، وقد فعل ذلك بعضٌ من غير المختصين في الواقع، فلقد أنجز بعض المثقفين أو المدرسين إنجازات ملموسة في الفولكلور مثل جمع القصص الشعبي لمنطقة معينة مثلا، وقام آخرون بجمع طائفة من الأمثال الشعبية، وقام أخرون بتوصيف بعض العادات والتقاليد في مناحي الحياة المختلفة مثل العادات والتقاليد في العرس أو الختان، أو الأنساب العشائرية أو التاريخ الشعبي أو تاريخ المدن والقرى وتراثها.. إلخ، وكان بعضهم أكثر جسارة وكفاءة فحقق في القانون العشائري لمنطقة معينة، وكتب آخرون بعضا من التاريخ الشعبي لمجتمعاتهم ...

على أنه في كل الأعمال الجيدة او المقبولة كان لا بد من توافر الشروط العلمية أو المنهجية لتصبح كذلك، حتى إن اقتصر الأمر على الوصف والحصر والتصنيف، وسنأتي إلى ذلك في الحديث عن الأساليب والمناهج لعلم الفولكلور في الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب، ولكننا نؤكد منذ البداية أن بوسع المهتمين الإسهام الفاعل أو الجيد حتى وإن لم يدرسوا هذا العلم في الجامعات أو المعاهد على ندرتها في البلاد العربية، ولذلك فإن المختصين في بعض العلوم الاجتماعية مثل علم

الاجتماع وعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) وكذلك اللغة العربية وآدابها والتربية والتاريخ... إلخ يمكنهم القيام بدور الباحث في الفولكلور انطلاقا من وحدة أو تشابه المناهج والأساليب المستخدمة في هذه العلوم من جانب، وانطلاقا من تداخل حقول الدراسة بينها أيضا، بل إن بعض المختصين باللغة العربية قدموا اسهامات ممتازة في هذا العلم مثلما فعل الدكتورعبد اللطيف البرغوثي الذي قدم بعض الأبحاث والكتب في الفولكلور بينما كان مختصا في اللغة العربية، ولم يكن اعتباطا شغله لأول مقعد لتخصص الفولكلور في جامعة بيرزيت أوائل الثمانينيات وتدريسه لمساقاته لعدة سنوات. وقد فعل مثل ذلك رائدي الأدب الشعبي المصري احمد رشدي صالح و د .عبد الحميد يونس، والعلامة الأردني المختص في اللغة العربية روكس بن زائد العزيزي ...

على أننا لا نشير إلى مثل هذا المستوى من الباحثين المتميزين فحسب، فلقد قدم بعض الباحثين الأقل تعليما أعمالا جيدة جدا في التراث، بعد أن تمكنوا من أساليب الجمع أو حققوا الشروط المنهجية والمنهاجية، وخصوصا في توفير المادة التراثية بالالتقاط من خلال الملاحظة أو المقابلة أو غيرها من الأساليب، وإن كان من الصعب حصر هذه الأعمال، فإننا نكتفي بالإشارة إلى الأعمال الكثيرة التي توثق تراث القرى والمدن في شتى أقطار الوطن العربي، ونخص بالذكر القرى والمدن الفلسطينية، التي هبّ الكثير من أبنائها بدوافع وطنية وعلمية وعاطفية لتسجيل تراث قراهم ومدنهم في ضوء حقائق الصراع والتشتيت والغربة والتغير أيضا. ومن ذلك أيضا أن هذه الدراسات طالت معظم العواصم العربية والمدن العريقة فيها، بعد أن تصدى لمثل هذه المهمة فئات مختلفة من المثقفين والباحثين بعد أن تيقنوا من أمرين أساسيين: أهمية التراث الشعبي، ثم الاخطار الكبيرة التي يواجهها هذا التراث جراء التطور السريع في الحضارة.

فرصة أخيرة وفرص كثيرة:

وإنه لمن الطريف، أننا في هذه الأيام لا نزال نعيش ما يمكن تسميته الفرصة الأخيرة في جمع التراث وتصنيفه ودرسه، فإنه لا زال بين ظهرانينا الكثير من المصادر الحية النابضة التي يمكن من خلالها الاتصال مع أبعد فترة ممكنة من فترات

الغنى الفولكلوري البائد، وأقصد بذلك أواخر المرحله العثمانية وبداية مرحلة الاستعمار الحديث، فإنه لا زال بين ذوينا بعض المعمرين الذين يحتفظون بذاكرة جيدة تسمح باستشفاف المزيد من جوانب الحياة في تلك المرحلة التي حملت إلينا تراث المئات من السنين الخالية التي كان التراث فيها قليل التغير، ومن خلال أولئك يمكننا الإفادة في تسجيل الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية وعاداتها وقيمها وأحداثها...الخ، من خلال بعض الأنماط التراثية التي لا زالت حية، والقادمة من تلك المرحلة، ولا زال بإمكاننا ملاحظة وتسجيل المزيد من جوانب الحياة الشعبية وتراثها من جميع جوانبه، كالعادات والتقاليد واللهجات والتاريخ الأجتماعي، بل حتى بعض المقتنيات المادية من أدوات الزراعة والصناعة إلى بعض الادوات المنزلية أو الفنية ....الخ . وبالطبع فإن التراث لا ينحصر في تلك الفترة ولم ينتهِ بانتهاء الفترة العثمانية، فالتراث لا يزول بزوال الدولة، فما كان سائدا في بداية مرحلة الانتداب البريطاني، هو نفسه تقريبا ما كان معروفا في أواخر الفترة العثمانية، ونحن هنا نتحدث عن فترات زمنية تقاس بعشرات السنوات على الأقل، والتغيير في تلك الفترات كان بطيئا جدا بحكم تأخر وسائل الإتصال والمواصلات، فتقاليد العرس الفلسطيني مثلا في الثلاثينيات من القرن العشرين لا تختلف كثيرا عنها قبل مئة عام، وتلك المعروفة في السبعينيات لا تختلف عما كان سائدا في الأربعينيات، ومن المعروف أن أجيال تلك المرحلة لا يزال بعضهم يعيش بين ظهرانينا حتى اليوم، فأولئك الذين ولدوا في الثلاثينيات بوسعهم إعطاء وصف جيد للكثير من العادات والقيم والتقاليد والأحداث في فترة الأربعينيات والخمسينيات، وتتراوح أعمارهم هذه الأيام في حدود السبعينات من السنين، ولا يزال لدينا بعض المعمرين الذين يناهزون المئة عام، وبعض هؤلاء المعمرين بوسعه مثلا توصيف العديد من مناحي الحياة منذ أوائل العشرينيات من القرن العشرين، من مثل ثورة البراق في فلسطين أو دخول الأمير عبد الله بن الحسين إلى شرقي الأردن في عام ١٩٢١ مثلا وما حول ذلك من أحداث أو عادات أو تقاليد أو حرف أو أغاني أو ألعاب أو أساطير أو قيم أو قوانين ..إلخ أو بامكانهم توصيف تراث المجتمعات العربية

عشية استقلالها أو خلال فترات الاستعمار الذي تأخر في بعضها حتى الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم. أما في الفترات اللاحقة لسبعينيات القرن العشرين فإن الأمر سيأخذ منحى آخر بفضل العديد من العوامل وخصوصا ما تعلق منها بالتقدم في الاتصالات والمواصلات، ثم في الوسائل العلمية والثقافية وغير ذلك من العوامل.

لقد اعتدنا في العقود الماضية، حتى بداية الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي على وتيرة بطيئة للتطور والتغير في معظم البلدان العربية، وكان بوسع المرء حتى ذلك الوقت مشاهدة تنوع أنماط الحياة وأشكالها في معظم القرى العربية وبعض المدن الصغيرة كذلك، فالنمط الرعوي يعيش جنبا إلى جنب مع النمط الزراعي والنمط المديني وما يتخللهما من حيثيات ثقافية تميز كل نمط من هذه الانماط، وبعد عقد الثمانينيات من القرن الماضي بدأنا نلمس مظاهر التغير والتقدم بوتيرة متسارعة لم نعتد عليها قبل ذلك، ولا تزال هذه الوتيرة في تسارع كبير ينضوي على قانون داخلي مضطرد لتسارعه. وهذا ما يوجب علينا التحوط والمسارعة إلى تسجيل وتوثيق ما يمكن توثيقه بالسرعة الممكنة.

هذا ما قصدناه بالفرصة الآخيرة التي قد لا تطول لأكثر من بضع سنوات. يحسن بنا استغلالها أحسن استغلال.

لكننا أيضا لن نعدم وجود فرص أخرى لا بد من الإشارة إليها، ألا وهي فرص بعضها يتعلق بماض بعيد نسبيا، كمرحلة ما قبل ظهور الصناعة ووسائل المواصلات والاتصال، أي ما قبل بداية القرن العشرين، بالطبع من الصعب العثور على رواة عاشوا بوعيهم في ذلك القرن ولا زالوا صالحين لتقديم رواية دقيقة، لكننا لا نعدم أن نجد بعض المجتمعات المعزوله وشبه المعزولة في أطراف البوادي والأرياف البعيدة من تلك التي لم تتاثر كثيرا بالتقدم والتغير الذي اجتاح معظم المجتمعات وآثر في ثقافاتها، وبالتالي استطاعت تلك المجتمعات او الجماعات الحفاظ على قدر كبير من العناصر الثقافية والفولكلورية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وهي في معظمها عناصر كانت تعايش المجتمعات في القرون السابقة بقليل من التطور. وبعضها

الآخر، يتعلق بماض قريب، كتراث ثورة القسام ١٩٣٦ في فلسطين، أو تراث الثورة الجزائرية في الخمسينيات وتراث مجتمعات الصيد في دول الخليج العربي حتى السبعينيات وتراث المدن الصغيرة في كل أرجاء الوطن العربي.

على أن الفرص الكبيرة لا تنحصر – بالطبع – في دراسة جوانب سياسية، فالكثير من الجوانب والحقول الفولكلورية لا تزال أرضا خصبة للحصاد والجمع والدرس، ومن ذلك الموضوعات الثقافية في القرى البعيدة والتجمعات شبه المنعزلة مثل مضارب البدو التي لا يزال بعضها معروفا في مختلف مجتمعاتنا العربية سواء في إفريقيا أو آسيا، وإنها لفرصة حقيقية أن تقوم الجامعات ومراكز الابحاث بالتنبه إلى هذه الفرصة لتحاول تنظيم وتنسيق جهد شامل لمسح هذه التجمعات قبل فوات الأوان، لا ان يقتصر دورها على المطارحات النظرية داخل أسوارها وقاعاتها.

لكن الأكتفاء بتوجيه الرجاء أو النقد للجامعات أو غيرها لن يحل المشكلة، ولن يكفي أيضا عمل الجامعات والجامعيين في هذا المضمار الواسع وسع الحياة الإجتماعية وتنوعها، لذلك فإن هذا الكتاب يتوجه أيضا لغير الجامعيين الذي تمكنوا من تحصيل قدر مناسب من التعليم والثقافة أيضا، وبوسع هذه الفئة من الناس، وأعرف بعضهم وأهمية ما يقومون به، بوسعهم المساهمة الفاعلة في تسجيل تراث قراهم ومدنهم وباديتهم ومخيماتهم التي يقطنون فيها، أو تسجيل تراث الفئة الحرفية التي ينتمون إليها كالنجارين أو الصيادين أو الرعاة أو النساء العاملات في التطريز والحياكة أو الصناعات اليدوية ...

إن تلك الفئة من المهتمين بالتراث، أعني من غير الباحثين الذين تلقوا تعليما جامعيا مناسبا، على قدر كبير من الفاعلية والإنتاجية إذا ما توفر لهم القليل من التوجيه والإرشاد والتدريب والحوافز كذلك، ويحاول هذا الكتاب، توفير البيانات الاولية الضرورية لهم ولكل مبتدئ في هذا الحقل العلمي من طلبة الجامعات في السنوات الأولى، وخصوصا طلبة كليات العلوم الإجتماعية كافة.

نشوء علم الفولكلور:

يكتسب أي موضوع وأي حقل من حقول الدراسة صفة العلم، إذا ما إستخدم الأساليب والقواعد والمناهج العلمية في التعاطي مع مادته، وإذا ما كان لهذا العلم موضوع محدد خاص به، لا يتعرض إلى جوهره علم آخر سابق. وبما أن الموضوعات الفولكلورية هي موضوعات إنسانية وإجتماعية، فقد تناولتها الكثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية من جوانب متعددة إلى أن بدأت تستقل رويدا رويدا لتتبلور في حقل مركزي سمي بعلم الفولكلور.

غير انه من المؤكد أن علم الإنسان (الأنثروبولوجي) كان الحاضنة الشرعية لعلم الفولكلور، بعد أن بدأ الأول في ترسيخ أقدامه بين العلوم وراح يختط لنفسه ما يناسبه من النظريات والمناهج والأساليب، متسلحا بالأعمال الميدانية والنظرية للرواد الأوائل أمثال مالينوفيسكي وراد كليف براون والأخوين جريم والكساندر كراب في أوروبا وتايلور وفريزر في أمريكا وغيرهم الكثير.

وقد افترق الفولكلور عن الأنثروبولوجيا الإجتماعية ليتخصص في دراسة العناصر الثقافية المؤثرة في أشكال التعبير الأدبي والفني، التي تصدر عن وجدان جمعي، في إطار شعب من الشعوب، في فترة زمنية محددة[٣]. وسنستعرض علاقة الفولكلور بالانثروبولوجي عند الحديث عن علاقته بالعلوم الأخرى. ولقد إستطاع الرواد الأوائل إخضاع المواد الفولكلورية كافة إلى هذه المناهج والأساليب والقواعد منذ عشرات السنين وخصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وعادة ما تعزى البدايات الأولى لعلم الفولكلور للباحث الأنجليزي وليم تومز **Tomes.j.W** وذلك أواسط القرن التاسع عشر. كان وليم تومز قد كتب في عام ١٨٤٦، بإسم مستعار هو إمبروز ميرتن، رسالة – مقالة إلى مجلة المجمع العلمي أو الأدبي **The Athenaeum** إقترح فيها إستعمال كلمة فولكلور **Folklore** الكلمة السكسونية المركبة من (فولك **Folk**) وتعني الشعب في الانجليزية القديمة، بينما تعني

لور **Lore** حكمة في اليونانية، فيصبح معنى الاصطلاح حكمة الشعب، وأصبح هذا الإصطلاح معتمدا ومشهورا حينما اعتمدته جمعية الفولكلور الإنجليزية التي تأسست عام ١٨٧٧(٤).

وقد اقترح تومز هذا الإصطلاح ليدل على دراسة المعتقدات والعادات المأثورة، وكذلك ما كان معروفا حتى ذلك الوقت – بشكل غامض – بالآثار الشعبية القديمة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أخذت كلمة الفولكلور تعني في نظر الأوروبيين كل طقس دقيق من الطقوس التي توصف غالبا بأنها أسطورية وهي تصاحب الإنســـان من المهد إلى اللحد، ونســـتطيع القول إنه إنسانية المجتمع، حيث أنه شيء انتقل من شخص إلى آخر، وحفظ إما: عن طريق الذاكرة، أو بالممارسة أكثر مما حفظ عن طريق السجل المدون(٥).

وكان الأخوان يعقوب جريم ووليام جريم في المانيا قد سبقا تومز في دراسة الحكايات المنزلية في عام ١٨١٢، إذا جمعا الكثير من الحكايات الشعبية وتناولاها بالتحليل والتصنيف فيما اعتبر المرة الأولى التي تخضع فيها مادة تراثية لمناهج الدراسة العلمية، على أنه في أواسط القرن التاسع عشر وأواخره بدأ يظهر فرع مستقل في دراسة الفولكلور، كما تطور في القرن العشرين. وكان الاهتمام بالفولكلور قد إرتبط إرتباطا وثيقا بتيارات الرومانسية والقومية في القرن التاسع عشر، وكان تمجيد الإنسان البسيط يتضمن إهتماما حميما بكلامه وعاداته التي كان يعتقد أنها في طريقها للانقراض.

ويشار إلى جهود الألمان المبكرة في نمو وبلورة هذا الإتجاه من الإهتمام بالتراث الشعبي منذ بداية القرن الخامس عشر، وشهدت المانيا جهودا جبارة وشاملة في محاولة توثيق التراث الشعبي منذ وقت مبكر، مما هيأ الظروف المناسبة لنمو دراسات الفولكلور الجادة والمتعمقة، والتي يرمز لها بجهود الأخوين جريم عادة، ويشار كذلك إلى جهود واسهامات أخرى في الدول الأوروبية، وخصوصا في فنلندا التي كانت قد عانت الاحتلال السويدي ثم الروسي على مدى ما يقرب من خمسة قرون

وحتى عشرينيات القرن العشرين، وقد تمخضت الجهود الفنلندية عن واحد من أعظم أرشيفات الفولكلور في العالم كله، إذ يضم نحوا من مليونين ونصف المليون مادة فولكلورية مسجلة على بطاقات وأشرطة ....، كما يضم المبنى الكبير الذي يحتله الارشيف، في قلب مدينة هلسنكي، مكتبة ضخمة تضم كل الدوريات والكتب التي صدرت في العالم بمختلف اللغات عن مجمعات الفولكلور ودراساته(٦).

وعند الحديث عن فنلندا ودراسة الفولكلور فيها يصعب تجاهل الدراسات الجادة والموضوعية المبكرة التي قامت بها الباحثة الفنلندية هيلما جرانكفيست **Hilma Granqvist** في المجتمع الفلسطيني في الأعوام ١٩٢٥ – ١٩٣١، وسنتعرض لهذه الدراسات في الفصل الثاني في الحديث عن بدايات الدراسات الفولكلورية في المجتمعات العربية.

والذي يعنينا الإشارة إليه في مجال البدايات ذلك الجهد العظيم الذي أخذه على عاتقهم عدد من الرواد الأوائل في عدد من البلدان، ولولا هذا الجهد لما اكتمل ذلك التراكم الكبير الذي أتاح لعدد كبير آخر من الدارسين تطبيق الوسائل والطرائق والمناهج العلمية خلال دراسة هذه المواد.

وكان قد جرى جدل كبير بين التيارات والمدارس والمتخصصين في علوم شتى بشأن موضوعات الفولكلور وحدوده ومناهجه، فضلا عن تعريفه. وفي تقديري أن الباحث أو المهتم المبتدىء لا تعنيه هذه الخلافات إلا في حدود بسيطة، فإن هذا الجدل الذي يبدو كثيرا كجدل بيزنطي، بدأ يهدأ ويخف، وثبت أن مبررات هذا الخلاف والجدل العميق أضحت غير ضرورية خصوصا في وقتنا الحاضر بعد أن استطاع الفولكلور السير بثبات، باحثا في الكثير من عناصر الثقافة في المجتمعات المختلفة بشكل ناجح، ســواء كانت هذه المجتمعات بدائية أو قروية أو بدوية أو مدنية، وقد استطاع تأصيل مفاهيمه ومصطلحاته وقواعده ومناهجه ونظرياته مما مكنه من الإنتقال إلى المرحلة اللاحقة في البحث والمعالجة العلمية لمختلف الموضوعات التي يتعاطى معها وبكفاءة عالية، ولذلك لا أرى ضرورة لبسط الآراء العديدة للعلماء والمختصين

الأوائل في شأن تعريف العلم وموضوعه وحدوده وعلاقته مع العلوم الأخرى، وحري بالمهتم الإطلاع عليها في الوقت المناسب من مصادر أخرى غير هذا الكتاب.

تطور الدراسات الفولكلورية في البلاد العربية:

لم يكن تخلف الدول العربية في مجال الدراسات الفولكلورية أو الاجتماعية وحسب مثلما هو معروف، فقد رزحت هذه البلاد آمدا مديدا تحت الحكم العثماني الذي لم يستطع مسايرة التقدم العلمي في العالم الأوروبي منذ القرن السادس عشر، بعد انتهاء العصور الوسطى، وظلت البلاد العربية تعيش حالة من الظلام والتخلف إلى أن بدأت تباشير النهضة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع قدر كبير من النسبية بين هذه المنطقة وتلك، وإنه من اليسير القول أن الدراسات الفولكلورية، بل الدراسات الاجتماعية عموما لم تبدأ قبل الربع الأول من القرن العشرين وللأسف، ولسنا بصدد المزيد من التفصيل في هذا الموضوع.

إن الدراسات التي يمكن إدراجها في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، جاءت على أيدي الرحالة والمستشرقين الأجانب، الذين طالما أولوا الكثير من الإهتمام لبلدان الوطن العربي، وبعضهم كان مدفوعا بدوافع استعمارية، وآخرين بدوافع الشهرة أو بدوافع دينية عاطفية مثل أولئك المهتمين بمنطقة فلسطين .

ففي مصر، البلد العربي الأكبر، سجلت حملة نابليون مسوحات شاملة عن مختلف أوجه الحياة، وقد وفرت هذه البيانات معطيات أنثروبولوجية مهمة حول الشعب المصري، كان الهدف منها سبر أغوار المجتمع المصري ليسهل السيطرة عليه والتعامل معه من قبل المستعمرين، وفيما بعد، كان بعض المثقفين والمتعلمين المصريين الذين اطلعوا على حضارة الغرب قد بدأوا يقودون حركة ثقافية ناهضة أسهمت في التهيئة لنشوء الإهتمام بالفولكلور، ومن أولئك مثلا أحمد تيمور باشا الذي كتب "الأمثال العامية" و "الكتابات العامية"، ومنهم أحمد أمين "قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية"، وما أن لاح النصف الثاني من القرن العشرين حتى تطورت الظروف الملائمة، فقام بعض الطلبة المصريين بتقديم أطروحات الدكتوراة في

موضوعات فولكلورية أدبية مثل (ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوي، وعبد الحميد يونس الذي أعد رسالتين (الظاهر بيبرس) ١٩٤٧، ثم (السيرة الهلالية وسيرة بني هلال ١٩٥٠[٧]). ومن ذلك أيضا جهود الدكتورة الباحثة نبيلة ابراهيم التي أمدتنا بعدد من الدراسات الإجتماعية والفولكلورية عن المجتمع المصري والفلسطيني والسعودي.

كان اهتمام بعض الباحثين الأجانب في البلاد العربية في ظل الإستعمار الإجنبي لهذه البلدان، لكن أغلب هذه الآثار تراوح بين ملاحظات الرحالة التي تتضمن قدرا كبيرا من المبالغات المبعثرة، وبين الدراسات الموجهة لخدمة السلطات الاستعمارية ذاتها، إلى الدراسات الاستشراقية التي لم يكن الفولكلور إلا موضوعا ثانويا فيها.

وفي فلسطين والاردن، كان الفولكلور شأنه شأن مناحي العلوم الأخرى أمرا ثانويا في ضوء التخلف الذي كان يعانيه المجتمع العربي عموما جراء ضعف الدولة العثمانية وسوء أحوالها على مختلف الصعد، وكان هذا المناخ مواتيا للأوروبيين الذين كانوا يراقبون أحوال البلاد العربية ويدرسون أحوالها وخصوصا فلسطين وشرقي الأردن التي كانت محط اهتمام الحركة الصهيونية التي كانت تنمو وترعرع في الوسط الأوروبي.

وفي هذا السياق، نشطت حركة الاستشراق[٨] في البلاد العربية، ونال فلسطين والمجتمع الفلسطيني قسطا وافرا منها، ويعتبر الباحث الفولكلوري نبيل علقم[٩]، أن مسيرة الاهتمام بالفولكلور الفلسطيني تراوحت على مرحلتين، الأولى هي مرحلة الاستشراق من ١٨٦٥ – ١٩٤٨. والثانية مرحلة اليقظة، منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن. وقد يصلح هذا التأريخ للكثير من البلدان العربية التي لم تكن لتختلف في ظروفها السياسية والثقافية كثيرا عن فلسطين من حيث رزوحها تحت نير الاستعمار الأجنبي بدءا من الحكم العثماني وحتى الاستعمار الأوروبي.

المرحلة الأولى – الاستشراق:

وخلال مرحلة الاستشراق هذه، زار فلسطين عدد كبير من الرحالة والباحثين الذين وصفوا جوانب متعددة من حياة الشعب الفلسطيني، بل إن أدب الرحالة كان قد عرف منذ القرن الرابع الميلادي، حيث صدرت عشرات المؤلفات التي لم يكن

فيها الوصف الفولكلوري إلا أمرا عارضا، فيما كان البحث عن الأبعاد الدينية المرتكزة على التوراة والأنجيل خصوصا أمرا أساسيا.

وفي فترة لاحقة، عندما راحت ملامح علم الفولكلور في التبلور والتحديد أكثر فأكثر، بدأت بعض المؤلفات تصدر متخصصة في هذا المجال، يذكر من أولها الفولكلور في العهد القديم في ثلاث أجزاء لمؤلفه السير جيمس جورج فريزر وهو صاحب "الغصن الذهبي" في اثني عشر جزءا والذي يجمع فيه الكثير من المعتقدات والتقاليد ويقارن بينها [١٠] وهو اسكتلندي من مواليد ١٨٥٤، والمؤلف المعروف او المهم الثاني هو الألماني غوستاف هيرمان دالمان، وأبحاث دالمان كثيرة ووفيرة، وما يعنينا منها اثنان هما: (العمل والعادات في فلسطين) وصدر في سبع مجلدات خلال الأعوام ١٩٢٨ – ١٩٤٢، ويعتبر اهم مؤلفات دالمان على الإطلاق، ويضم مسحا شاملا لجميع فروع العمل والحرف في فلسطين، بالاضافة إلى جميع المصطلحات والعادات والتقاليد ووصف الأدوات المختلفة المعروفة في فلسطين العربية، وله أيضا مؤلفات أخرى منها (ديوان فلسطيني) ويضم أبحاثا ووصفا وتسجيلا للأغاني الشعبية في فلسطين والأردن وسوريا، وسجل أغانيه باللهجات المحكية.

أما الباحثة الأكثر شهرة على الإطلاق بين المهتمين والباحثين فهي السويدية "الست حليمة"، وهي هيلما غرانكفست **Hilma Granqvist**، دكتورة مستشرقة، اتخذت من قرية ارطاس قرب بيت لحم مسكنا لها وحقلا لأبحاثها بين الأعوام ١٩٢٥ – ١٩٣١، وكانت حصيلة أبحاثها أربعة مؤلفات هي:

١ – **(الميلاد والطفولة عند العرب)** ويقع في ١٨٩ صفحة، وقد طبع في هلسنكي بالأنجليزية عام ١٩٤٧ .

٢ – **(معضلات الأطفال عند العرب)** ويقع في ٣٣٦ صفحة، هلسنكي ١٩٥٠.

٣ – **(تقاليد الزواج في قرية فلسطينية)** في جزأين يشتملان على ٥٦٦ صفحة، هلسنكي، الجزء الأول سنة ١٩٣١، والجزء الثاني ١٩٣٥.

وقد عادت الست حليمة عام ١٩٥٩ لتزور فلسطين. وشهد لها الكثيرون بموضوعيتها وسلامة نيتها، وشهدوا أنها أثبتت من خلال أبحاثها الميدانية الشخصية

المستقلة للشعب الفلسطيني، وأثبتت أن الشعب الفلسطيني هو الأصل في أرضه، قبل أن يغير عليه اليهود(١١).

وعادت هيلما جرانكفيست وقامت باعداد دراسة اخرى عن المجتمع الأردني في الخمسينات، ولم نستطع معرفة المزيد عن هذه الدراسة.

وكتب مستشرق آخر عن ارطاس، (القتل والزواج في ارطاس) إضافة إلى عشرات المقالات عن التراث الفلسطيني، وهو المستشرق بالدنسبرجر المولود في القدس من أبوين فرنسيين، وكتبت شقيقته لويز بالدنسبرجر مؤلفا شهيرا آخر من الأرز إلى حشيشة الزوفا، ومن ذلك أيضا، رحلة استكشاف إلى الأردن والبحر الميت ١٨٤٨ للأمريكي وليام فرانسيس لينتش، ومن ذلك كتاب عادات وتقاليد فلسطين للمهندس العسكري والمدني الإيطالي أرماتا باروتي حيث قضى في فلسطين ثمانية أعوام، وكانت نظرته للعرب نظرة سلبية.

وكانت الحكاية الشعبية في البلاد العربية من أهم الميادين التي أستأثرت باهتمام المستشرقين الأجانب، فقد نشر (اليس فيرمي) الحكايات التونسية عام ١٩٠١، ونشر (آرتين باشا) مجموعتي (حكايات من وادي النيل) و (حكايات من السودان) فيما بين ١٨٩٥ – ١٩٠٥ م، ونشر س. مايزر حكايات من صعيد مصر عام ١٩٠١، ونشر" ما يسز برونو (حكايات شعبية من العراق) ١٩٠٦، ومجموعة أوستروب نشرت عام ١٩٢٥ م، ومجموعة المستشرق الألماني أنوليتمان "حكايات هزلية وخرافية من مصر" ١٩٥٥، ومجموعته الثانية ١٩٦١ . ثم مجموعة فايس فايلر ١٩٦٦ م.

ومن القصص الشعبي في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة نشرت بحوث ومجموعات كثيرة، تطرقنا إلى بعضها، ويجدر الاشارة أخيرا إلا أنه مع بداية السبعينيات من القرن العشرين بالتحديد بدأت تظهر أعمالا فولكلورية وفق المنهج العلمي في جانب الحكايات خصوصا. (١٢)

وبالطبع يوجد الكثير من المؤلفات غير التي ذكرناها، فلم يخل قرن من القرون اللاحقة للميلاد من زيارات الرحالة الغربيين، وبعض هؤلاء الرحالة عاش في فلسطين فترات طويلة بل وجعلوها موطنا لهم وبدوافع دينية غالبا، وكانت هذه الدوافع

تحرك بعض اليهود والمسيحيين وكذلك المسلمين(*). وخلال هؤلاء تسللت بعض العناصر التي كانت تضمر دوافع أخرى غير الدوافع الدينية. أقلها أن بعض هؤلاء المستشرقين كان هاجسه الرئيس (الربط بين فلسطين كما تصور في العهد القديم وفلسطين الحديثة، ويدعون بناء على ذلك أنه التراث الشعبي اليهودي كما يصور في العهد القديم). (١٣)

لم يكن شرقي الأردن بمنأى عن الاهتمامات الاستعمارية والاستشراقية، فقد نظر إليه بعضهم باعتباره جزءا مما يدعونه (أرض الميعاد)(*)، واعتبره بعضهم مشمولا في وعد بلفور المشؤوم، ولهذه الأسباب وغيرها فقد وقع تحت الانتداب البريطاني وحتى استقلاله عام ١٩٤٦، وفي أثناء تلك المرحلة (الاستشراقية) كان عدد كبير من الرحالة والمستشرقين قد زاروا مجتمعات البدو ومختلف التجمعات السكانية وأعدوا دراسات كثيرة حولها، وبين يدي واحد منها يعتبر نموذجا لهذه الدراسات الاستشراقية، وهو من ترجمة حديثة أعدها د. سامي النحاس، والكتاب "العادات العربية في بلاد مؤاب" لمؤلفه أنطون جوسان وهو من ليون بفرنسا، تلقى تعليما كهنوتيا في فرنسا وهولندا، ودرس كذلك اللغات السامية والكتاب المقدس خصوصا، قام بدراسته هذه في الأعوام ١٩٠٢ – ١٩٠٥، وكانت حركته تدور في جنوب فلسطين وجنوب شرقي الأردن متنقلا بين مضارب البدو الرحل وشبه المستقرين، وقد انخرط هذا فيما بعد في خدمة المخابرات الفرنسية بين عامي ١٩١٥ – ١٩١٩ العاملة في شرقي البحر المتوسط، ووصل إلى رتبة رئيس لدائرة المعلومات الاستخبارية في المنطقة، وعلى

---

* – لم يكن اهتمام المسلمين ليقل عن اهتمام الغربيين بالديار المقدسة في فلسطين وأكنافها، فقد زار فلسطين معظم الرحالة المسلمين الأكثر شهرة، وسجلوا ملاحظاتهم عن معظم الأماكن المقدسة وخصوصا المسجد الأقصى والحرم الابراهيمي في الخليل والكثير من المساجد والمزارات والأماكن العامة والمحاصيل الزراعية والعادات والتقاليد الاجتماعية ... إلخ، وقد دأب الكثير من الحجاج المسلمين على ما كان يعرف برحلة التقديس التي تعقب رحلة الحج إلى الديار الحجازية، ومن أولئك حجاج المغرب العربي ومصر، وكانت أعداد ليست قليلة من المسلمين تتشوق للرحيل إلى فلسطين والأقامة فيها، ولا تزال فلسطين عموما والخليل والقدس خصوصا تحتضن عائلات من أصول عربية بعضها من أقطار المغرب العربي يعرف بعضها بأسماء: مغربي، مغاربة، مصري، المصري، السوداني، السعودي واليمني ... إلخ .

أثر هذه المعايشة المتنوعة اصدر جوسان كتابه المشار إليه، ثم أصدر وبالتعاون مع صديقه سافينياك (الأماكن الأثرية في شمال الجزيرة العربية) عام ١٩٢٠، وأصدر كتابا آخر "العادات في نابلس ومنطقتها" عام ١٩٢٧ [١٤]، ومن أبرز الرحالة الذين كتبوا حول الأردن والمناطق العربية بيركهارت مكتشف البتراء، الذي كان قد أختار لنفسه اسما إسلاميا عربيا (الحاج ابراهيم اللوزاني)، وكان هذا قد زار العديد من أقطار الوطن العربي برعاية من معهد الأستشراق في لندن، وكان أن نشرت حصيلة رحلاته تلك في: (رحلات بيركهارت في سوريا والأراضي المقدسة) وكذلك (الرحلات في بلاد العرب) و (الأمثال العربية) وغيرها أيضا، ومن أكثر المستشرقين شهرة في المشرق العربي الضابط العسكري البريطاني لورنس العرب، الذي بذل جهودا مميزة في التعرف على المجتمع البدوي في شرق الأردن خصوصا، وساعدته معرفته تلك على مساعدة الجهد الحربي البريطاني ضد الحكم العثماني في الحرب العالمية الأولى. وقد نشرت بعض أعمال لورنس العرب وأهمها: (أعمدة الحكمة السبعة) عن المجتمعات العربية في الأردن وشمال الجزيرة العربية ..

المرحلة الثانية – مرحلة النهضة :

أما المرحلة الثانية من تطور الدراسات الفولكلورية، فقد بدأ جيل جديد من الدارسين والمثقفين بالتعامل مع التراث من زوايا علمية متنوعة، فقد أشرنا إلى بعضها وخصوصا عبد اللطيف البرغوثي الذي درس الأغاني الشعبية الفلسطينية والأردنية، ومنها عمر الساريسي الذي كتب حول الحكاية الفلسطينية والأردنية، ونمر سرحان كذلك الذي ساهم ببعض الدراسات والمسوحات في المجتمع الأردني وبين اللاجئين الفلسطينيين في الأردن، أما أهم الدراسات التي تناولت خصوصيات المجتمع الأردني (الأرادنة) فقد كان من نتاج العلامة الأردني الكبير روكس بن زائد العزيزي إبن مادبا الذي عمر طويلا وانتج كثيرا من الدراسات التراثية وضعها في خمسة أجزاء ضخمة، سماها (معلمة التراث الأردني) وقد أشرنا اليها في أكثر من موضع من هذا الكتاب. وقد تبع هذه الدراسات دراسات أخرى من قبل بعض الباحثين غير المختصين، منها

(المرأة البدوية) ١٩٧٤، (من القيم والأداب البدوية) ١٩٧٦، (المناسبات البدوية) ١٩٧٩ للباحث د.احمد عويدي العبادي. وأعد محمد ابو حسان بحثا في (تراث البدو القضائي) في اواسط السبعينيات، ولم يتسنى لنا الاطلاع عليه. ومن الباحثين الأرادنة أيضا د. هاني العمد الذي أعد اكثر من مؤلف في التراث الأردني ...

وعموما سيلحظ المتابع للدراسات التراثية سواء في الأردن أو غيرها من الأقطار العربية غلبة الوصف البسيط والمتوسط على الدراسات التراثية، في حين أن القليل من المختصين تناولوا هذه الموضوعات بالتحليل والمقارنة وغيرها من المناهج البحثية.

بدأت هذه المرحلة حسب الباحث نبيل علقم بعد العام ١٩٤٨، أي بعد عام النكبة التي شكلت تحديا حادا للمجتمع الفلسطيني في كل المستويات ومنها المستوى الثقافي، وقد بدأ الوعي يزداد باهمية الحفاظ على التراث الفلسطيني التي يتعرض للغزو والحرب والسرقة والطمس كمحاولة من الحركة الصهيونية لطمس المعالم العربية الإسلامية في فلسطين.

وهكذا فإن الدافع القومي بدأ يحرك الاهتمام بالتراث الشعبي الفلسطيني، وكان من أبرز رواد هذه المرحلة الباحث الطبيب توفيق كنعان (١٨٨٢ – ١٩٦٤)، وقد كتب كنعان معظم أبحاثه باللغتين الانجليزية والألمانية، وكان من اهم انتاجه كتب ثلاث هي:(الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين)، (الخرافة والطب الشعبي في فلسطين)، (عالم الجن في فلسطين). كما كتب عشرات المقالات المنشورة في مجلات غربية، وتنوعت هذه المقالات على مختلف الموضوعات الفولكلورية.

وعند تفحصنا للجوانب الفولكلورية التي اهتم بها الدكتور كنعان نصل إلى الاستنتاج بأنه تناول الجوانب الصعبة في الفولكلور الفلسطيني، المعتقدات والخرافة، والمرارات والطب الشعبي، ولم يتناول الجوانب السهلة والممتعة مثل الأغاني الشعبية والحكايات وفنون التشكيل الشعبي ... (١٥).

ومنذ منتصف القرن العشرين، أو قبل ذلك بقليل، أخذ العالم العربي يحقق استقلاله السياسي، ويلقي عن كاهله وزر الأستعمار، ويملك زمام أمره ومقدراته نسبيا.

عندئذ تنبهت الدول العربية إلى أهمية التراث الشعبي في تأكيد الشخصية القومية، وعمدت بعض الحكومات العربية إلى الاهتمام بالتراث الثقافي الفكري منه والفني، بشقيه التقليدي والشعبي .. وفي الوقت نفسه كانت الجهود الفردية قد بدأت بالظهور في صيغ وصفية، فشاعت مصطلحات مثل (الفولكلور) و (الفنون الشعبية) و (التراث الشعبي)، ثم أضف إلى ذلك ظهور الاهتمام العلمي بالتراث الشعبي، حيث تناولت مناهج البحث وأساليب جمع المادة وتسجيلها .. .[١٦]

وفي مطلع الستينيات بدأت تظهر بعض الأعمال الأكاديمية الرفيعة، كان أهمها دراسة د.عبد اللطيف البرغوثي (الأغنية الشعبية في فلسطين والأردن) ١٩٦٣ حيث استخلص فيها بحورا للشعر الشعبي الغنائي الفلسطيني والأردني، ورسالة ماجستير عمر الساريسي (الحكاية الشعبية الفلسطينية) ١٩٧٢ التي استخلص فيها ألوان وأنواع الحكاية الشعبية مستخدما منهج الكساندار كراب في تحليل الحكاية، وتبعها بسلسلة أخرى من الحكايات التي جمعها بنفسه من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الأردن فأصدر منها خمسة أجزاء. وكان المدرس فايز علي الغول قد جمع وصنف العديد من الحكايات الشعبية ونشرها في القدس وعمان منذ أواسط الستينيات (الدنيا حكايات، أساطير من بلادي)، ولكنه كان قد تصرف في صياغتها لتناسب أهدافه التربوية المعاصرة. وبدأت تظهر أعمال جادة للباحث نمر سرحان منها (احياء التراث الشعبي) و (المباني الكنعانية في فلسطين). وأصدر فيما بعد (موسوعة الفولكلور الفلسطيني) بالتعاون مع وزارة الثقافة الأردنية، أما الدكتور عبد اللطيف البرغوثي فقد راح فيما بعد يواصل إعداد الدراسات الفولكلورية الجادة عن المجتمع الفلسطيني، فاصدر في الثمانينيات (حكايات جان من بني زيد) وغيرها واستحق الحصول على مقعد لتدريس الأدب الشعبي في جامعة بيرزيت منذ بداية الثمانينيات وتبعه في ذلك د. شريف كناعنة الذي قام بدوره بإصدار العديد من الدراسات الأكاديمية الجادة في الفولكلور، وفي تلك الأثناء، كانت دراسات جديدة وجادة قد بدأت تظهر منها الغول: مدخل لدراسة الخرافة (وأغاني العمل والعمال) لعلي الخليلي، وقام مركز الأبحاث في جمعية إنعاش الأسرة، برعاية جهود الباحثين فيه بإجراء مسوحات منتقاة عن

التراث الشعبي شاركت في بعض منها عام ١٩٨٣، فصدرت عن المركز بعض الدراسات منها مدخل لدراسة الفولكلور، لنبيل علقم، عام ١٩٧٦، ومنها (دراسات في المجتمع والتراث الشعبي – قرية ترمسعيا) لمجموعة من باحثي المركز، وكان مركز آخر يبذل جهدا كبيرا لنشر الثقافة ساهم في نشر بعض الدراسات الفولكلورية هو مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، فنشر هذا المركز الكثير من الدراسات حول الفنون والتطريز والتراث الفلسطيني، منها (الفنون الشعبية الفلسطينية) ليسري عرنيطة، (التطريز الفلسطيني) وبعض الدراسات الوصفية عن القرى والمدن الفلسطينية، وقامت مراكز بحثية وأكاديمية أخرى باصدارات جليلة في التاريخ الشعبي او مونوغرافيا القرى والمدن، ومن ذلك "سلسلة قرى محافظة الخليل الصادرة عن رابطة الجامعيين في محافظة الخليل، وصدرت كتب كثيرة عن الخليل والقدس ونابلس .. إلخ .

وفي المجتمع الأردني، قد يصح القول ان تطور دراسة الفولكلور، شهدت تطورا شبيها بذاك في المجتمع الفلسطيني، وإنه لمن شبه المستحيل وضع الحدود الفاصلة في الدراسات التي تخص الأرادنة والفلسطينيين نظرا لخصوصية العلاقة التاريخية والديموغرافية وبالتالي الثقافية والتراثية بين ضفتي النهر، فقد كان هذا الجزء من المنطقة العربية مركزا مهما من المناطق التي اهتم بها المستشرقون لأسباب استعمارية واخرى دينية باعتباره من اكناف بيت المقدس، ومحيطا حيويا للأرض المقدسة وربما جزء لا يتجزء منها، فقد شهدت هذه المنطقة وقائع دينية وتاريخية يعطيها مثل هذا المكانة، ففيها عمد يوحنا المعمدان المؤمنين الأوائل ومنهم المسيح عليه السلام، وقبل ذلك كانت هذه المنطقة مسرحا نشطا لمسيرة العبرانيين الذين ووجهوا بمقاومة شديدة في هذه الديار، وفيها مات موسى وهارون مثلما تشير إلى ذلك أغلب التقديرات، وفيها أيضا وقعت المعارك الاسلامية الكبيرة مع الروم وغيرهم من غزاة الأمم.

لقد نال المجتمع الأردني قسطا لا بأس به من الدراسات الاستشراقية ودراسات الرحالة الذين بحثوا في ثناياه عن مسألتين: عناصر التراث التوراتي بين السكان البدو والفلاحين، ثم عناصر الثقافة السامية بين البدو باعتبار أن هذه المجموعات البدوية ظلت تحتفظ بهذه العناصر بسبب عزلتها في الصحراء.

وكنا قد أشرنا غير مرة إلى الأعمال الموسوعية الرفيعة للعلامة الأردني روكس العزيزي التي أرخت لمختلف مناحي التراث الأردني في الفترات الي كان فيها التراث نقيا من أثار الحضارة الحديثة، تبعه عدد من الباحثين الأكاديميين في نشر أعمال علمية جادة منهم د. هاني العمد الذي قدم إطروحة دكتوراه في "الأمثال الشعبية الأردنية" عام ١٩٧٣ ن ثم تبعها بعدد أخر من الدراسات عن الأغاني الشعبية، ثم المراثي الشعبية، ثم ملامح الشخصية العربية في سيرة ذات الهمة، ثم الأدب الشعبي في الأردن . ومن الدراسات الأردنية الجادة في مرحلة السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم ما نشر للأسماء التالية: د. احمد ربايعة، احمد عويدي العبادي، جون باجوت كلوب، د.شبيب ابو جابر، عارف العارف، عبد الله رشيد، فهمي الغزوي، د.محمد ابو حسان، محمد محمود سرياني، د.يوسف شويحات وغيرهم الكثير أيضا مما يصعب حصره.

والنتيجة، ما أن أكتمل العقد الثامن من القرن المنصرم، حتى صار من غير السهل حصر كل الدراسات التراثية أو الفولكلورية حول المجتمعات العربية عموما بدون التفرغ لمثل هذا العمل ضمن أبحاث مستقلة مما يبشر بالخير في هذا الجانب.

تعريف الفولكلور:

إن أول ما يواجه الباحث هو كثرة المترادفات التي يقصد بها الفولكلور، وقد جرت العادة بين الباحثين على أن المصطلح كان إبتداعا للعالم الانجليزي وليم تومز Thoms .J .W ، وذلك من خلال ما جاء في رسالته – مقالته التي بعثها في شهر آب

الاصطلاح بالانجليزية آنذاك، وفولك folke تعني الشـعب أو العامة، والمقطع الثاني Lore ويعني المعرفة، وبذلك يكون المعنى للمصطلح (معارف العامة) أو (حكمة الشعب).

وقد أقترح ثومز هذا الاصطلاح ليدل على دراسة المعتقدات والعادات المأثورة، وكذلك ما كان معروفا حتى ذلك الوقت – بشكل غامض – بالآثار الشعبية القديمة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أخذت كلمة الفولكلور تعني في نظر الأوروبيين كل طقس دقيق من الطقوس التي توصف غالبا بأنها أسـطورية وهي تصاحب الانسان من المهد إلى اللحد، ونسـتطيع القول أنه إنسانية المجتمع، حيث أنه شيء انتقل من شخص إلى أخر، وحفظ إما: عن طريق الذاكرة، أو بالممارسة أكثر مما حفظ عن طريق السجل المدون(١٧).

على أن مصطلحا مشابها في اللغة الألمانية كان قد بدأ بالظهور قبل ذلك بسنوات، وهو مصطلح (فولكسكندة) Folskunde ويعود إلى هردر الفضل في استخدام المقطع الأول Folk، فقد استعمله لأول مرة في كتابه (الأغاني الشعبية) جنبا إلى جنب مع كلمات أخرى مثل روح الشعب، والمعتقد الشعبي، واستعمل مصطلح فولكسكندة في النمسا عام ١٨١٣، وكان المصطلح يعني أساطير شعبية (١٨). ولذلك فان بامكان الباحث تصنيف العديد من المجالات او الظواهر او العادات او الفنون تحت هذا الاصطلاح العام (حكمة الشعب)، ويميل الكثير من الدارسين العرب لاستخدام اصطلاح (التراث الشعبي) أو (المأثور الشعبي) للدلالة على الميدان نفسه، وهو من اكثر الاصطلاحات استخداما وقبولا وشمولا، فهو يتضمن الجوانب المادية واللامادية للتراث، بخلاف ما قد يعنيه اصطلاح (الفن الشعبي) أو (الادب الشعبي) او(الفنون القولية) وغير ذلك من الاصطلاحات التي يشيع استخدامها بين الدارسين العرب.

غير أن تعبير (التراث الشعبي) لا يتضمن معنى العلم، بمعنى المنهج العلمي الذي يميز العلم عن غيره من الموضوعات، فالتراث الشعبي هو المادة أو الموضوعات التي قد تندرج تحت هذا العنوان بصرف النظر عن طبيعة هذه الموضوعات. فضلا عن أن "التراث" لا يشترط فيه الانتقال الشفاهي، وذلك أهم معايير الفولكلور، إذ أن

المعلقات الشعرية السبع هي من التراث الأدبي العربي، ولكنها وصلتنا مكتوبة، وهي كذلك إبداعات فردية نظمت باللهجة الفصيحة، فلم تتحول إلى نتاج مشترك أو جماعي لتصبح فولكلورا. وهكذا فإن التراث ينحصر بالضرورة بالنتاجات الجماعية، الذي ينتقل بالمشافهة أو المحاكاة حصرا، وتلكم أهم شرطين من شروط المادة الفولكلورية.

ويشار كذلك الى اختلاف العلماء والباحثين خصوصا في البدايات، حول شمولية التراث الشعبي للجوانب المادية، وصار الكثير من هؤلاء يقر ويعترف بشموليته للجوانب المادية من الحياة الشعبية، كانماط المعمار للبيوت، والادوات الزراعية، وادوات الطبخ، والملابس بانواعها، وادوات الزينة من اساور وعقود واوشام .... الخ. وكان هذا التطور في النظر إلى الجانب المادي من التراث، (من أهم التعديلات التي طرأت على مفهوم المادة الشعبية)، وقد أصبح من المعترف به أن التعرف على الحياة الشعبية بجوانبها الروحية والمادية من الاهمية بمكان لتفسير مدى التغير في حياة مجتمع من المجتمعات) [١٩]

إن أهم ما يميز المادة التراثية الشعبية، هي إنتقالها عبر الآحاد والجماعات مشافهة وتواترا، دون أن يكون هذا التشافه والتواتر عملا نظاميا تقوم به المؤسسات أو الأفراد بهدف التعليم أو النشر بقدر ما كان بهدف التعبير – من خلال المادة التراثية – عن أهداف ووظائف متنوعة من توجيه أو تسلية أو تثقيف أو ضبط اجتماعي.

وكانت قضية الانتقال الشفاهي للتراث مرتكزا أساسيا في تعريف الفولكلور وتحديد موضوعاته، وبالأساس موقف معظم الأنثروبولوجيين، فإن تعريف الفولكلور يحتل مكانا كبيرا من اهتمام دارسيه والمهتمين به عامة، ذلك أن الفولكلور هو الأدب الشعبي الذي ينتقل عن طريق الرواية (الشفهية) وبذلك استبعدوا كل جوانب الابداع الشعبي الأخرى، والمعتقدات والحرف وما إلى ذلك مما ورد وما يزال يرد في كثير من التعريفات[٢٠].

والتعريفات الحديثة للفولكلور عديدة نسوق أهمها[٢١]:

١ – **الفولكلور هو بقايا القديم،** وثقافة ما قبل التمدين، أو "الموروثات الثقافية" في بيئة المدينة الحديثة.

٢ – **الفولكلور هو الجانب المأثور من الثقافة الشعبية.** ويتضمن هذا التعريف إقرارا بأن الفولكلور يتضمن الإبداع التقليدي للشعوب: بدائيين ومتحضرين.

٣ – **الفولكلور هو الاصطلاح الجامع لطائفة من الظواهر المأثورة،** يؤلف بينها أنها تعبر عن دور التراث أكثر من غيرها من الظواهر الثقافية أو الاجتماعية".

٤ – **الفولكلور هو ديانة متدهورة.** ويقصد بذلك أنه عبارة عن بقايا من الطقوس والمعتقدات الدينية القديمة التي ما تزال لاصقة بحياة الأميين والريفيين.

ومع أن مثل هذا التعريف فيه الكثير من المبالغة والضيق متجاهلا أن الثقافة للشعوب كانت على الدوام أشمل من الدين لأنها تتصل بكل مناحي الحياة من معتقدات وأداب وفنون وحرف وتقاليد وأعراف ..إلخ. لكنه مع ذلك يشير إلى جانب من جوانب التراث أو الفولكلور المتعلق ببعض المعتقدات ذات الصبغة الدينية مثل بعض القصص أو الأساطير، وبالطبع، فإن المعتقدات الدينية المؤكدة لا تخضع لمثل هذا الحقل من الدراسة مثل حادثة الأسراء والمعراج او حادثة قيامة المسيح أو صلبه عند المعتقدين به على سبيل المثال أو مثل المراسم الدينية الخاصة بالجنازة من تغسيل الميت والصلاة عليه ودفنه، لكن التقاليد اللاحقة لذلك من مثل عادات تقبل العزاء أو توزيع الحلوى والأطعمة أو الصدقات قد يكون مجالا للدراسة باعتباره متغيرا من مجتمع لآخر ومن مرحلة لأخرى.

٥ – **الفولكلور يعني الحكايات الشعبية.**

٦ – **الفولكلور هو ما انتقل معظمه مشافهة، والأدب الشعبي.**

وهذا التعريف يشير إلى: الأساطير، وقصص الخوارق، والحكايات الشعبية، والامثال الشعبية، والألغاز، والنظم أو القوانين والأعراف.

٧ – **الفولكلور هو الثقافة التي انتقلت مشــافهة بشكل عام.**

ومن المفيد الإشارة إلى أن سبينوزا (أحد أهم الرواد الأوائل في هذا المجال) قد تبنى هذا التعريف شارحا رأيه بقوله: إن الفولكلور ــ أو ــ المعرفة الشعبية ــ هو الرصيد المتراكم لما جربه النوع الإنساني، وما تعلمه، وما قام بممارسته عبر العصور في شكل معرفة شعبية وموروثة تمييزا لها عما يمكن أن يسمى بالمعرفة العلمية.

٨ - الفولكلور هو الثقافة الشـــعبية:

ومعنى ذلك أن الفولكلور يدرس المظاهر الثقافية للناس (العامة) في الثقافات المتحضرة. وقد وصف (فان جنب) في سنة ١٩٢٤ الفولكلور بأنه علم تركيبي يهتم بصفة خاصة بالفلاحين وبالحياة الريفية، وبما ظل باقيا من هذه الحياة في البيئات الصناعية وبيئة المدينة.

٩ - احدث تعريف للفولكلور:

هو المأثورات الروحية الشعبية، وبصفة خاصة "التراث الشفوي" وهو أيضا: العلم الذي يدرس هذه المأثورات.

وهذا التعريف مطابق لتوصيات مؤتمر الفولكلور الذي عقد في "أرنهيم" بهولندا في ١٩٥٥.

وهذا التعريف يساير ــ كذلك ــ أول صياغة لمعنى الكلمة كما وضعها (تومز) في سنة ١٨٤٦، حين عرف (الفولكلور) بأنه العقائد المأثورة، وقصص الخوارق، والعادات الجارية بين العامة من الناس، وكذلك ما أنحدر عبر العصور من السلوك، والعادات، والتقاليد (المرعية)، والمعتقدات الخرافية، والأغاني الروائية والأمثال الشعبية وغيرها.

وينظر (أورليو سبينوزا) إلى الفولكلور - كعلم - على أنه ذلك النوع من المعرفة الإنسانية الذي يقوم بجمع المادة الفولكلورية وتصنيفها ودراستها دراسة علمية كما يمكنه بعد ذلك أن يفسر حياة الناس وثقافتهم عبر الأجيال. والفولكلور عند (اسبينوزا) أحد العلوم الاجتماعية التي تقوم بدراسة تاريخ الحضارة، وتفسير جوانبها المتعددة، وعلى ذلك فهو - كمادة - كم متراكم من الخبرات التي اكتسبها الإنسان، والتجارب التي خاضها عبر القرون، فاستقرت في وجدانه على شكل عادات وتقاليد

ومعتقدات، أثرت في حياته، وما تزال تؤثر فيها فكرا وسلوكا . وهكذا يتكون الفولكلور -- وفقا لرأيه -- من المعتقدات والعادات والامثال والألغاز والأغاني والأساطير والحكايات الشعبية، والأحتفالات الدينية، وطقوس السحر والشعوذة، وما الى ذلك من مظاهر حياة الأميين، وعامة الناس في المجتمعات المتحضرة "[٢٢].

وهكذا يلاحظ القارىء الأختلافات الكثيرة بين العلماء والمختصين والدارسين في تعريف الفولكلور وفي تحديد حدوده، والملاحظ أن كل واحد من التعريفات يركز على جانب أو أكثر من حقول هذا الأهتمام فيما يتجاهل حقلاً أو أكثر منها. فيبقى للقارىء والمهتم تكوين الصورة المناسبة عن هذا الحقل، مرتكزا بالأساس إلى خصوصيات مجتمعه، ثم إلى ما يتاح له من معارف وتجارب واجتهادات.

وإذا ما رغبنا في وضع تلخيص شامل لأهم عناصر التعريفات السابقة وأكثرها قبولا، فإنه يمكن تقديم التعريف التالي للفولكلور:

هو مجال الدراسة الذي يستخدم الأســـاليب والمناهج العلمية في تناول عناصر راسخة من الثقافة الشفوية والمادية للمجتمعات البائدة والقائمة.

عناصر التعريف:

يشتمل التعريف السابق، على عدة عناصر، من المفيد تفصيلها ومناقشتها، وهي:

١ - **استخدام الأساليب والمناهج العلمية:** ويقصد بذلك الأساليب والمناهج التي اتفق العلماء والمختصين على سلامتها وصحتها لدراسة المواد أو البيانات التي تقع ضمن هذا الحقل الإنساني، والأساليب هي مجموعة من الإجراءات والأدوات والمهارات المنطقية اللازمة لعمليات جمع وتصنيف البيانات، وكذلك المناهج التي من خلالها يتم تحليل البيانات أو تركيبها أو سردها أو وصفها وفق مجموعة من المبادىء والمسلمات المنطقية المجردة أو العامة.

فمن خلال المنهج العلمي يستطيع العلم التوصل إلى تصوير الحقائق تصويرا موضوعيا لأن العلماء يستخدمون في دراستهم منهجا Method أو اسلوبا خاصا تم اكتشافه من خلال الدراسات العلمية المتعددة في كافة المجالات[٢٣]. ومن المفترض أن يسعى الباحث إلى إتقان تلك الأساليب والمناهج من خلال مصادرها الرئيسية كالدراسة

الجامعية، او الدراسة الشخصية، لأنه لا يمكن للباحث تجنب الوقوع في أخطاء جوهرية ما لم يكن ملما بهذه الأساليب والمناهج. وسنعاود الحديث عن المنهج العلمي في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

من ناحية أخرى، فإن العلم، أي علم، لا بد له من نظرية تؤطره وتؤسس له وتنير أبعاده المختلفة. ومع انه ليس في وارد هذا الكتاب معالجة مسألة النظرية، إلا أنه يجدر التأكيد أن النظرية شرطا أساسيا لأي عمل علمي صغر أو كبر، وإذا ما جاز لنا تبسيط مفهوم النظرية، (فالنظرية بالنسبة لعالم الأجتماع كالدين بالنسبة للجمهور الامريكي مثلما أشار شيلز عالم الاجتماع الأمريكي)[٢٤]، فهي بذلك تشبه التوجيهات والقواعد الهادية إتجاه قضية الفولكلور.

وهي في الحقيقة موجودة لدى أغلب الناس حتى البسطاء منهم، فعندما يحاول بعض الناس أن يجعلوا لأفكارهم أو خواطرهم نظاما معينا وينشروها ويناقشوها علنا، وعندما ترتبط محاولة صياغة المناقشة المنتظمة والمشروعة بمحاولة البحث عن معلومات تجريدية واختيار الأفكار في ضوئها، فإننا عندئذ ندخل مجال النظرية العلمية والبحثية [٢٥].

ويجدر التأكيد أيضا ان وجود (الاطار النظري للباحث قبل شروعه في البحث أمر ضروري)، فالنظرية (يجب أن تساعد في الإسهام في تدابير يمكن أن توفر لنا الوقت والجهد، وهي أداة تنتج أدوات أخرى طبقا لخطة عملية)[٢٦]. فهي إذا مرشد وهادي وآلية منظمة لجمع المشاهدات الحسية في إطار منطقي يفضي إلى مبادىء أو مفاهيم جديدة أو يسهم في تعديل ما كان قائما منها.

٢ – **الاعتماد على الثقافة الشفوية**: ومفهوم الثقافة مفهوم واسـع وشامل جدا بما يضاهي سعة الحياة وشموليتها، والثقافة هي أصلا نتاج الإنسـان والاجتماع البشري، أي كل ما يكتسبه الإنسان من معارف ومعتقدات وأفكار وعادات وسلوك .. في حياته، وهكذا فإن دراسة الثقافة تعني دراسة الحياة، دراسة المجتمع. أي إن الفولكلور هو دراسة الحياة أو الثقافة، وتحديدا العناصر الشعبية الراسخة في الحياة والثقافة.

وإذا كانت الثقافة تنمو وتستمر بمستويين متوازيين : المستوى النظامي او الرسمي، والمستوى غير النظامي أو الشعبي، فإن الفولكلور يهتم بذلك المستوى الشعبي، الذي يعبر عن العناصر الراسخة في البناء الثقافي بخلاف المستوى الرسمي الذي قد يكون موجها ومرعيا من قبل مؤسسات نظامية للسلطات القائمة، مما لا يعني معه إرتباط العناصر الثقافية بالوجدان الجماعي للمجتمع. وذلك ما تمتاز به العناصر الشفاهية.

والشفوية هي سمه المجتمعات السابقة على عصر الكتابة أو المتخلفة عنه، وهي بذلك تشمل المجتمعات البائدة، والمجتمعات التي لا تزال قائمة، والسمة المشتركة هي (الانتقال والانتشار الشفاهي للثقافة) وليس الأنتقال والانتشار الكتابي، وبمعنى آخر، فإن الفوكلور هو المأثور الشعبي، والمأثور هو المنقول بشكل رئيسي عن طريق الكلمة أو المثال أو المحاكاة، وليس ما يشيع أو ينتشر عن طريق المدرسة أو أي شكل رسمي كثمرة للجهود المنظمة، إنه ذلك الذي ينشأ بين الناس ويسري بينهم تلقائيا، ويقبله الناس دون تحقق، ويعيدون صياغته بين الحين والآخر، ويطورونه ليناسب حاجاتهم. وليس معنى ذلك ان أي مأثور في الثقافة من الضروري أن ينظر إليه على أنه فولكلور، فكثيرا من السلوكات أو الأفعال والأقوال – مثلا – تنتقل بالتواتر والمحاكاة والمشافهة، ولكنها لا تقع في صلب الدراسات الفولكلورية، وإن كان الفولكلور يتناول جوانب منها، ومثل ذلك بعض المعارف الجغرافية أو مثل الأساليب التجارية أو المعارف المختلفة.

إن نقل المواد أو المعارف أو الإبداعات بطرق غير شفوية، قد يجعلها أعمالا فردية، إذا ما كانت هذه المواد أو الإبداعات من إنتاج شخص أو أشخاص معينين مما قد يجعل من المادة المكتوبة نتاجا فرديا أكثر منه ثقافة عامة، كالقصائد الشعرية العربية القديمة مثل المعلقات السبع مثلا، أو مثل محاورات أرسطو في الآداب اليونانية التي وصلتنا مكتوبة، وغير ذلك الكثير من الإبداعات الفردية في مختلف الثقافات البشرية. وهذا الاعتبار أو الشرط (الشفاهية) يتضمن معنى جوهريا، هو أن هذه الثقافة الشفاهية،

انتقلت وانتشرت وعاشت ليس بدافع التعليم النظامي الذي يجعل من تعلم المادة هدفا أساسيا، بقدر ما تم ذلك بدافع الحاجة أو الوظيفة أو الانتشار.

على أن قاعدة (الشفاهية) لا بد من أن تواجه بعض الحالات الشاذة، إذ لكل قاعدة شواذ مثلما يقول النحويون، فإن ثمة مواد فولكلورية أصيلة كانت قد سجلت أو طبعت في أوقات لاحقة، فصارت كتبا أو صحفا مطبوعة، فهل يخرجها ذلك من نطاق الفولكلورية لهذا السبب الذي فرض عليها من الخارج، أو رغما عن إرادتها ؟ بالطبع لا، فليس من المنطق في شيء إسقاط أصالتها الفولكلورية بمجرد أن طبعت أو جسدت بطريقة فنية أخرى، ما دامت في الأصل نتاجا جماعيا عاش وانتقل عبر الأجيال ، ومن ذلك مثلا سيرة عنترة وأبو زيد الهلالي وقصص ألف ليلة وليلة وسيرة الظاهر بيبرس، وحكايات الأخوين جريم في المانيا، والكثير من الحكايات الشعبية التي بادر بعض المهتمين بجمعها وطباعتها بل والتصرف في صياغتها في أحيان كثيرة .. إلخ

٣ - **الجانب المادي واللامادي للفولكلور**: هذا العنصر الذي اشتمل عليه التعريف الذي نحن بصدده، كان محط خلاف بين المختصين والمهتمين بالتراث او الفولكلور، ومعظم الأنثروبولوجيين الغربيين ومعهم الفولكلوريون، لم يولوا الجانب المادي من التراث أهمية كبيرة في البدايات، ويتضح من التعريفات التي استعرضناها في الصفحات السابقة، أن الجانب المادي يكاد يكون غائبا من التعريفات. وقليل من المتخصصين مهتم بهذا الجانب، غيران هذا الجانب من التراث، كما الثقافة، أو الحضارة لا يمكن تجاهله أو التقليل من أهميته، فإن المواد أو النتاجات المادية، وخصوصا تلك المتعلقة بالاعتقادات أو الطقوس أو العادات، لا يجوز للباحث تجاهلها، لما تتبىء به هذه الأدوات من بيانات وخلفيات لها أهميتها في فهم وإغناء الجوانب البحثية المتعلقة (بالموضوعات اللامادية)، فهي في أحد جوانبها وثائق رمزية لظواهر معينة، وهي أيضا عناصر فاعلة في النسيج الثقافي - الاجتماعي الذي يدرسه الفولكلور، وبعضا منها يعد تمثلا مجسدا لبعض الأفكار والمعتقدات والطقوس .. ألخ.

على أن مفهوم الثقافة بحد ذاته كان هو الآخر محطا للاجتهاد والخلاف بين العلماء، فمنهم من جعله مقتصرا على النتاجات اللامادية للإنسان، أي الأفكار والمعتقدات والعادات والآداب والفنون واللغة والأديان والسحر ..إلخ. فيما يرفض هؤلاء اعتبار الجوانب المادية من الثقافة في تعريفها من مثل المخترعات والأدوات والملابس والأبنية والحرف ..إلخ.

على أن آخرين يجعلون من كل ما ينتج عن الإنسان من نتاجات مادية ولا مادية تعريفا للثقافة، أي أن الثقافة هي معادل الحياة، ومعادل الحضارة عند الكثير من العلماء والمثقفين والعامة كذلك. وتفسير ذلك أن الجانب المادي من الثقافة أو الحضارة هو انعكاس صادق للثقافة والفكر من جانب، وهو – أيضا – منتج لبعض العناصر الثقافية أو مرتبط به، فلا بد من دراسة هذه النتاجات المادية بنفس الاهتمام، ومن ذلك مثلا أنماط البيوت وأشكال وأنواع الأدوات الحرفية أو الزراعية، أو تلك المستخدمة في المنزل للطبخ أو العلاج أو الغناء أو اللباس والموسيقى، ومن ذلك أيضا (طاسة الرجفة) أو (طاسة الرعبة) وهي وعاء معدني صغير، مزين ببعض الرسومات والنقوش، يستخدم لعلاج الأطفال الذين عانوا من صدمة مخيفة. فدراسة هذه الأدوات واستخدامها يمدنا بمعلومات مهمة عن ثقافة المجتمع أو الجماعة ومعتقداتها. ومثل ذلك دراسة الحرف والصناعات اليدوية لهذا المجتمع، فإن في ذلك أيضا انعكاس للواقع المادي والثقافي لهذا المجتمع، فمثلا نستطيع أن نعرف من خلال وجود المغزل الخشبي أو النول، أن هذا المجتمع كان ينتج الغزل والنسيج بيديه وقد يكون هذا المجتمع مجتمعا رعويا إذا لم تتوافر إشارات أخرى على غير ذلك، ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أن مثل هذه الصناعة لا بد وأن لها طقوسا وأصولا ومهارات ..إلخ.

أما الجوانب اللامادية للفولكلور فهي متعددة ومتشعبة، وهي أكثر قبولا من الجانب المادي لدى معظم المشتغلين بالفولكلور، وهذه تشمل كل النتاج القولي أو الشفاهي للإنسان. وذلك يتضمن: الآداب، الفنون، اللهجات، المعتقدات والقيم والأعراف ..إلخ.

ومن أهم التعديلات التي طرأت على مفهوم المادة الشعبية، أن الجانب المادي من الثقافة الشعبية قد أصبح عنصرا هاما من عناصر الفولكلور[٢٨].

وقد اقترحنا في هذا الكتاب أن يظل الجانب المادي من التراث حقلا مرتبطا بالدراسات الفولكلورية، لكن ضمن سياق مستقل سميناه (الآثار الفولكلورية).

٤ – **العناصر الراسخة من الثقافة:** قلنا أن الثقافة إطارا واسعا وشاملا يشمل الحياة بجوانبها المتعددة، وأشرنا إلى المستوى الشفاهي – التلقائي من الثقافة، لكن ذلك لا يكفي لتحديد العناصر أو المجالات التي يهتم بها الفولكلور، فهل معارف الفرد الجغرافية أو الدينية أو سلوكه الفردي أو إبداعاته الأدبية تقع ضمن الأهتمام الفولكوري؟.

إن العناصر الراسخة في الفولكلور تعني الرسوخ في الوجدان الجمعي للجماعة او المجتمع، بصرف النظر عن مدى صحتها العلمية أو قيمتها الأبداعية، والرسوخ يعني أنها تناقلت عبر الأجيال وتواترت بالمشافهه والتقليد والمحاكاة، باعتبارها معارف ومهارات جماعية لا يجوز جهلها أو تجاهلها من قبل أفراد المجتمع، فهي ستكون ضرورية للأفراد لتحقيق التفاعل مع المجتمع، والخروج عنها أو تجاهلها من شأنه ان يلحق الخسارة او الأذى او الأستهزاء بالأفراد الذين يفعلون ذلك . في حين أن تجاهل العناصر غير الراسخة، التي لا تمثل الضمير الجمعي، لا تلحق بصاحبها اي أذى أو أي خسارة.

٥ – **المجتمعات البائدة والقائمة:** يميل الكثير من الفولكلوريين إلى دراسة المجتمعات الأكثر تخلفا أو أقل تحضرا من غيرها من المجتمعات، بل إن الأنثربولوجيين الغربيين الأوائل، دفعوا باتجاه أن ينحصر الفولكلور في دراسة الجماعات والمجتمعات (البدائية أو البربرية) من وجهة نظر الحضارة الأوروبية، تلك المجتمعات التي لا تعرف الكتابة والقراءة، فضلا عن معرفة التطورات والوسائل العلمية التي تراكمت وتطورت في معظم مجتمعات العالم بهذا المستوى أو ذاك.

وقد اعتبر البعض الآخر أن (مجتمعات الفلاحين البسطاء) هي المجال الحيوي لدراسة الفولكلور، وهم بذلك يعبرون عن مجتمعاتهم وتجاربهم في ذلك الحين، فنادرا ما ذكر مثلا مجتمع البدو المرتحل او المستقر . أما مجتمع المدينة، فقد تم استبعاده من

قبل معظم الأنثروبولوجيين والفولكلوريين الأوائل، إلى أن بدأ يتعزز الاتجاه الآخر الداعي إلى البحث في مجتمع المدينة، وخصوصا الأحياء الشعبية منها، التي تزخر هي الأخرى بمنظومات تراثية فيها من الغنى والعناصر التي تجعلها جديرة بالاهتمام.

وهكذا لم يعد مفهوم الفولكلور مقصورا على الريف، ومحصورا في القرى والنجوع، وصادرا عن الفلاحين وحدهم، وإنما أصبح مرتبطا بحياة الناس في أى إطار ثقافي يصوغ سلوكهم وعلاقاتهم [٢٧].

ومن المتوقع أن يتمكن القارىء المبتدئ من تكوين صورة أكثر شمولا وأكثر تحديدا لمفهوم الفولكلور وتحديد حدوده خصوصا في العرض التالي لعلاقة الفولكلور بغيره من العلوم الإنسانية، ثم بعد ذلك من خلال إستعراض عدد من المفاهيم والاصطلاحات الأساسية في الفولكلور. قبل الوصول إلى الفصل الثالث الذي يستعرض موضوع الاهتمام والدراسة في الفولكلور.

علاقة الفولكلور بالعلوم الأخرى:

أشرنا أكثر من مرة إلى علاقة التداخل بين الفولكلور والكثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية، وإذا كان العلم في الأصل لا يعترف بالتسميات القسرية، فإنه يعترف بالتخصصات ثم تكامل العلوم لخدمة المعرفة العلمية، وإذا ما تذكرنا أن الظاهرات الإنسانية بحد ذاتها تتداخل وتتشابك ولا تنفصل عن بعضها بعضا، فإنه يمكن – في هذا الإطار – تفهم علاقة التداخل والتباين أحيانا بين الفولكلور والحقول الأخرى من العلوم، ويذهب بعض العلماء للقول – خلاف ما هو شائع بين الناس – أن العلم اصبح منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين أقل تخصصا مما كان عليه من قبل، فهناك الكثير من الصلات المتشابكة، ولنعتبر بالفيزياء والكيمياء على سبيل المثال، فمنذ خمسين عاما قبل ذلك الوقت، كان كل منهما يعتبر مجالا يختلف عن مجال الآخر اختلافا كبيرا (تعنى الفيزياء بالكم بينما تعنى الكيمياء بالكيف)، ثم نشأت الكيمياء الفيزيائية وبعدها الفيزياء الكيميائية، وأصبح اليوم من العسير أن نذكر ما هو الفارق بين الفيزياء والكيمياء، حيث يتضاءل الفارق كلما إرتفع مستوى التجريد [٢٩].

ويبدو لي أنه بقدر ما يتزايد التفرع والتخصص في العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء، بقدر ما تتداخل وتتشابك موضوعاتها وقوانينها ومناهجها.

وفيما يلي استعراضا لعلاقة الفولكلور ببعض العلوم الاجتماعية ذات التداخل الكبير مع الفولكلور:

أولا – الفولكلور والأنثروبولوجي:

أشرنا أكثر من مرة إلى خصوصية العلاقة بين الفولكلور وعلم الإنسان بجميع فروعه التي لسنا بصدد الحديث عنها، وهنا سنتحدث عن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تخصيصا لكونه أكثر فروع الأنثروبولوجي مشاركة في هذه العلاقة.

ويشير عدد من العلماء والباحثين إلى أن الفولكلور نشأ من رحم الأنثروبولوجي، فالأنثروبولوجيا تدرس في العموم موضوعة الثقافة الإنسانية، ومفهوم الثقافة مفهوم واسع يشمل مختلف مناحي الحياة، أي أنه يتضمن في أحشائه الكثير من العلوم الاجتماعية ومنها الفولكلور. والثقافة حسب تايلور ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون، والأخلاق والقانون والعرف، وغيرذلك من المقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع. [٣٠]

ويرى العلماء الألمان أن الفرق بين الفولكلور والاثنولوجيا، هو أن موضوع الأثنولوجيا هو الثقافة، بينما المفهوم الأساسي في الفولكسكندة (الفولكلور) هو الشعب، أي أن الأثنولوجي تهتم بالثقافة الشعبية في أي عصر ولدى أي جماعة، في حين أن الفولكلور يركز على فهم الأنسان من خلال هذه الثقافة[٣١].

وكانت بداية الأنثروبولوجي تركز على المجتمعات (البدائية) أو (البربرية) حسب تسميات الأوروبيين للجماعات الأجنبية في حينه، لكن مثل هذا الاهتمام بدأ يتغير منذ زمن ليس بالقليل، والحقيقة أن الأنثروبولوجيا هجرت حقولها الأولى وصارت تولي اهتمامها للطوائف ذات الأحجام الصغيرة التي ظلت محافظة على العلاقات الشخصية المتبادلة بين أبنائها، حيث تطغى العلاقات المباشرة والقرابية، وحيث لا تزال التقنيات على بساطتها، لكنها أخذت تولي اهتماما للجماعات المدنية فضلا عن الطوائف الإثنية والدينية وجماعات الجوار والحي [٣٢].

وبينما استعملت الأنثروبولوجيا لدراسة المجتمعات (البدائية) خارج أوروبا، اختص الفولكلور بدراسة العلماء الأوروبيين لمجتمعاتهم نفسها. وإذ راح الأنثروبولوجي يدرس جميع نواحي ثقافة (المجتمع البدائي)، اختص الفولكلور بدراسة جزء محدد من ثقافة مجتمعاتهم. ونتج عن ذلك أن ارتبطت الأنثروبولوجي بالاستعمار الأوروبي وساعدته على فهم طباع الشعوب غير الاوروبية وأساليب حياتهم لتسهل على الأوروبيين استعمار تلك الشعوب واستغلالها، بينما ارتبط الفولكلور بحركات التحرر الأوروبية باعتباره وسيلة لإبراز الهوية وتعميق جذورها[٣٣].

غير أن اتجاها جديدا متناميا في الأنثروبولوجي، بدأ يبلور تصورات جديدة حول وظيفة الأنثروبولوجيا وحقوله، يحاول تجنيب هذا العلم ما علق به من شبهات استعمارية، وذلك من خلال توسيع ميدان الاهتمام في المجتمعات على اختلاف درجات التحضر فيها من جانب، وتمسكا بالمناهج العلمية من جانب آخر.

ثانيا – الفولكلور والتاريخ :

وصف الكساندر كراب الفولكلور بأنه علم تاريخي من حيث أنه يلقي الضوء على ماضي الإنسان، وإذا كان التاريخ يدرس العصور المختلفة كما تمثله فئة قليلة هي طبقات الحكام ورجال الفكر والأدب بشكل خاص، فإن على الفولكلور أن يعيد بناء التاريخ الروحي للإنسان كما تمثله أصوات العامة من الناس[٣٤].

فالتاريخ يلتقي مع الفولكلور في الكثير من المحاور، وخصوصا في المحور الرئيس الذي يفتش عن وقائع الماضي وظواهره، ويحاول تفسيرها واستخلاص قوانين التطور والتغير والتفاعل من خلالها. وقد يكون هذا المحور (الماضي) من البحوث هو ما يختص به الفولكلور والتاريخ من دون غيرهما من العلوم الأخرى. واللقاء لن يكون في حدود الموضوعات مجال الاهتمام وحسب، بل في مجال الأساليب والتقنيات البحثية التي يستخدمها كلا الحقلين . وإذا كان التاريخ عموما هو البحث في الوقائع والظاهرات الكبرى التي أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في تشكيل ما تلاها من صيغ الظاهرات على اختلاف انواعها سياسية أو اقتصادية أو ثقافية .. إلخ، فإن التاريخ الخاص بهذا

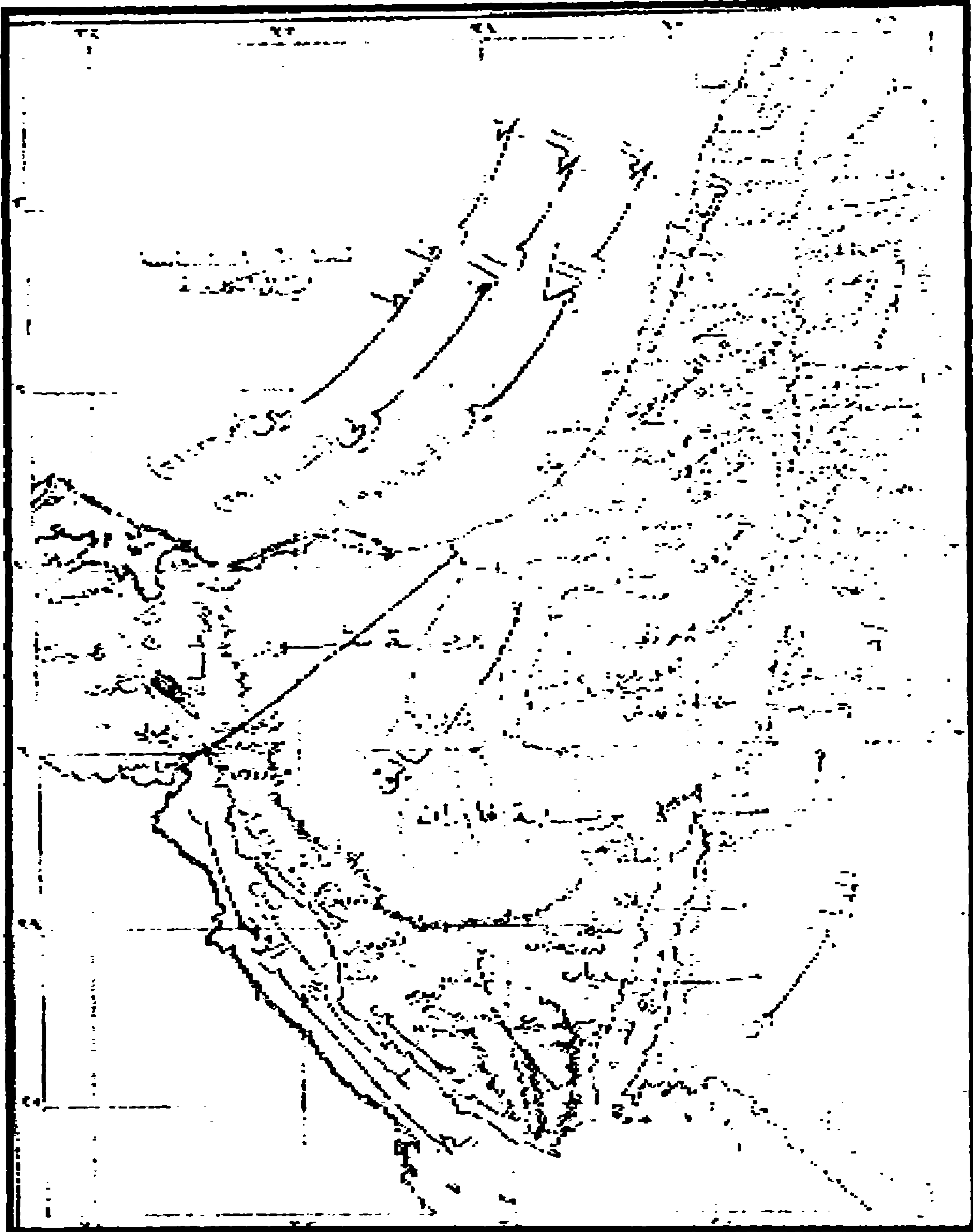
الموضوع أو تلك المنطقة كثيرا ما يلتقي مع (التاريخ الفولكلوري) أو التاريخ الشعبي أو الاجتماعي الذي بدوره يشكل وحدات أو أنساق فرعية في التاريخ العام للظاهرات.

لقد بدأ الأتجاه في التأريخ ينمو ويتعزز نحو البحث في الوحدات الصغيرة من التاريخ، وحدات الزمان والمكان والحدث ليس لتفتيت الأحداث التاريخية، بل لاجل تسليط الضوء على المكونات الصغيرة والتعمق في دراسة مكونات الحدث التاريخي، وهنا يلتقي الفولكلور مع التاريخ في الكثير من العناصر المشتركة الخاضعة للدراسة، ومما سيفضي إلى فهم أفضل للأحداث التاريخية الأكبر، وربما فهم افضل لديناميات الفعل التاريخي.

والالتقاء لا يكون من خلال تصغير الظاهرات أو وحدات الدراسة في الفولكلور، لكنه قد يتم في نفس الظاهرة أو الواقعة، ولكن الفولكلور لا بد أن يهتم بجانب آخر لم يهتم به التاريخ أو لم يوليه الأهتمام الكافي، فالتاريخ يقوم بدراسة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والمظاهر الفكرية والمؤسسات والقيادات السياسية وغيرها مما يتمثل في الحضارة، وعلم الفولكلور يدرس انعكاس هذه العلاقات المتشابكة في الفولكلور بعامة والأدب الشعبي بخاصة، وهذا يؤكد الحاجة للتعاون بينهما. (٣٥)

غير أن الموقف من التاريخ سيختلف حسب المدارس النظرية، فالمدرسة البنائية لا تقيم أي اعتبار للتاريخ، لأن المهم – عندها – هو دراسة البناء الاجتماعي بما هو عليه، في حين أن المدرسة اللغوية – التاريخية تجعل من التاريخ بعدا أساسيا لفهم الظاهرة وتفسيرها.

شكل رقم (١) خارطة:



المنهج التاريخي يتطلب معرفة جيدة بالواقع السياسي والجغرافي للمجتمعات القديمة

شكل (ا) الفولكلور والتاريخ

لكن التيارات المعاصرة في البحث الاجتماعي تحاول إعادة الاعتبار للتاريخ، فهي تشدد على ضرورة المقاربة الشاملة (للمجتمع الشامل)، فالبنية – في نظرهم – عرضية ووقتية، نظرا لأن الواقع الاجتماعي لا ينفك عن التجدد عبر تلك اللعبة الدائمة التي تقوم على التركيب، والتفكيك، وإعادة التركيب، وهذه التغيرات التي لا تنقطع تظل محكومة بواقع الحياة المجتمعية نفسه، واقعها القائم على التوترات، والخلافات والتنازعات ..(٣٦)

وهكذا يبدو التداخل في التاريخ والفولكلور على محاور رئيسية: الموضوعات مدار الاهتمام، والأساليب والتقنيات البحثية.

ثالثا – الفولكلور وعلم الاجتماع :

يهتم علم الاجتماع بدراسة البناء الاجتماعي للمجتمع وتطوره وحركة تغيره وما يحكمها من قوانين، وعلوم الاجتماع الفرعية يدرس كل منها نسقا فرعيا أو مجالا محددا من مجالات البناء الاجتماعي في علاقته بغيره من أنساق المجتمع، مع التركيز على النسق الفرعي موضوع الاهتمام.

وثمة حقيقة هامة مؤداها أنه من الصعب بل من الخطأ الفصل بين العلوم التي تدرس الإنسان ومجتمعه، لأن الواقع يوضح الترابطات بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والأنسانية، ومحاولات التمييز بقصد تعميق معرفتنا بالمجتمع والإنسان، وحياتهما، وما تحويه من تفصيلات (٣٧).

وبما أن الفولكلور يدرس بعض تلك الأنساق الفرعية كنسق الآداب الشفوية أو المعتقدات والقيم .. إلخ، فإن اللقاء حتمي وعميق بين علم الاجتماع والفولكلور، والحقيقة أن الفولكلور يضع نفسه في مكان وسط تلتقي فيه الكثير من العلوم الاجتماعية وخصوصا الأنثروبولوجي – مثلما أشرنا – وعلم الاجتماع أيضا.

بل إن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تدرس أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، فتتتبع نموها وتطورها، وتدرس بناء الثقافات البشرية وأداءها وظائفها في كل مكان وزمان، فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتها،

سواء كانت ثقافة اسلافنا أبناء العصر الحجري، أو ثقافة أبناء المجتمعات الحضرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا (٣٨).

يظل الفولكلور في لقاء دائم مع علم الاجتماع، إن كان من ناحية القضايا والمواضيع التي يهتم بها علم الاجتماع، أو إن كان في المناهج والأساليب والمدارس النظرية أيضا التي تتعاطى مع تلك القضايا، فالانسان هو محور البحث والاهتمام لكلا الحقلين، والأنسان الفرد ليس هو محور ذلك الأهتمام، بل الإنسان في الجماعة، أما القضايا فهي أيضا ليست سوى قضايا (الضمير الجمعي) التي يهتم بها كلا الحقلين.

ونقاط الاختلاف أيضا كثيرة وأساسية بين اهتمامات كلا الحقلين، فبينما يهتم علم الاجتماع بالظاهرات في الماضي والحاضر بصرف النظر عن تكراراها أو مدى انتشارها، فإن الفولكلور لا يهتم – على الأغلب – إلا بتلك التي اكتسبت صفة التقادم والتكرار والأنتشار، فهي بدون ذلك لن تكون في نطاق التراث بينما قد تكون في نطاق الظاهرات الاجتماعية التي يهتم بها علم الاجتماع أو غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، ولنضرب مثلا على ذلك في عادات الأعراس: فإن عالم الاجتماع قد يثير إنتباهه التغير الذي يحدث هذه الأيام في طقوس ومراسم الزواج وتغير شروطه، فيخضع ذلك للدراسة بالأساليب الممكنة، لكن مثل هذا التغير لن يكون مثار إهتمام الفولكلوري من الزاوية نفسها، الذي لا يهمه شئ أكثر من فحص تلك العادات بمدى إرتباطها بالتراث، والتغير بالنسبة للفولكلوري هو الأبتعاد عن التراث التقليدي، فيما هو بالنسبة لعالم الاجتماع ظاهرة طبيعية في القوانين الاجتماعية وبالامكان دراستها وفهم ما سبقها وما سيلحقها من تداعيات كظاهرة إجتماعية لها أسبابها أو عواملها السابقة..

وصار من المتفق عليه، أن العلوم في علاقة متبادلة من التعاون والتساند بحيث لا يمكن لها الأستغناء عن بعضها بعضا.

رابعا – الفولكلور والأدب :

كان لبعض الأدباء، وبعض المختصين في الأدب، دور ريادي في خدمة الأبحاث الفولكلورية الرائدة وخصوصا في العالم العربي الذي تخلف فيه الفولكلور عن الغرب، وإذا كان الفولكلور في الغرب قد نشأ وترعرع في أحضان الأنثروبولوجيا

بنواياها الاستعمارية أو الاستشراقية، فإن الفولكلور في العالم العربي نشـــأ وترعرع في أحضان علوم الادب العربي، سواء في جذوره البعيدة (مروج الذهب للمسعودي أو الأغاني للأصفهاني أو المواعظ والاعتبار للمقريزي والبخلاء للجاحظ وأعمال أخرى كابن عبدربه وابن عربي والأبشيهي والزمخشري ... إلخ). فدور الأدباء المعاصرين أيضا كان بارزا في نشأة وتطور الدراسات الفولكلورية، ومن الممكن الإشارة إلى عدد كبير منهم: ففي مصر أحمد تيمور وأحمد أمين ثم د. عبد الحميد يونس وأحمد رشدي صالح، وفي فلسطين التي كانت محطة ثانية بارزة أيضا بعد مصر كان الدور الريادي للطبيب توفيق كنعان في بداية القرن العشرين، ثم اسطفان اسطفان ونمر سرحان من المثقفين، إلا أن المرحلة الثانية التي انتقل فيها الفولكلور إلى مرحلة أكثر جدية كان للأدباء فيها دور مهم نذكر منهم د. عبد اللطيف البرغوثي الذي أبدع في المنهج الأدبي، ثم تبعه أو واكبه عدد آخر من الأدباء أمثال الشاعرين توفيق زياد وعلى الخليلي والباحث الأدبي رشدي الأشهب ..إلخ.

وفي الأردن، أشرنا غير مرة في هذا الكتاب إلى الأعمال الموسوعية الرائدة في التراث للأديب العلامة روكس بن زائد العزيزي وللأدباء عمر الساريسي وعلي الغول وحسني فريز ... إلخ.

وإذا كان الكثير من الرواد العرب في التراث لم يعترفوا بغير الآداب الشعبية (خصوصا في مصر) موضوعا للفولكلور، بحيث أطلقوا عليه اسم (الآداب الشعبية)، فإن هذا الموقف تآكل منذ مدة بعيدة في ضوء الدراسات والابحاث والمواقف التي دللت على دور العلوم الأخرى ومناهجها في دراسة القضايا الفولكلورية، وخصوصا ما كان بأثر من التاريخ والأنثروبولوجي وعلم الاجتماع، حتى الأدب الرسمي نفسه، كانت المدارس النقدية والأدبية قد تطورت فيه تطورا سمح لها بالإفادة الكبيرة من رؤى هذه العلوم ومناهجها، وصار لزاما على هذه المدارس الأدبية تناول النصوص الأدبية ليس بمعزل عن محيطها الاجتماعي أو أبعادها التاريخية أو النفسية .. إلخ.

وهكذا يعاود الفولكلور التموضع بين شبكة العلوم الأخرى ليبني شخصيته المستقلة بينها مستفيدا من كل إنجازاتها الموضوعية والمنهجية.

كانت فائدة الفولكلور في الأدب جلية في تناوله لاشكال التعبير الأدبي التي يحفل بها الأدب حتى تكاد تطغى على غيرها من الموضوعات الفولكلورية، وقد استخدم الباحثون الكثير من المناهج والنظريات الأدبية في التعاطي مع تلك المواد وعلى رأسها المنهج الشكلي الذي يهتم اكثر ما يهتم بالشكل والصياغة والقواعد النحوية والبلاغية في النص، ثم ما لبث الاتجاه الثاني في الدراسات الأدبية الفولكلورية أن تنامى وراح ينافس الاتجاه الشكلي، ونقصد به الاتجاه الاجتماعي أو إتجاه تحليل المضمون، هذا الأتجاه الذي بدأ يتجاوز النص اللغوي لما بين سطوره من عناصر اجتماعية وقيمية وتاريخية. وقد ساهمت الدراسات الأدبية في إمداد غيرها من الحقول البحثية بعناصر جديدة كانت خفية على غير الدارسين الأدبيين.

خامسا – الفولكلور وعلم الاثار Archaeology :

يقدم علم الاثار للعلوم الأخرى الكثير من الفضائل لمساعدتها على بناء مقولاتها كما يحدث في التاريخ والسياسة خصوصا، وعلم الاثار هو في الحقيقة " فرع من الانثروبولوجيا يهم بدراسة الخصائص الفيزيقية والتشريحية، والثقافية للشعوب القديمة، وشعوب ما قبل التاريخ، خاصة وأن هذا العلم يحاول إستكمال المعرفة الواردة في السجلات المكتوبة، ويقوم علماء الاثار بدراسة المخلفات الثقافية كالمباني، والادوات، والاواني الفخارية، والاشياء الفنية، وعظام الحيوانات، ومعنى ذلك أن علم الاثار يقوم بدراسة الرواسب الثقافية المادية(٣٩).

إذا فإن علم الاثار من الممكن أن يغذي الفولكلور بالكثير من المنافع ما دام يأخذنا إلى الجذور البعيدة من خلال الحفائر واللقى التي يقوم بترجمتها إلى معاني ودلالات ثقافية وسلوكية، ولا بد للفولكلور من البحث في الاعماق بالقدر المكن ليتسنى له فهم أفضل للمعطيات الفولكلورية التي بين يديه، وبغير الغوص والتعمق تحت سطح المادة الفولكلورية (الثقافية) فإنه يصعب الحصول على معطيات متكاملة في المادة الثقافية، مادية أو غير مادية.

وعلى سبيل المثال، فقد وفرت لنا اللقى الاثرية في بلاد الكنعانيين صورا واضحة عن اللباس الكنعاني في ذلك الوقت، مما يصح معه القول أن اللباس الشعبي

المعروف حاليا في فلسطين ما هو إلا إمتدادا لذلك النمط من اللباس منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة خلت.

ووفرت لنا اللقى الأثرية في البتراء تصورات كافية للنظام الديني – الاعتقادي لدى الأنباط، وكذلك الحال لدى الفراعنة والأشوريين..إلخ.

سادساً – الفولكلور والعلوم الأخرى:

قد يكون من باب الإسهاب استعراض نقاط اللقاء والتساند بين الفولكلور وكافة العلوم الاجتماعية الأخرى، فقد أشرنا أكثر من مرة إلى الحقيقة العلمية في تشارك كافة العلوم وتساندها في الكشف عن الحقائق والبحث عن المبادىء والقوانين، وتبرز هذه الحقيقة أكثر ما تبرز في العلوم الاجتماعية والإنسانية نظرا لتشارك الظواهر الاجتماعية وتداخلها بحيث يصعب الفصل بينها، وما الفصل القائم في الدراسات سوى اسلوب لتسهيل دراستها وتحديدها تقتضيه الضرورات المنهجية في أغلب الأحيان .

فالجغرافيا (الأيكولوجي) لها أثرها المباشر وغير المباشر في الظاهرات الاجتماعية، وكان إبن بطوطة الرحالة الجغرافي الشهير قد أشار إلى ذلك، وجاء إبن خلدون ليأكد هذه الحقيقة وهو العالم الميداني المحقق الذي تجول في الكثير من أصقاع العالم من قرطبة في أوروبا إلى أقصى المغرب إلى مصر فالمشرق العربي. وعلم النفس بفروعه المختلفة له دور مهم في فهم هذه الظاهرات باعتبارها نتاجا إنسانيا فاعلا، أي بما يمثله من مدخلات ومخرجات ثقافية ونفسية .. إلخ. حتى بعض العلوم الطبيعية، لا يمكن تجاهلها أثناء دراسة بعض المواد التراثية، ومن ذلك مثلا علم الفلك في مقاربة معارف المجتمع في هذا الحقل، أما الهندسة، فإن دراسة (الانماط العمرانية) القديمة لا بد له من إفادة من الهندسة المعمارية والمدنية. وكذا علوم الطب حيث يهتم الفولكلور بالطبابة الشعبية ويحاول معرفة ما نشأ منها بأثر الأساطير والمعتقدات وتلك الناتجة من الخبرة والتجربة والدراسة ...

أما الدين والأديان، فإن دراسات الأديان تصبح ضرورية وأساسية عند دراسة المعتقدات والقيم والطقوس .. إلخ، فإن بعض المجتمعات تجعل من بعض معتقداتها جزءا لا يتجزأ من الدين، أو أنها تنزلها بمنزلة الدين، وقد لا يكون لمثل تلك المعتقدات

أي أصول في ذلك الدين، ولذى انعام النظر في بعض اقوالنا وأفعالنا وممارساتنا في حياتنا اليومية نجد انها يمكن أن تنقسم إلى ثلاث فئات: منها ما يمكن إرجاعه إلى أصول واضحة في الدين الاسلامي، ومنها ما يمكن تفسيره بانه بقايا الديانات القديمة التي كان يعتقد بها البدائيون، ومنها ما لا يعتمد على ديانة وإن ظن الناس انها كذلك.[٤٠]

مفاهيم ومصطلحات رئيسية في الفولكلور:

أما أهم المحاور والمفاهيم والإصطلاحات التي ينبغي على الدارس المبتدىء الإحاطة بها فنتناولها فيما يلي تحت العناوين الفرعية التالية:

مجتمع البحث، الشعب، الجامع، الإخباري، الراوي، المؤدي، المستجيب، المبحوث، الملاحظ، مساعد الباحث، الآداب الشعبية الخاصة.

مجتمع البحث الفولكلوري – الشعب:

مجتمع البحث في الدراسات الاجتماعية يشير إلى المجموعة من الناس الذين تربطهم روابط معينة بحيث يشكلون وحدة واحدة مميزة، سواء كان هذا المجتمع صغيرا (ثلاثة فما فوق كالأسره) أو كبيرا (كمجتمع القبيلة والقرية والدوله).

وفي الفولكلور يشير مجتمع البحث إلى القطاع أو الفئة أو الجماعة التي هي محط اهتمام البحث الفولكلوري، وقد يكون هذا المجتمع جميع الأفراد المشتركين في عرس أو في زيارة قبور الأولياء أو أولئك الذين يحفظون الأمثال الشعبية أو الحكايات .. إلخ. بمعنى آخر، إن الإقليم الجغرافي ليس هو المقياس الوحيد فى اعتبار مجتمع البحث وإن كان هذا الاعتبار أساسيا ومهما، بل إن الروابط الثقافية أيضا اساسية، وهي كافية – إذا ما وجدت – لاعتبار مجموعة من الأفراد مجتمع بحث مميز وقائم بذاته، ومن ذلك مثلا بعض الجماعات الأثنية (كالأرمن والتركمان والأكراد) أو المذهبية (كالبهائيين واليهود والدروز وأصحاب الطرق الصوفية) أو الوطنية (كالفلسطينيين في الشتات، والتبتيون في دول آسيا، والأرمن في المجتمع العربي) المنتشرة في العالم ولكنها تحافظ على روابط ثقافية متماثلة إلى حد كبير ويتبدى ذلك في القيم والعادات والتقاليد والملابس والطموحات .. إلخ.

ومن الباحثين من ربط هذا المفهوم بالجماعات الأمية الريفية او البدوية التي تعتمد على التراث الشفاهي، غير أن الاتجاه العام للعلم صار لاينكر ما في مجتمع المدينة من تراث متنوع وغزير جنبا الى جنب مع التراث الرسمي المتحضر. وصار من المعروف للعامة ما يقال عن اعتقاد بعض الخاصة بالكثير من المعتقدات السلفية والغيبية كإيمان بعض الأطباء بالسحر او إيمان بعض الزعماء بالتنجيم واعتمادهم عليه، او ادعاء بعض شيوخ الدين الاتصال بالجان وتحضير الارواح ...الخ، هذا علاوة على ما يزخر به مجتمع المدينة من تراث فني في الغناء والرقص وعادات وتقاليد الزواج والختان وتقاليد النساء في الالتقاء في الحمامات العامة أو في البيوت وغير ذلك الكثير من أوجه الحياة المختلفة.

الجامع (جامع التراث):

آثرنا إستخدام هذا الاصطلاح جامع التراث لأن بعض المتعلمين أو المثقفين او الهواة يبادرون إلى الجمع من أجل الجمع في كثير من الأحيان، فمنهم من استهوته الأغاني الشعبية أو الحكايات أو القوانين العشائرية أو فنون التطبيب الشعبي . وبعض الباحثين يعتمد على مثل هؤلاء بدون تنسيق مسبق، وبعضهم يتفق مع بعض الجامعين لجمع عناصر معينة في التراث بهدف القيام ببحوث محددة، وكثيرا من أساتذة الجامعات يطلبون من طلبتهم القيام بدور الجامع.

فالجامع يختلف عن الملاحظ أو الأخباري، فأولئك يعملون بتوجيه وتنسيق من قبل باحثين يحددون أهدافهم، بينما غالبا ما يعمل الجامع بتوجيه من هوايته أو دوافعه الوطنية . فالجامع له دور مهم في جمع المادة، وهو في غالب الأحيان لم يتلقَ تدريبا أو تعليما كافيا لهذا الغرض، وليس لديه المعرفة بكيفية التصرف بهذه المواد التي جمعها، ويمكن ان يكون ذا فائدة أكبر مع بعض التدريب والتوجيه، ومثل هذا الكتاب، مفيد لهؤلاء.

الإخباري – Informer :

هو الشخص الذي يعتمد عليه الباحث في الإخبار عن بعض البيانات والمعطيات الفولكلورية التي يهتم بها الباحث في مجتمع الإخباري. فهذا الإخباري هو

عضو في مجتمع البحث، وتم اختياره بناء على عدة اعتبارات منها إقامته الدائمة في مجتمع البحث، رغبته وتفهمه لأغراض البحث، وعيه وقدرته على النقل الأمين، قدرته على التفاهم مع مجتمع البحث من جهة ومع الباحث من جهة اخرى. وعادة ما يكون الإخباري على علاقة بأحد الباحثين يوجهه ويكلفه بالمهمات المحددة.

الراوي – المؤدي: الراوي مصطلح غالبا ما يستخدم لوصف الشخص الذي يكون مصدرا للمعلومات كأن يروي الحكايات أو الأخبار أو يشرح بعض المفاهيم أو العادات ... إلخ الخاصة بمجتمعه. أما المؤدي فهو التعبير المستخدم غالبا في وصف أولئك الذين يقومون بأدوار تهم الباحث او الملاحظ، كأن يكون الراقص أو الموسيقي أو المغني أو الذي يروي الحكايات او القصائد ... إلخ .

المستجيب: إصطلاح تستخدمه العلوم الاجتماعية لأولئك الناس الذين يقع عليهم فعل الملاحظة أو المقابلة أو الاستبيان أو الاستقصاء، فهو مستجيب لأنه يستجيب لرغبة الباحث في القيام بالدور الذي طلب منه كأن يروي بعض الحكايات أو يجيب على الأسئلة في المقابلة أو الاستبيان أو يمثل دورا معينا (كاللعب)، وإصطلاح المستجيب قد يكون أكثر الأصطلاحات شمولا لمفردات مجتمعات البحث لأنه يشمل المؤدين والرواة وعامة الناس الذين يقومون بالسلوك أو الفعل أو القول ولكنهم محط إهتمام الباحث أو الملاحظ .

المبحوث: يستخدم هذا الأصطلاح كثيرا في العلوم الاجتماعية وعلم النفس، وبعضهم يستخدم هذا الأصطلاح للدلالة على المعنى نفسه (للمستجيب)، غير أن استخدام هذا الاصطلاح كثيرا ما يأتي في غير موقعه، وخصوصا في العلوم الاجتماعية، فالمبحوث لغة هو ذلك الشخص الذي يخضع للبحث أو يدور البحث حوله. بينما قد يكون هذا الشخص في الواقع ليس موضوعا للبحث، بل إن ما يدلي به من مادة أو نصوص هي موضوع البحث. والأفضل اقتصار هذا الاصطلاح للأستخدام في العلوم النفسية، بأعتبارها علوم تدرس الفرد كوحدة أساسية، في حين أن العلوم الأجتماعية تدرس الجماعة وليس الفرد – وتدرس النتاجات والبناءات ولا تدرس النفس.

الملاحظ - Observer

وهو الشخص الذي يقوم بملاحظة سلوك أو أقوال وافعال مجتمع أو جماعة البحث، فهو شخص مدرب ومؤهل تأهيلا علميا Profesional للقيام بهذه المهمة، وقد يكون الملاحظ هو الباحث نفسه مثلما فعل العديد من كبار الباحثين، وقد يقتصر دور الملاحظ على القيام بالملاحظة وتسجيلها وتصنيفها، وغالبا ما يكون الباحث هو الملاحظ نظرا لما في ذلك من فائدة كبيرة للباحث.

مساعد الباحث :

وهو شخص لديه قدر واف من التعليم النظري والتدريب العملي بحيث يتسنى للباحث الاعتماد عليه في القيام بمهمات محددة من الملاحظة إلى مختلف أشكال الجمع، لكن مساعد الباحث غالبا ما يقوم بمهمات أخرى بطلب من الباحث كأن يقوم بجمع بيانات من المكتبات أو كأن يقوم بالإشراف على بعض الجامعين أو الإخباريين وغير ذلك من المهمات البحثية والأدارية.

الآداب الشعبية الخاصة: وهي الأبداعات الفردية التي تصاغ بالأساليب الشعبية التراثية الشائعة، والفارق الأساسي بينها وبين الآداب الفولكلورية أن الخاصة كانت إبداعا لفرد أو حتى مجموعة أفراد دون أن تصل إلى حد أن تتبناها الجماعة لتصبح تراثا لها، فيما أن الآداب الفولكلورية آدابا لا يعرف مبدعها الأول، حتى وإن استطاع باحث ما معرفته، فإن ذلك لن يغير من السمة الأساسية لهذا الأدب في كونه تراثا تبنته الجماعه.

ومن أمثلة الآداب الخاصة قصائد الشعراء التي تسمى الشعر النبطي، وقد تقال مع عزف الربابة او بدونها، وصارت تنشر في الصحف والمطبوعات تحت أسماء عديدة، وقد اختص بعضه بهذا النوع من الشعر واصدر منه دواوين، ومن ذلك أيضا قصائد السامر والمواويل التي تغنى في الأفراح وتقال في المناسبات ..والآداب الخاصة قد تكون مفيدة في الدراسات الفولكلورية وخصوصا في الدراسات الأدبية والاجتماعية، لكنها تبقى منفصلة عن الدراسات الفولكلورية ولا تدخل في نطاقها.

هوامش الفصل الأول

١- احمد مرسي، مقدمة في الفولكلور، ط١ (القاهرة – دار الثقافة، ١٩٨١) ص ٢١ .

٢- احمد مرسي، نفس المصدر، ص ٢١- ٢٥ .

٣- عبد الحميد يونس، دفاعا عن الفولكلور، ص ١٤ .

٤ – وليم تومز، الفولكلور، ترجمة وتعليق : كاظم سعد الدين، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والعلام (جمهورية العراق، عدد أول – السنة الثامنة والعشرون – ١٩٩٧). ص ٢٦ .

+ كذلك : فوزي العنتيلي، الفولكلور ما هو ؟، دار المسيرة، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٧ ص ١٥ .

٥ – د.خليل حسونة، الفولكلور الفلسطيني – دلالات وملامح، المؤسسة الفلسطينية للأرشاد القومي، ٢٠٠٣، ص ١١ .

٦ – احمد مرسي، مقدمة في الفولكلور، ص ٤٠- ٤٥ .

٧ – نبيل علقم، مدخل لدراسة الفولكلور، لا ط، (فلسطين – البيرة – جمعية أنعاش الأسرة) ١٩٧٦ . ص ٢٨ – ٢٩ .

٨- المشرق هو الغربي الذي يدرس تراث الشرق مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق، ويعتبر المفكر إدوارد سعيد أن المســتشرق هو وسيط امبريالي.

المصدر د. منعم حداد، الاسشراق والصهيونية والتراث الشعبي الفلسطيني، عن التراث الفلسطيني: جذور وتحديات ، عبد العزيز أبو هدبا ن ص ٨٦ .

٩ – نبيل علقم، مدخل لدراسة الفولكلور، لا ط، (فلسطين – البيرة – جمعية انعاش الأسرة) ١٩٧٦.

١٠ – فوزي العنتيلي، الفولكلور والثقافة الشعبية، ص٨١.

١١ – د. منعم حداد، الاستشراق والصهيونية ....، المصدر السابق، ص ٩٦ .

١٢ – عمر الساريسي، حكايات شعبية من فلسطين والأردن، الجزء الثالث، ص ١٣ .

١٣ – د. منعم حداد، المصدر السابق، ٩٩ .

١٤ – أنطون جوسان، العادات والتقاليد في بلاد مؤاب، ١٩٠٨ ترجمة: د. سامي النحاس، ١٩٩٧ . ص ٧ مقدمة المترجم .

١٥ – نمر سرحان، الأعمال الفولكلورية الفلسطينية للدكتور توفيق كنعان .

١٦ – هاني العمد، الأدب الشعبي في الأردن، ط ١ (عمان – لجنة تاريخ الأردن – المجمع الملكي لبحوث الحضارة) ١٩٩٦ . ص ٨- ٩ .

١٧ – الفولكلور الفلسطيني: دلالات وملامح، ط ١ (المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣، ص ١١.

١٨ - نبيل علقم، المصدر السابق، ص ٥.
١٩ - عبدالحميد يونس، المصدر السابق ص ٤٠ -٤١ .
٢٠ - أحمد مرسي، المصدر السابق، ص ٧١)
٢١- فوزي العنتيل، الفولكلور والثقافة الشعبية، ص ٣٦- ٤٤.
٢٢ - أحمد مرسي، المصدر السابق، ص ٧٨.
٢٣ - سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع، ص ١٩.
٢٤ - بيرسي كوهين، النظرية الاجتماعية الحديثة، ترجمة د.عادل مختار الهواري، من مقدمة المترجم، ص ٦.
٢٥ - بيرسي كوهين، المصدر السابق، من مقدمة المترجم، ص ٥.
٢٦ - فيليب فرانك، فلسفة العلم، ص ٤٢٨.
٢٧- عبد الحميد يونس، دفاعا عن الفولكلور، ص ١٤.
٢٨ - د. عبدالحميد يونس، المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤١.
٢٩ - فيليب فرانك، المصدر السابق ، ص ٣١.
٣٠ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة ثائر أيوب (دمشق - دار الحوار) ٢٠٠ . ص ٨٠
٣١ - نبيل علقم، المصدر السابق، ص ١١٩.
٣٢ - جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ص ١٢.
٣٣ - شريف كناعنة، من نسي قديمه .. تاه، دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية، (عكا - مؤسسة الأسوار) ٢٠٠٠ . ص ١٧٥ - ١٧٦.
٣٤ - الكساندر كراب، علم الفولكلور، ترجمة احمد رشدي صالح ص ١٧.
٣٥ - نبيل علقم، المصدر السابق، ص ١٢٢.
٣٦ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ص ٣١٤.
٣٧ - غريب محمد سيد احمد، عبد الباسط عبد المعطي، علم الاجتماع، لآ.ط (الأسكندرية - دار المعرفة الجامعية) ١٩٨٥ . ص ٨٧.
٣٨ - محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا (أسس وتطبيقات عملية) ط ١ ن (القاهرة - جامعة القاهرة)، ١٩٨٠ . ص ٣٣.
٣٩- نخبة من أساذة علم الاجتماع، لا.ط (جامعةالاسكندرية)، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، (الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية) بدون تاريخ. ص ٢٧
٤٠ - عمر الساريسي، كلمات في المأثورات الشعبية، ص ٨٥ .

الفصل الثاني

موضوعات التراث الشعبي وميادينه

تمهيد:

اهتم الفولكلور بالكثير من الموضوعات الاجتماعية والثقافية في المجتمع، وإن استعراض الموضوعات التي يهتم بها الفولكلور من شأنه تحديد حدود هذه العلم وتحديد قضاياه الرئيسة التي تميزه عن غيره من العلوم الاجتماعية.

واهتم معظم علماء الفولكلور بالمعتقدات الشعبية، والحكايات الشعبية والملاحم، والنوادر والنكات، والأغاني الشعبية، والمواويل بأنواعها المختلفة، والفنون التشكيلية الشعبية، "والموتيفات" الأسطورية، والاحتفالات الشعبية والطقوس، والرقص الشعبي، والموسيقى الشعبية، سواء كانت آلية أو لا تعتمد على آلات موسيقية، والألعاب الشعبية، والرقى والتعاويذ، والألغاز، والأمثال، والممارسات الشعبية ذات الصلة بالمعتقدات الدينية، وكثير من مظاهر الحياة الشعبية المتنوعة، وهي كلها تشترك في مجموعة من السمات الأساسية، من قبيل أنها مأثورة، وغير معروفة الأصل تماما، كما أنها قاسم مشترك بين أفراد الجماعة الشعبية[1].

وبالطبع، فإنه من الصعب على الفولكلوري أن يتخصص بكل هذه الموضوعات في الوقت نفسه، إذ أن مثل هذا التخصص لا بد أن يأخذ منه السنوات الطويلة، وقد لا يتمكن من الإيفاء بالغرض، لذلك، فإن الفولكلوريين – عادة – ما يتخصصون في جانب أو أكثر من هذه الموضوعات، دون أن يتنكروا للموضوعات الأخرى، بحيث يبقى الفولكلوري ملما بالمعارف والمهارات الأساسية التي تمكنه من فهم العلاقات بين العناصر الفولكلورية المختلفة على الأقل، إلى جانب التعمق في موضوع تخصصه ليكون حجة فيه. وهذا الأمر أصبح شائعا في مختلف فروع العلوم الطبيعية منها والإنسانية والاجتماعية، تماما مثلما يحدث في الطب مثلا، فالطبيب قبل

تخصصه يسمى طبيبا عاما، وإذا ما رغب بالتعمق أكثر، اختار موضوعا أو أكثر للتخصص فيه كأن يتخصص في أمراض القلب، أو أمراض الصدر والباطنية معا... إلخ من هذه التخصصات، التي بدورها تتكاثر وتتفرع يوما بعد يوم في مختلف العلوم ومنها العلوم الاجتماعية أيضا التي ينتمي لها علم الفولكلور. ومن هنا نشأ في الفولكلور حقول تخصصية كالتأريخ الشعبي، و(الميتودولوجيا) علم الأساطير، وعلوم اللهجات، والأدب الشعبي وغيرها من الفروع الرئيسية.

على أن تقسيم موضوعات التراث الشعبي الأكثر تقليدية وثباتا هو ما تعلق منها بتقسيم التراث نفسه حسب انماطه واشكاله وموضوعاته فالتقسيم يبدأ من الجانب الشفاهي (اللامادي) والجانب المادي، والجانب المادي يشتمل كل الوسائل المادية المحسوسة او المنظورة التي يستخدمها المجتمع فردا أو جماعة في سياق حياته، فهي تشمل أدوات الزينة البسيطة كالمكحلة والمشط والأدوات الموسيقية، مرورا بأدوات الطبخ وأدوات الحياكة والغزل والأدوات الزراعية والملابس وغيرها وانتهاء بنمط بناء البيوت والمساجد والكنائس والمعابد عموما، على أن بعضهم لا يعترف بالعناصر المادية كمكونات ثقافية، فقد عرف تايلور الثقافة بأنها (ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من المقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع)[٢] في حين أن الكثير من تعريفات الثقافة اشتملت على الجانب المادي، فالقاموس الفلسفي السوفييتي الذي أعده روزنتال و (وادين) يعرف الثقافة بإشارته إلى أنها عبارة عن كل القيم المادية والروحية، ووسائل خلقها واستغلالها، وإقرارها، التي يخلقها المجتمع في مسار التاريخ وهذا بخلاف النظريات المثالية التي تنكر الأساس المادي للثقافة، حيث ترى المادية التاريخية أن إنتاج السلع والقيم المادية، أساس ومصدر للثقافة الروحية، وبذلك فهي نتاج نشاط الجماهير[٣].

وعموما فثمة ميل عام نحو ترك دراسة الثقافة المادية في المجتمعات البدائية للأنثروبولوجيين، في حين يكون بحث هذه الموضوعات بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ضمن اختصاص الفولكلوريين[٤].

على أن المواد او النتاجات المادية للتراث، في المجتمعات العربية خصوصا، باتت تتصدر الاهتمام أكثر من الجوانب اللامادية في كثير من الأحيان، فتقام لها المتاحف والمعارض، وتستخدم كديكورات فنية في المطاعم والفنادق الفاخرة، بل وفي كثير من المنازل. فهي بهذا تعامل معاملة (الآثار) التي ترمز إلى الحضارات أو إلى الحقب الزمنية السالفة، ومن هنا فإنه قد يكون من المناسب معاملتها (كآثار فولكلورية)، وتعامل على هذا الأساس، ويمكن بناء على ذلك دراستها مثلما يقوم العالم الأثري بدراسة الأبنية الدارسة أو العملات المعدنية المندرسة. فتكون في نطاق هذه الرؤية. وقد نضطر ذات يوم قريب إلى المطالبة بتشريع قوانين خاصة لحماية هذه الآثار من الإنقراض والتسرب للخارج بدوافع تجارية، أو بدوافع سياسية، مثلما دأبت إسرائيل على مصادرة الكثير من الآثار الفلسطينية وسرقتها وشرائها بأي أسعار ممكنة، ومن ذلك أيضا تدمير المئات من القرى بما فيها من أبنية تراثية من مساجد وكنائس، أو سعيها الدائم لتغيير الطابع العربي الإسلامي للكثير من الأبنية والمنشآت التي صادرتها كسور القدس العربية والحرم الإبراهيمي في الخليل والكثير من المنازل الحجرية التي طرد أهلها منها في كافة الأراضي المحتلة(*).

وباعتقادي أن هذه المواد من آلات وأواني ومعلقات تكتسب أهميتها الحقيقية من المضامين التي تختفي خلفها أو في ثناياها وليس من ذاتها، وفي الإيحاءات الكثيرة فيها اجتماعيا وفنيا وتاريخيا وسياسيا.. إلخ وفي عبق الأصالة العابرة للعصور والأجيال مما يستشعره الناس فيها.

---

* - ومن ذلك العملات الفلسطينية القديمة التي صكتها حكومة الانتداب باسم حكومة عموم فلسطين منذ عام ١٩٢٧، بحيث بات العثور على قطعة نقدية فلسطينية أمرا نادرا، ولن يخفى الغرض من وراء مثل هذا " الأمتصاص " لآثار واقع سياسي لا يروق للسلطات المحتلة التي تحاول طمس معالم شعب آخر بأكملها، ومن ذلك أيضا المطرزات الفلسطينية، التي حاولت شركة الطيران الإسرائيلية " إلعال " انتحالها لمضيفاتها فقاوم ذلك عدد من الهيئات الفلسطينية الدبلوماسية والإعلامية وفضحت هذه المحاولة وأوقفتها، ولا تزال إسرائيل تســوق العديد من المنتوجات التراثية الفلسطينية والشرقية أيضا بإعتبارها تراثا يهوديا...

والباحث هنا سيعتمد المفهوم السابق شرحه للأدوات والبقايا الفولكلورية، أي باعتبارها حقلا خاصا أو موضوعا قائما بذاته هو موضوع الآثار الفولكلورية، باعتباره جانبا حيويا من جوانب الثقافة عموما.

موضوعات التراث الشعبي (الفولكلور):

اما الجانب اللامادي – الشفاهي فهو الأوسع ويتألف من المجالات والحقول التالية:

أولا – الآداب الشعبية:

وهو من أهم الموضوعات في دراسة الفولكلور إلى جانب الاتجاه الأنثروبولوجي الاجتماعي، ويركز هذا الاتجاه على دراسة التراث الشعبي باعتباره نتاجا أدبيا للمجتمعات البسيطة، وهو من خلال ذلك، يستخدم الكثير من المعايير والأسس التي يستخدمها الأدب الخاص ويحاول تطبيقها على هذه الآداب الشعبية، باحثا فيها عن مواطن البلاغة والجمال والتراكيب اللغوية والقيم والمعاني في البناء اللغوي ذاته دون أن يعطي أهمية موازية للسياق الثقافي العام لهذا النتاج الأدبي أو للبناء الاجتماعي – التاريخي له، وذلك بخلاف ما يركز عليه الاتجاه الانثروبولوجي الاجتماعي الذي يحاول تفسير عناصر التراث الشعبي كاملة ومجتمعة في سياقها الثقافي وفي سياق البناء الاجتماعي، متجاوزا ذلك إلى محاولة الخلوص إلى النظريات التي تفسر ديناميات هذه العناصر في نشوئها وفي وظائفها.. إلخ.

على أن الاتجاه الشكلي في الأدب، الذي حاول النسج على منوال الأدب الخاص لم يكن الاتجاه الوحيد، فقبله أو موازيا له وجد الاتجاه المنكر على اللهجات العامية خاصية الانتاج الأدبي، وحجته في ذلك يعبر عنها أحد أساتذة الأدب العربي في الجامعات المصرية في الخمسينيات من القرن العشرين، " إن ادب اللهجات المحكية لا يعد أدبا لسببين: أحدهما شيوع الخطأ اللفظي والخروج على قواعد النحو، وثانيهما ما غلب على معانيها من التفاهة والعرف، فأغلبها أوامر ونواه وأخبار عادية تتصل بالحياة الجارية وتتكرر كل يوم وكل وقت مما لا يستحق درسا أو تقييدا، والأدب يجب أن يجمع بين أمرين، صحة اللفظ وقيمة المعنى أو سموه حتى يستحق أن يسمع أو يقرأ في كتاب[٥].

غير أن هذا الاتجاه الشكلي المنكر لأدب العامة، بات يتراجع رويدا رويدا بفضل تزايد الدراسات الفولكلورية، وخصوصا من خلال المناهج الأدبية، التي استطاعت أن تبرز الكثير من مظاهر التأدب وبواطنه في التراث الشعبي في الشرق والغرب. وقد راح المؤمنون بالتراث الشعبي وآدابه يشقون طريقهم غير ملتفتين إلى الموقف الرسمي لأساتذه الأدب العربي في الجامعات وغيرها، بل إنهم استطاعوا أن يغزوا كليات الآداب ذاتها، فيصبح الأدب الشعبي موضوعا يدرس في بعض الجامعات وخصوصا الجامعات المصرية، واستحدثت المقاعد والتخصصات الفولكلورية في كليات الآداب وكليات العلوم الإنسانية لينتهي العصر الذي كانت فيه الدراسات الأدبية التراثية علما أو عملا منكرا.

مع ذلك، فقد بقي بعض الخلاف والتباين حول تعريف الآداب الشعبية، ويعود هذا الاختلاف لتباين المعايير التي يعرف الأدب طبقا لها، فالآداب الشعبية تتضمن الكثير من التداخل بين الأجناس والأشكال والصيغ الأدبية مما لا يخفى على دارس، والاختلاط هذا قد يطال النصوص السحرية، والتعاويذ والأقوال المأثورة وغيرها، وقد اعتمد البعض تعريفا للآداب الشعبية وفقا للمعايير المستخدمة في تعريف الأدب الفصيح، وذلك من حيث الشكل والبناء اللغوي والمضمون، لكن هذا لم يكن ليرضي دارسي الآداب الشعبية كلهم، فقدم بعضهم تعريفات أخرى من صميم الأدب الشعبي نفسه، ومن ذلك تعريف أحمد رشدي صالح الذي أشار بوجود سمات أربعة للآداب الشعبية مما يميزها عن الأدب الفصيح، وهي العراقة والواقعية والجماعية والتداخل.[٦]

والعراقة تشير إلى قدم الاداب الشعبية، فيما الواقعية تشير إلى كونها نتاج الحياة الاجتماعية منذ نشأتها، والجماعية من حيث أن الأدب الشعبي (يستوي أثرا فنيا بتوافق ذوق الجماعة وجريا على عرفهم من حيث موضوعه وشكله)، أما التداخل، فهو تداخل الأجناس والأشكال الأدبية مما لم تألفه الآداب الفصيحة.

والآداب الشعبية تشمل الشعر الغنائي والشعبي بألوانه العديدة، فمنه المربع والمثمن والمخمس والعتابا والميجانا ويا حلالي ويا مالي وظريف الطول والبكائيات والتهاليل والمواويل والزغاريد..إلخ، المعروفة في بلاد الشام عموما، والحكايات

الشعبية ومنها حكاية الواقع والخيال والحيوان والنوادر والطرائف وحكايات الجن.. إلخ. والأمثال الشعبية والمطارحات والفتاوى (فتاوى جمع فتوى) واعتبرت الأساطير من الأجناس الأدبية وكذلك الملحمة وغير ذلك مما قد يصنف باعتباره شكلا أدبيا. ومنها التي لا يعرف قائلها أو مؤلفها، وحتى تلك التي يبتدعها مؤلفون معروفون، لكنها تجد رواجا شعبيا، وتشمل الآداب كذلك بعض السير الشعبية كسيرة عنترة وتغريبة بني هلال والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وسيف بن ذي يزن في التراث العربي، وسيرة شفيقة ومتولي في التراث المصري، وسيرة نمر بن عدوان في التراث الاردني وسيرة ابن ملحم في التراث الفلسطيني(*)، والسيرة الشعبية عادة ما تعتمد على شخصيات حقيقية وربما تكون لأحداث حقيقية، لكنها تحمل من الخيال الكثير مما يتيح اعتبارها نوعا من أنواع الإبداع الأدبي لقائلها أو لقائليها.

ومن الباحثين من يعتبر المثل الشعبي جنسا أدبيا، ومنهم من يرفض ذلك، ومثل هذا يقال عن الفوازير والنكات والألغاز والحكم المأثورة.

ويميل الكثير من الدارسين لإدراج كلا من الاسطورة والملحمة إلى الأجناس الأدبية الشعبية، وخصوصا أن بعض الملاحم تصاغ بلغة شعرية رقيقة تؤهلها لتبوأ هذا الموقع.

ومن الملاحظ أن المعايير التي تستخدم في الحكم على المأثورات فيما إذا كانت من صنف الآداب أو غيرها هي معايير مستقاة من الآداب الرسمية أو الفصيحة، وأهم هذه المعايير، معيار اللغة المتقنة التي تنضوي على قدر مميز من الجمال أو البلاغة أكانت شعرا أم نثرا، ثم معيار البناء الداخلي. وقد ثبت بالفعل ومن خلال الأبحاث أن الشعر الشعبي مبني وفق بحور شعرية معروفة مشابهة لما هو معروف في الشعر العربي العمودي، وكذلك من الواضح أن للفنون النثرية أيضا قوانينها الخاصة التي تميزها عن غيرها من ألوان النثر.

---

* – سيرة ابن ملحم وسيرة ماريا وغيرها من السير كان يرويها عدد من الشعراء الشعبيين الغنائيين في السهرات، وهي ليست معروفة على نطاق شعبي واسع كالحكايات أو الأمثال.

إذا فإن العماد الأول للآداب هو اللغة، ولغة الأمة العربية، هي مجموع ما يصدر عن اللسان العربي على اختلاف اللهجات والبيئات، ومن هنا كان أدبنا المتوسل باللغة ليس الفصيح وحده، ولا المدون وحده، ولكنه الأدب الذي يتوسل بجميع اللهجات في جميع البيئات والأجيال. (٧)

ثانيا - الفنون الشعبية (الفنون الجميلة): وتتسع هذه الفنون لتشمل الأغاني والألحان الموسيقية وأشكال الدبكة والرقص، وبعض الفنون الاستعراضية مثل بعض المشاهد المسرحية التي كانت تمثل في الساحات العامة ولكنها صادفت من الانتشار والقبول ما يدرجها في باب الشعبية (كمسرحية الحلاق والزبون او القاضي أو القراقوز في تراث بلاد الشام)، وتشمل الفنون أيضا مجالات الفنون التشكيلية كالرسم بأنواعه كالرسم على الخشب أو الحجر أو المعادن أو الأقمشة أو غير ذلك من خامات البيئة، وتشمل هذه أيضا فنون النحت والتصميم من تصاميم خشبية ومعدنية وحجرية وجبسية وطينية (صلصالية) ورسوم جدارية بتقنيات متنوعة كالرسم بالالون الزيتية او اللوحات الفسيفسائية وغير ذلك من الفنون التشكيلية التي يصعب حصرها.

ويميل الكثير من المتخصصين إلى الفصل ما بين الفنون الشعبية القولية، التي تعتمد الكلمة المنطوقة وبين الفنون الأخرى التي تسمى بالفنون التشكيلية وتشمل النحت والرسم والتشكيل الفني المتنوع.

وثمة باب آخر يندرج أو يلتقي تحت باب الفنون أحيانا كثيرة، وخصوصا في مجال الفولكلور الذي نحن بصدده ألا وهو باب الحرف والمهن الشعبية، مثل صناعة الزجاج المعشق أو صناعات الفخار والأواني والزخارف الخشبية والمعدنية، ومن ذلك أيضا التطريز والحياكة والنسيج الذي يجمع ما بين الفن وما بين الحرفية، ويندرج تحت هذا الباب صناعات وحرف زراعية وصناعية وتقليدية مثل صناعة السيوف والخناجر والمحاريث الخشبية وأدوات تحضير القهوة والآلات الموسيقية والفسيفساء وغير ذلك الكثير مما يصعب حصره. وهذه المهن تعتمد أساسا على الصناعة اليدوية التي تتطلب الحذاقة والروح الفنية أكثر من اعتمادها على التعلم والمهنية الاعتيادية.

والقاعدة الأساسية في هذا المجال هو أن الفن هو ما نظر إليه المجتمع كفن سواء كان ذلك محكيا كالغناء أو استعراضيا كالدبكة والرقص أو مصنعا كالنحت والرسم والحياكة والمسكوكات والأشكال المعدنية والخشبية.

ثالثا- النتاج الفكري- الحكمي:

ثمة صياغات وأشكال أخرى من النتاج الشعبي التي يصعب تصنيفها تحت باب الآداب أو الفنون، ولكنها مع ذلك تصطبغ بصبغة التجربة الشعبية، تجربة الأجيال، والى الدرجة التي يعم استخدامها وانتشارها لتكون تراثا عاما من أملاك الشعب، ومثل ذلك يصدق على الأمثال الشعبية والألغاز والحكم والكنايات الرمزية.

والحكمة قد تأتي على شكل قول مأثور يشبه المثل أحيانا، وقد لا يضرب كما يضرب المثل، وإن شابهه في التركيب: كقولهم (رب أخ لك لم تلده أمك) أو كالقول الشعبي (الرجال مخابر، مش مناظر).. أو كقولهم (كبرها بتكبر وصغرها بتصغر) أو (الصبر مفتاح الفرج)، (هين قرشك ولا تهين نفسك)، أو (فلان شنده على بنده) ويقال لوصف مدى الحرية المفرطة وعدم التزام شخص ما بشيء محدد. فمثل هذه الأقوال هي أقرب منها للنصائح والعبر أو التوصيف بحيث تقال في أكثر من مناسبة لهذه الأغراض. ومن ذلك ما يكتبه بعض السائقين على مركباتهم (**).

ومن هذا الباب أيضا النوادر والنكات، ففي النوادر والطرائف الكثير من العبر، ومن ذلك مثلا نوادر أشعب وطرائف جحا، وفي النكات أيضا الإيحاءات والمغازي اللماعة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا.. إلخ.

**- مثل (الحسود لا يسود) أو (يا ناظرا لي نظرة حسد، أشكيك لواحد أحد)، ومن طرائف القول المأثور ما كتبه أحد الحرفيين في ورشته " عضة أسد، ولا نظرة حسد " ومن الأقوال الطريفة المأثورة، مما يكتب على المركبات في الأردن مثلا " يا ناس يا شر، كفاية قر " ومن الواضح أن لهجة هذا القول ذات لكنة مصرية، ومنها أيضا ما لم يكتسب صفة التراث، وإن كتب أو علق على الأماكن العامة أو المركبات كما كتب أحدهم على مركبته " بنزين بالتنك ولا مليون بالبنك "...الخ.

والعلامة الأردني (روكس بن زائد العزيزي) يجعل من (الأسمار) مجالا خاصا من مجالات التراث، ويرى أن (الأسمار) هي ما يتداوله الناس في سهراتهم أو مجالسهم في الأماسي لقضاء الوقت والتمتع بالقصص والحكايات والأقوال المأثورة، وهو ما يسمى أحيانا (الفتاوى)، حيث يبدأ المتكلم القول (أستفتيك بجماعة من العرب كانو كذا وكذا).. (٨)

ومثل هذه الطائفة من أنواع التراث تتضمن قدرا كبيرا من إعمال العقل والتجربة، ولكنها لا تنتج بصياغات أدبية مميزة في كل الأحوال، كقول المثل (ما يحرث الأرض إلا عجولها) (جارك القريب ولا اخوك البعيد)، وهذه الأقوال تتضمن حكمة أو (كناية) كما في القول (يرش على الموت سكر). ولكنها صيغت بصياغات بسيطة ومتواضعة في احيان كثيرة، مما سيحرمها من صفة الأدب، الذي يشترط فيه جودة البناء، وبلاغة اللغة.على أن بعضها أو كثير منها جاء في صيغ بيانية على قدر عال من الجمالية، ومن ذلك (قلبي على ولدي، وقلب ولدي ع الحجر)، (أجت الحزينة تفرح، ما لاقت لها مطرح)، (اللي قرصتة حية، يخاف من جرة الحبل)، أو (الدار دار ابونا، وأجو الغرب يطحونا) وهكذا نلاحظ أن مثل هذه الصيغ فيها قدر من الموسيقى الداخلية، مما يجعلها صالحة للغناء والتلحين، وقد أحسن الكثير من المغنين والمطربين استخدام بعض هذه الأقوال في غنائهم في أيامنا هذه.

وبالمقابل كان وجد الكثير من الأقوال المأثورة التي بدت ضعيفة البناء واللغة الخالية من الصيغ أو الصور الجمالية الأبداعية، فمن ذلك مثلا: طاسة طرنطاسة، في البحر غطاسة، من جوا لولو ومن برة نحاس " وهي حبة الرمان، أو " مدينة خضراء، سكانها عبيد، مفتاحها حديد " ويقصد بها البطيخة، وهي صياغات ترتكز أكثر ما ترتكز على السجع كما يلاحظ، وبعض هذه الصيغ جاء في صيغة ألغاز وأحاجي، فيها صياغات لغوية محكمة أحيانا وضعيفة أحياناً أخرى، لكنها غالبا ما تكون تحديا للفكر والذكاء، من مثل اللغز " طاسة طرن طاسة "، ومن المحتمل أن ما يبدو من ضعف في الصياغة – على ما أظن – أنها صيغت للأطفال أو الصبيان بالأساس، لمساعدتهم في

التدرب على التفكير التجريدي والتمثيلي. وبعض تلك الأحاجي والألغاز يأتي في صيغ أكثر إحكاما وصعوبة، وهي لمجتمع الكبار فيما يبدو، ومن ذلك : " شيء إذا أخذت منه يكبر، وإذا أعطيته يصغر" ويقصد بذلك الحفرة في الأرض، ومن ذلك " شيء إذا أسقيته يموت، وإذا أطعمته يكبر" وهي النار.

ومن ضمن هذا التراث القولي ما يمكن اعتباره كنايات للأشياء والأحياء في البيئة، فمثلا يقال : " الديك الفصيح في البيضة يصيح "، كناية عن أن الذكاء أو الحيوية هي أصلا أمر وراثي. ويقال : " فرخ البط عوام "، كناية عن مشابهة الأبناء للآباء. وهكذا من الألغاز والكنايات والأمثال التي تتضمن الحكمة والتجربة والصياغات اللغوية الجميلة غالبا.

على أن الباحث الفطن، يستطيع أن يتعامل مع هذه النتاجات بأساليب ومناهج مبتكرة ومناسبة، فلا يقع أسير التقسيمات الكلاسيكية أو الاعتيادية، بحيث لا يتقيد بالثنائيات أو الثلاثيات التي تقسم الموضوعات إلى أدبية وغير أدبية، أو غير ذلك من الأساليب المعتادة.

وثمة حقل آخر قد يندرج في هذا الباب أحيانا، ولكنه استطاع أن يستقل بنفسه ويصبح علما قائما بذاته ألا وهو علم دراسة الأساطير، أو ما يعرف بالمثيولوجي.

والمثيولوجيا (Mythology) هو علم دراسة الأساطير، أي أن المثيولوجيا هي الدراسة العلمية للأساطير وفحصها وفق القواعد العلمية المتبعة.

ويرى الكثير من الباحثين أن الميثيولوجيا فرع من فروع الأنثروبولوجيا (علم الأناسة أو علم دراسة الإنسان ثقافيا)، ولكن موقعها هذا لا يجعلها مستقرة كليا، فقد تنازعت هذا العلم حقول أخرى لعل أهمها علم دراسة الأديان وعلم الفولكلور[٩].

والأسطورة تختلف عن الخرافة والحكاية الشعبية والملحمة، فالخرافة قصة تعتمد على أبطال رئيسيين من البشر أو الحيوانات في حين يكون أبطال الأسطورة الآلهة أو أنصاف الآلهه، ويظهر البشر بشكل عرضي في الأسطورة، كما أن الخرافة

تكون دائما متصلة بالخوارق والمبالغات في حين تعبر الأسطورة عن تساوق عميق في حركة الآلهة والطبيعة.

أما الحكاية الشعبية فتختلف عن الأسطورة بكونها حكاية عادية لا دور للآلهة فيها ولا تحمل طابعا مقدسا وتخلو من الموضوعات الكبرى المصيرية وتعنى في الغالب بالأمور اليومية والدنيوية.

وأما الملحمة فهي حكاية طويلة تتميز بالاسترسال والإسهاب وتنظم في الغالب شعرا، ويكون البطل الملحمي انسانا خارقا بعكس البطل الأسطوري الذي هو إله أو شبه إله، وهناك نوعين من الملاحم "الملحمة الشعبية التي ينسب تأليفها إلى الجماعة أكثر مما ينسب إلى فرد بعينه، وهناك الملحمة الفنية أو الأدبية وهي التي تنسب إلى مؤلف معروف [١٠].

وكان تايلور **Taylor** قد نوه بأن الأساطير تنطوي على (أعمق ما في السلوكات البشرية من نوابض وحوافز).

(وشخصيات الأسطورة غالبا ما تكون كائنات غيبية، أو آباء أولين أو حيوانات طوطمية تفعل فعلها في الزمن الأولاني).

وفسرت المدرسة الوظيفية الأسطورة باعتبارها واسطة لتبرير الوضع المجتمعي القائم والحفاظ على تضامن الجماعة، والمدرسة الرمزية فسرت بها نشأة التقنيات والتنظيم المجتمعي، والتحليلية النفسية فسرت بها اللاوعي الجماعي.

أما ليفي ستراوس فاعتبر أن دراسة الأسطورة مهمه لأنها تدخلنا إلى أعماق المشاعر الأساسية التي يكنها الانسان، فلأن الذهن البشري يتصرف بحرية تامة إلى التعبير عن عفويته الخلاقة، فيكون بذلك (وجها لوجه مع ذاته)، فانه يعرب عن مشاعره الأولانية التي لا تزال راهنة لديه. وينطلق ستراوس من معاينتين: الأولى، أن الأسطورة لا تنطوي على أية قاعدة منطقية، ولا يتصف تعاقب أحداثها بالتواصل، والثانية أن الأساطير تتشابه كلها من أقصى الأرض إلى أقصاها تشابها عجيبا[١١].

رابعا - المعتقدات والقيم والعادات والطقوس:

والباحث الذي يرغب بارتياد هذا الحقل من الدراسة، لا غنى له عن التزود بمفاهيم للعلوم الأخرى وخصوصا علم الاجتماع، ثم علم الإنسان (الأنثروبولوجي)، وعلم النفس الاجتماعي، وربما احتاج قدرا كافيا من علوم الدين إذا ما تعرض لبعض المعتقدات أو الطقوس والمراسم ذات الصبغة الدينية، وذلك ليستطع التمييز ما بين الديني الأصيل، والديني المبتدع، ومثل هذا الأمر شـــائع في هذا الحقل الذي يتناول المعتقدات والطقوس والمراسم(*).

ويندرج تحت هذا الباب الكثير من المجالات التي يمكن أن تتفرع لتشمل الكثير من جوانب الحياة، فالقيم شاملة لمختلف جوانب الحياة، وكذلك العادات، إذ يمكن الحديث عن قيم البدو مثلا في بلاد الشام أو في جنوب فلسطين، ومثل ذلك يقال عن العادات أوطقوس الزواج أو الختان أو الولادة.... الخ، أو مراسم الاحتفالات في الأعياد أو المناسبات كالزواج أو الموت أوسفر الحجيج أو العودة من السفر..الخ.

ويشار هنا إلى أن هذا الباب ربما كان من أكثر الأبواب اختلاطا وتشابكا مع علم الإنسان وعلم الاجتماع خصوصا.

ومن الملاحظ أن هذا المجال يهتم بعنصرين أساسيين في الإنسان (الجماعة): ما يكمن في النفس من اعتقادات وقيم، ثم ما ينعكس من تلك الاعتقادات والقيم في السلوك الظاهر على شكل طقوس ومراسم وتصرفات. ولنضرب مثلا على ذلك: فالفلسطيني كان يعتقد أو يؤمن، بأن الميت بعد دفنه يحس بالضيق والحزن لأن الناس قد تركوه في القبر، وهو يستأنس ببعض الأقارب الذين يجلسون بقرب القبر لقراءة القرآن أو البكاء. وثمة عادة قديمة لدى بعض المناطق الفلســطينية حيث يقوم أقارب

---

* - الأسطورة: قصه تقليدية عن عالم غير موجود، وزمن غير معروف، ولمؤلف مجهول، أبطالها خياليون، وهم رجال وحيوانات وآلهة وأرواح، ومخلوقات فوق طبيعية، وتفسر الأسطورة نشأة الأعراف ومعانيها، والموضوعات الرئيسية التي تتناولها الأسطورة هي: خلق الكون، والأنسان، والموت، وكيفية حصول الشعب على الموطن الذي يسكنه، وما يشبه ذلك. (د. شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ١٩٨١، مادة أسطورة Myth).

المتوفى بتوزيع الحلوى (خبز الزلابية) على الجيران، وعلى جيران القبر كنوع من الصدقة على الميت. وفي مجال القيم، فثمة قيمة الكرم مثلا التي تدفع صاحب البيت المضيف على تقديم أفضل الطعام والخدمات لضيوفه فيما قد يفتقر هو وأبناؤه لمثلها، فهذه تنبع من قيمة أساسية، وهي إكرام الضيف مهما شحت الإمكانيات، ولذلك يعتقد بعضهم بالقيمة القائلة " إن الجود جهود " فيما يعتقد بعضٌ آخر بقيمة أخرى مناقضة تقول " الجود من الموجود " أي أن قمة الكرم تنحصر فيما هو موجود تحت التصرف . أما المراسم فمن أمثلتها، استدعاء أكبر قدر ممكن من الناس والوجهاء خصوصا لطلب يد العروس من ذويها، ولا تزال هذه المراسيم شائعة في مختلف شـرائح الشعب الأردني والشعوب العربية عموما، فبقدر ما كبرت " الجاهة " بقدر ما يعني ذلك تقديرا للمضيفين أولا، ثم إعلاء من شأن صاحب الجاهة، أي الذي قام باسـتدعاء أفرادها لهذا الغرض أو ذاك، ومنها مثلا طقوس الوفاة والدفن وطقوس وداع الحجاج المغادرين إلى الديار الحجازية التي شارفت على الإضمحلال، ومنها طقوس التعميد أو التثبيت لدى الطوائف المسيحية، ومع أن لبعض هذه الطقوس أصولا دينية، إلا أنها في الوقت نفسه تختلف من مرحلة إلى أخرى ومن جماعة إلى أخرى. وهذا بحد ذاته موضوع مناسب للدراسة والمقارنة والفحص.

وعلى الدارس والمهتم معرفة الفروق والعلاقات بين القيم والعادات والتقاليد والطقوس وكذلك الدين، وهذه تقع في نطاق علم الاجتماع ثم علم الإنسان، ومعرفة وإدراك هذه المفاهيم والعلاقات بينها أمر في غاية الأهمية ليس للمتخصص وحسب، بل للمهتمين والمبتدئين كذلك في الفولكلور، نظرا لما يترتب على جهلها من خلط وإرباك يخل كثيرا في الجهد العلمي مهما كان بسيطا للباحثين أو الجامعين الذين يحاولون تقديم شيء ما في هذا المجال. ويحسن بالمهتمين البحث في مراجع علم الاجتماع وعلم الإنسان للاطلاع عليها، ومن المعروف أن دراسه هذا الحقل الفولكلوري يعد من أصعب الحقول وأكثرها تشابكا وحساسية نظرا لطبيعة المعتقدات والقيم والعادات والأعراف والطقوس التي يصعب أحيانا تفسيرها، مما سيحتاج معه الباحث إلى التعمق في دراسة حقول أخرى كثيرة، وجمع الحقائق والشواهد المتنوعة.

على أن أغلب الباحثين يميلون إلى تقسـيم هذا الحقل الواسع إلى حقول متفرعة، وأهمها التقسيم الرئيسي الذي يجعل من المعتقدات بابا مسـتقلا، لأن فيه من الاتساع ما يشمل الكثير من جوانب الحياة والسلوك. ثم ما يتصل بالتفاعل الاجتماعي بابا أخر، وهو يتضمن " العادات والتقاليد والقوانين المحلية" كالقوانين العشائرية والأعراف والقيم والطقوس والمراسم.. إلخ.

ولا بأس من الأشارة الموجزة إلى ملخصات معانيها :

المعتقدات(Belief): وهي تنقسم إلى نوعين، الدينية، وهي كل المعتقدات التي لها أصول في النصوص الدينية المتفق عليها. بصرف النظر عن اسم هذا الدين، وهذه تقع خارج نطاق الدراسة الفولكلورية لأنها ترتبط بالدراسات الدينية. والنوع الثاني هو المعتقدات ذات الصبغة الإيمانية ، وهي تلك المعتقدات التي تتخذ صبغة دينية دون أن يكون لها أساس واضح أو متفق عليه في النص الديني، ومن أمثلة ذلك في المجتمع الفلسطيني والأردني ما يعتقده البعض من أن العيص (عيسو) هو نبي من أنبياء الله، والعيص هو شقيق يعقوب التوأم، فيما يرفض البعض الآخر هذا الأعتقاد، وللعيص هذا مقامات في بعض القرى الأردنية (بلدة العيص – الطفيلة) وفي قرية فلسطينية على الأقل (سعير – الخليل). ومن المعتقدات ذات الصبغة الدينية بعض الأحداث أو المفاهيم، وهي كثيرة، إذ كان البعض ولا يزال يعتقد أن رشق الماء الوسخ على الأرض في الليل هو أمر محرم أو مكروه لأنه مثير للجان. ومثل ذلك النوم دون خلع جرابات الأقدام ، أو الصفير في الليل أو قتل طائر البوم. ومن المعتقدات ذات الصبغة الدينية ما تعلق منها ببعض القصص الديني وهي كثيرة جدا مثل قصص عوج بن عناق أو قصص يأجوج ومأجوج أو قصص بعض الأولياء والصالحين كبعض قصص الخضر عليه السلام، أو قصص الجيلاني، التي تعد نوعا من الكرامات، وبعضها لا يقره الدين الحنيف، ومن ذلك الكثير من المعتقدات المتصلة بالمزارات والقبور والحيوانات والأشجار وغيرها الكثير. وليس من الضروري أن يرتبط الاعتقاد بمغزى ديني في كل الأحوال، فبعض الاعتقادات تتناول أمورا واقعية، ويعرف المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية المعتقد " Belief " أنه حكم يتناول الواقع، ويرتكز

إلى حد ما على الإيمان، وبهذا المعنى فإن العبارات المشتقة من ملاحظات واقعية فقط لا تعتبر معتقدات[١٢]. بمعنى أخر، فإن المعتقد غالبا ما يلبس هالة دينية أو تقديسية، وإلا فإنه يصبح إعتقادا عاديا لا يلزم إحترامه بالضرورة.

القيم (Values): القيم هي تعبير عن الغايات أو الأهداف البعيدة (النهائية) للفاعل الاجتماعي، وهي لا تتعلق بما هو كائن فعلا، وإنما بما ينبغي أن يكون، فهي تعبير عن بعض الدوافع الأخلاقية الفعالة [١٣].

فالقيم مثل عليا في نظر المجتمع والفرد، وهي غالبا ذات ارتباط بالفضائل التي من خلالها يتحدد الخير من الشر في المجتمع، أو الحسن والقبيح. أو المرغوب فيه والمرعوب عنه. فالكرم قيمة وكذلك الصدق والأمانة، وامتناع الرجل عن البكاء في الأزمات قيمة تؤمن بها بعض المجتمعات، والامتناع عن ضرب المرأة هي قيمة للأكثرية من العرب، ولكن ضرب الزوجة قد يكون قيمة جيدة لدى البعض باعتباره عملا تربويا، في حين أنها غير مقبولة من هؤلاء البعض اتجاه المرأة الأجنبية أو اتجاه الأم، ومن ذلك أيضا قيمة احترام الصغير للكبير وقيمة الشجاعة وقيمة التسامح...إلخ. فالقيم بهذا قد تكون عامة وقد تكون خاصة لهذه الفئة أو الشريحة من المجتمع.

العادات (Customs): العادة هي صورة من صور السلوك الاجتماعي استمرت فترة طويلة من الزمان، وأستقرت في مجتمع معين، وأصبحت تقليدية، واصطبغت إلى حد ما بصبغة رسمية، والعادات الجمعية أساليب للفكر والعمل ترتبط بجماعة فرعية، أو بالمجتمع بأسره[١٤].

فالعادة ما اعتاد الناس على القيام به من السلوك في مختلف الأحوال ومنذ فترة طويلة من الزمان، وهي سلوك متوقع في الظرف المحدد، وهو ليس سلوكا مستحدثا وليس فرديا، والعادة تتضمن التكرار أيضا والقبول العام. فمثلا من عادة بعض القرى في شمال فلسطين توزيع الحلوى في بيوت العزاء، فيما يعتبر ذلك غير جائز في الكثير من القرى الأخرى وخصوصا في الجنوب. فالعادة تتضمن التكرار والقبول والانتشار. أما غير ذلك فقد يصنف في نطاق المبادرة أو السلوك الفردي، كأن يقوم أحدهم بتوزيع الورود في يوم عرسه على المدعوين، أو أن تقوم العروس بدفع المهر للعريس. ومن

السلوك المتبع هذه الأيام في الأعراس الكثير من المستحدث على العادات وكذلك المراسم، ومنه ذلك مثلا ما يبدو كعادة في تجوال قافلة المركبات في الشوراع، وبعضها يستخدم التزمير المزعج أثناء ذلك، ومن ذلك ما يبدو كعادة في قيام فرقة مستأجرة بزفة العروسين على أبواب الصالات، وبعضها مصري الطابع وآخر أردني أو فلسطيني أو سوري.. إلخ.

وعلى كل الأحوال، فقد تحطمت الكثير من العادات في ايامنا هذه ومن ذلك عادات الأعراس وحتى الكثير من القوانين والأعراف العشائرية، والسبب الرئيس ما نشهده من تقدم وتطور ســريع في مختلف المجالات، معظمه مستورد من الخارج، ولذلك فإن أي صيغة او أي سلوك جديد مخالف للعادات المألوفة أصبح مقبولا أو غير مرفوض.

الطقوس والمراسم والشعائر: ثمة بعض التداخل في هذه المفاهيم، فالطقس هو تقليد أو إجراءات متقادمة اكتسبت هيبة أشبه بالهيبة الدينية نظرا لهالة التقديس أو الاحترام الكبير لهذه الطقوس، والطقوس غالبا ما تتخذ معنى رمزيا، بخلاف العادة التي تكون وظيفتها واضحة مثل عادة تقديم الهدايا للعروسين، أما الطقوس فهي "على ما يبدو لي " بقايا لعادات أو معتقدات دينية بائدة، من ذلك مثلا رش الملح أو السكر في مناسبات الأعراس، ومن ذلك طقوس ومراسم اعتلاء الحاكم أو ما يماثله لموقع السلطة، ومن ذلك مثلا الطقوس المتعلقة بدفن الميت وما يتبع ذلك من مناسبات مثل الأربعينية أو الخميسية حيث تقدم الأطعمة والصدقات وقد يقرأ القرآن أو يتم التهليل الديني وغير ذلك مما يختلف من مجتمع إلى آخر. ومن ذلك أيضا طقس قيام العروس بلصق الخميرة وغصن الزيتون على باب دار الزوج قبل دخول البيت(*) أما المراســم فهي في الحقيقة ترتيبات قد تكون مستحدثة أو قديمة لكنها تلاقي الإجماع والاتفاق أو القبول من المجتمع بهدف الحفاظ على تعليمات وقوانين للسلوك الجماعي والاحتفالي

---

* – أعتقد أن مثل هذه العادة تعود إلى ديانات لخمية – سامية (نسبة إلى اللخميين) وهي أقوام عرفت في جنوب الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، وكان لخميرة العجين فيها وللخبز مركز مقدس في المعتقدات.

مثل مراسم إخراج العروس من بيت أهلها أو حتى كامل مراسم العرس من أوله لآخره، أو مراسم استقبال الجاهات العشائرية أو مراسم استقبال الضيوف أو وداع الحجاج أو مراسم الختان أو مراسم تنصيب العمدة أو المختار أو مراسم ختم حفظ القرآن أو مراسم دخول البيت لأول مرة أو مراسم زيارة قبور الأولياء والصالحين...إلخ. فالمراسم مجردة في الغالب من الرمزية الدينية التي تمتاز بها الطقوس والشعائر.

والشعائر ومفردها شعيرة، هي ممارسات دينية بالضرورة، فهي أنشطة وإجراءات محددة في العبادات، غالبا لا تصح العبادة بدونها، وقد ظل مثل هذا المفهوم ساريا في الديانات السماوية، بحيث لا تصح العبادة بدون القيام بالشعائر المحددة.

خامسا- القوانين (Laws) والأعراف (Mores):

من المعروف ان لكل جماعة قوانينها التي تنظم حياتها في مختلف الظروف والحالات. ولقد اكتشف علماء الإنسان ان القوانين موجودة في كل المجتمعات مهما اتسمت بأي قدر من البدائية او التخلف أو الأمية، والقانون الرسمي (المكتوب) ليس هو محط اهتمام الدراسات الانثروبولوجية او الفولكلورية، بل ان القانون غير المكتوب والمتوارث هو موضوع هذا الاهتمام لما لهذا القانون من أثر ملموس وعميق في تصرفات الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ولذلك فان القانون الاجتماعي يقع في صلب هذا الاهتمام، والقانون العشائري يقع في صلب هذه القوانين نظرا لشموليته ودوامه، إذا أن القوانين الاجتماعية تطال كافة مناحي الحياة بدءا من الزواج إلى العلاقات الأسرية إلى الأنشطة الاقتصادية... إلخ. ومن هذا القبيل أيضا بعض أنساق القوانين التي تنظم علاقات فئات حرفية معينة كالنجارين أو الصيادين، والقوانين العرفية، قد تتعايش مع القوانين الرسمية وتتآلف معها أحيانا، وقد تتناقض معها أحيانا أخرى، ومن ذلك ما يقتضيه القانون العشائري في "إجلاء أهل وأقرباء القاتل من مكان سكناهم، جريرة فعل لم يقترفوه " فيما لا يقر القانون الرسمي ذلك نظريا، ولكنه قد يتساير معه في كثير من

الأحيان إعترافا بسـطوة وأهمية القانون العشائري، ويلتحق بهذا القانون ما هو أقل سطوة أو قوة مما يعرف بالأعراف.

فالقانون هو مجموعة من القواعد والأحكام والعقوبات التي اتفق عليها المجتمع وتوارثها أو قامت بفرضها قوى متنفذة فيه لتكون أدوات ومعايير لحفظ النظام العام أو لفض الخلافات أو إقامة التحالفات بين الناس أفرادا وجماعات، فهي إذا نسق من الأحكام الذي ينظم العلاقة بين الناس في السلم والحرب. أي في حالتي الاتفاق أو الافتراق.

والعرف هو ما تعارف الناس عليه وما اتفقوا على منطقيته أو شرعيته أو سلامته لتحديد السلوك المقبول من غير المقبول، وينضوي نظام الأعراف على جزاءات غير رسمية مثل المقاطعة أو الذم ولكنه لا يرتفع بجزاءاته إلى مستوى القانون الذي يحدد عقوبات صريحة ضد المخالفين، والعرف في الوقت نفسـه أرفع شأنا من العادات، فإن مخالفة العادة ببدعة جديدة يعتبر أقل وطأة من مخالفة الأعراف في معظم الأحيان.

وبما أن العرف هو أقل إلزاما من القانون، وفي تطبيقه مرونة اكبر من القانون أو الاعتقاد الديني، فالعرف مثلا يجيز للرجل إنتداب إمرأة للتعرف على فتاة ما لمحاولة خطبتها من أهلها، ولكن هذا العرف لا يلزمه بذلك، وبإمكانه الاسـتعاضة عن ذلك بوسائل أخرى منها أن يتوجه هو بنفسه إلى بيت أهلها والتقدم بالطلب، لكن هذا العرف (ومن قبله القانون) لا يجيز له ملاحقة الفتاة في الشوارع أو الأماكن العامة بحجة التعرف عليها، وفي حالة اكتشاف ذلك فإن بإمكان الفتاة وأهلها طلب الحق جراء ذلك السلوك المرفوض عرفيا.

ومن ذلك أن القانون العشائري في منطقة الخليل ومعظم المناطق العشائرية يجيز للإنسان إقامة حفل زفافه على الرغم من وجود بيت عزاء قريب في الجوار، لكن العرف يقضي (وليس القانون) أن يستأذن صاحب العرس جيرانه من أصحاب العزاء عارضا عليهم تأخير العرس في بعض الأحيان، ويقتضي العرف نفسه أن لا يعترض اصحاب العزاء، بل عليهم الإعراب عن حرصهم على اكتمال مراسم العرس كما كان

مخططا لها، وغالبا ما يذهب نفر من أصحاب العزاء لمشاركة أهل العرس فرحهم دلالة على الرضى والقبول. ويقتضي العرف نفسه بأن يحترم أهل الفرح مشاعر أهل المتوفى فلا يجهرون بالغناء والفرح خصوصا في حالة كون الطرفين من الأقارب أو الجيران. ومن ذلك أيضا، أنه في حالة وقوع حالة وفاة نتيجة حادث قتل متعمد أو غير متعمد، يقتضي القانون قيام طرف ثالث بدور الوسيط (يفترض أن يكون ذلك بطلب من أهل المتسبب بالقتل، وقد يبادر بذلك أهل الإصلاح)، حيث تعقد هدنة لثلاثة أيام مبدئيا، ثم يجري تمديدها غالبا، بالتفاوض ما بين الطرفين.

والملاحظ أن العلاقة بين القانون والعرف وكذلك العادات والتقاليد هي علاقة متداخلة وغامضة في بعض الجوانب، وذلك لا يعود إلى أخطاء في هذه المفاهيم والعلاقات بقدر ما يعود إلى التداخل الحقيقي والمركب في جوانب الحياة ذاتها.

سادسا – التداوي والطبابة :

التداوي من الأمراض وطبابة الإصابات والجروح أصبح شأنا من اكثر الشؤون التصاقا بالفولكلور نظرا لقلة المنافسة من العلوم الاجتماعية الأخرى على هذا الباب باستثناء علوم الطب الحديث، وصار من الملاحظ أن علوم الطب الحديث (كالصيدلة) صارت تأخذ من الطب الشعبي أكثر مما تعطيه، وبدأت مذاهب طبية كثيرة في العالم تنمو وتزدهر معتمدة على ما حققه الطب الشعبي من نجاحات في كثير من الأمراض مقابل فشل الطب الرسمي في بعض تلك الحالات أو على الأقل إرتفاع كلفته قياسا إلى بساطة الكلفة في طب الأعشاب، وهذا مما استرعى الانتباه أكثر الى هذا المجال من مجالات الفولكلور، وبالطبع فإن الطب الشعبي المقصود هنا هو الطب الشرقي او الطب النبوي كما يسميه الإسلام، والطب الشعبي له اشكاله ومدارسه الواسعة والكثيرة، من طب فيزيولوجي (كالكي أو تجبير العظام أو التدليك..إلخ) إلى الطب النفسي أو الروحاني الذي يعتمد القرآن علاجا وبعضهم يعتمد التعاويذ والرقى والطلاسم التي لا يفهم معناها، الى الطب النباتي الى الطب الصيني بأشكاله العديدة... الخ.

على ان هذا المجال الطبي، لايخلو من الدخلاء والشوائب كأي ضرب من ضروب المهن والفنون والآداب، فإنه -- ونتيجة لعوامل انحطاط تاريخيه - شابه الكثير من الشوائب مما يستدعي معه التمحيص فيما يعتبر طبا وتطببا وفيما يعتبر شعوذة وتخريفا، وهذا مما يستدعي أن يكد الباحث في التنقيب والدرس بالاعتماد على مصادر على درجة عالية من الثقة والخبرة كي لايساهم في نشر الخرافه والشوائب تحت هذا الباب. وكي لا يقع في الخلط بين الوسائل الفولكلورية، أي الشعبية المتفق عليها، وبين الاجتهادات الفردية التي قد تحرف الطريقة نحو التخريف أو الشعوذة أو المبادرة الفردية، وأقله نحو الشـــخصانية التي لا يعترف بها علم الفولكلور.

ويجب الانتباه إلى أن دور الباحث أو الجامع ليس البحث عن الوصفات او الأساليب الطبية الســـليمة فقط، بل كل الأساليب أو الوصفات أو العادات او الطقوس أو المراسم المرتبطة بهذا المجال بهدف توثيقها ووصفها، وإســـتشفاف القيم أو الأفكار أو المعتقدات الكامنة خلفها ما أمكن. وعلى ســـبيل المثال، فإن البعض في القرى الفلسطينية كان يستخدم "عظمة ترقوة الذئب " لعلاج بعض أنواع الســـعال الشديد وذلك بأن يعلقها في رقبة المريض كالعقد أو الأيقونة. ولا بد أن نجد لذلك ســـببا في المعتقدات إن لم نجده في التجارب أو في المنطق الطبي الذي نؤمن به هذه الأيام. ومن الممارسات الملفتة لانتباه الدارس في هذا الحقل التعاويذ والحجب والطلاسم التي يتم تطبيقها بهدف المعالجة والتطبيب، وهي مجال غني للدراسة وجمع البيانات وتحليلها. أما أكثر مجالات التطبيب تعقيدا وثراءا أيضا بالأفكار والمعتقدات فهي الطبابة الروحانية التي تتعامل مع ما يســـمى "أمراض الجن" أو "التلبس الجني"، حيث تتنوع طرق التعامل مع مثل هذه الحالات بدءا من الطلاسم ومرورا بالضرب وحرق البخور والزعم بتسخير الجان لهذه الأغراض.

سابعا – الألعاب الشعبية ووسائل الترفيه :

ويندرج تحت هذا الباب تفرعات كثيرة وتصنيفات عديدة، فثمة ألعاب للأطفال وأخرى للكبار، ومنها للذكور وأخرى للأناث، وثمة ألعاب رياضية (حركية) وأخرى

تربوية أو ذهنية أو ترفيهية، وثمة ألعاب جماعية وأخرى فردية...إلى غير ذلك من التصنيفات التي قد يكتشـــفها الباحث قبل غيره.

ومن الممكن دراسة موضوعة الألعاب وفق عدد من المناظير او النظريات، وأهمها المنظور التربوي – الاجتماعي، والدراسات الأنثروبولوجية أولت موضوع الألعاب اهتماما بالغا، وربطتها ببعض المفاهيم الأنثروبولوجية حول الألعاب منها : الدور، الصراع، التعاون، والتنشئة الثقافية (حسب الأنثروبولوجي) التي تعادل التنشة الاجتماعية في علم الاجتماع.

وقد يكون الباحث مهتما بالجانب التاريخي لهذه الألعاب أو الجانب التاريخي – الجغرافي الذي يمكنه من متابعة تطور الألعاب وانتقالها في البيئات المختلفة. ومن الممكن أن يجعل الباحث من الديناميات النفسية موضوعا لتحليل الألعاب، وبهذا فهو سيكون مضطرا للاستعانة بعلم النفس خصوصا، ومن المحتمل أن يقوم متخصص رياضي بدراسة الألعاب وفق المنظور الرياضي – الفيزيولوجي وما يتضمن ذلك من قوانين وقواعد بالمقارنة مع الألعاب الرسمية العالمية. وغير ذلك من النظريات أو المناظير التي تساعد الباحث في تحديد رؤياه وتلمس خطاه وتحقيق اهدافه من الدراسة.

وبخصوص الألعاب الشعبية، وخصوصا المختصة بالأطفال فإنه يحسن الإشارة هنا إلى ضرورة وأهمية إلمام الباحث في هذا الباب بقدر وافر من علوم وقواعد ونظريات التربية الحديثة، فهي ستضيء للباحث الكثير من الجوانب في تفسـيره للألعاب وأهميتها التربوية والتعليمية، وسـيجد الباحث أن النظريات الحديثة في التربية، كنظريات (جان بياجيه) أو (روسو) أو (مونتسيوري) وغيرهم قد وجدت في بعض هذه الألعاب منذ مئات وربما آلاف السـنين.

فإذا كان لكل من عالم النفس والرياضي والتربوي اهتمامه الخاص بالألعاب الشعبية، فما هو اهتمام الفولكلوري بها؟

من ناحية أولى على الفولكلوري الإفادة من نظريات وقواعد العلوم الأخرى في بحث موضوعاته محط الاهتمام، ومن ناحية أخرى، فإن الفولكلوري لا يجوز أن يقلد التربوي أو العالم النفسي بتتبع خطاه والنسج على منواله، بل عليه تناول الموضوع

من الزوايا التي يقتضيها الموضوع الفولكلوري وأولها معرفة الدور او الوظيفة او الرسالة التي تعكسها المادة الفولكلورية في المجتمع في الفترة التي عاشت فيها هذه المادة، ومن ناحية أخرى عليه البحث في الابعاد الأخرى للمادة كالبعد التاريخي أو الجغرافي او الفني أو الأيكولوجي.. إلخ.

وسيلحظ الملاحظ في هذا الحقل أن بعض الألعاب قد إنقرض نهائيا ولم يعد لها وجود، وهذا قد يعني أنها باتت غير ممكنة الممارسة لهذا السبب أو ذاك، وعادة فإن أهم هذه الأسباب هو حلول ألعاب بديلة لها بفعل التغير والانفتاح. وبعض هذه الألعاب تعرض للتحوير والتطوير، والتطوير إما أن يكون باتجاه التبسيط أو العكس، أي باتجاه مزيد من التعقيد. وبعض الألعاب لا يزال يحتفظ بحيويته وفاعليته حتى هذه الأيام عابرا المراحل ومتجاوزا التغيرات، مما يعني بقاءه كضرورة لها وظيفتها في المجتمع، سواء مجتمع الصغار أو الكبار، ومن هذه الألعاب مثلا: الاستغماية (الغماية)، القلول (البنانير)، والألعاب التمثيلية للبنات كلعبة " بيت بيوت "، ومن العاب الكبار السباحة أو الركض أو القفز، أو الضامة والسيجة.. إلخ.

ومن طريف ما عرفنا عن الألعاب، أن كثير من الألعاب المعروفة في المجتمع العربي لها ما يناظرها في المجتمعات الأخرى، ومن ذلك ما رأيناه في احد مقاطعات الصين ذات يوم من عام ٢٠٠٥، فقد شاهدت بعض الصبية والأطفال يلعبون أثنتين من الألعاب الشعبية المعروفة في بلادنا " فلسطين والأردن على الأقل"، وقد أتخذ أحدهم ميدانا مخصصا ليقوم بتأجير هذه الألعاب وبيعها للناس وخصوصا الأطفال، وعلمت منه أن هذه الألعاب هي ألعاب شعبية دارجة في المقاطعة الصينية.

واللعبة الأولى هي ما نعرفه "البلبل الخشبي" ومنه كذلك المصنوع من البلاستيك الصلب، والبلبل أشبه بحبة الأجاص أو بيضة الدجاجة، ولكن رأسه مدبب، ويلف حوله خيط من الكتان بطول نحو من نصف متر أو أقل، فيضرب بالأرض فيدور على رأسه المعدني المدبب، ويتسلى الطفل بمراقبة دورانه، ثم يتسابق الأولاد

في الحفاظ على أطول فترة زمنية لدوران البلبل. ويتفنن الأولاد في التعامل مع البلبل إلى درجة قذفه بالهواء وتلقيه باليد وهو يدور ويدور حول نفسه.

وظني أن هذه اللعبة إنما أتت مجتمعاتنا من الصين أو من الخارج عموما، وما يؤيد هذا الظن، أن هذه القطعة الخشبية المسماة "البلبل" هي في الحقيقة صناعية، ومثل هذه الصناعة يفترض ان تكون قد نشأت في الصين إذا ما خيرنا بين الصين والمجتمعات العربية. واللعبة الثانية المطابقة تماما لما هو معروف لدينا، لعبة الأطار المعدني، وتســميتها متنوعة في هذه القرية أو تلك، وأظن أن كثيرا من القرى كانت تسميها لعبة "الدحدال" أو "العجل"، وهو عبارة عن إطار معدني، وأفضل مصدر لهذه الأطارات هو إطارات الدراجات التي يجري الأستغناء عنها، وقد يكون أي إطار دائري منتظم من المعدن أو الكاوتشوك أحيانا، والولد اللاعب يستعين بسلك معدني ليجعل منه مقودا يوجه به الأطار ويجري به في الشارع، ولأجل ذلك يكون السلك المعدني بطول متر تقريبا، في أحد طرفيه ما يشبه الحلقة أو حرف (u) يحيط بالأطار. والطرف الأخر يكون في يد الولد اللاعب بالطبع. أما عن تحليل مصدر هذا التشابه في هذه اللعبة فهو بحاجة إلى البحث ضمن سياق أكبر من مقارنة لعبتين ببعضهما البعض، ومع انني أميل إلى تفسير ذلك وفق نظرية وحدة وتشابه التجارب والنوازع الانسانية في كافة المجتمعات، إلا أنه على الباحث والدارس الجاد بذل جهد مناسب لإيجاد هذا السياق الذي يتيح له التوصل إلى استنتاجات ذات شمولية وفائدة ثقافية ومعرفية.

ولو حاولنا الاجتهاد، بوضع إحتمالات لهذا التشابه الذي يصل إلى حد التطابق بين اللعبتين، لوجب علينا البحث الوافي في الأحتمالات التالية:

١ – أن مصدر اللعبة لم يكن من بلادنا، وإنما وفد من الخارج، وقد يكون من الصين ذاتها.

٢ – أن مصدر اللعبة نابع من مجتمعنا الذي نبحث فيه، وانتقل هذا العنصر الثقافي إلى الصين مثلما انتقلت بعض العناصر الأخرى عبر التجار مثلا، أو عبر بعض الجاليات العربية أو الإسلامية هناك.

٣ – أن هذا التطابق بين اللعبتين مرده التطابق والتشابه في التجارب والنوازع الطبيعية بين المجتمعين.

وبالطبع، فأن أي من هذه الاحتمالات بحاجة إلى ما يكفي من البراهين لإثباته أو نفيه، ويجب الإشارة إلى أن المقارنة قد لا تصح إذا إقتصرت على المجتمعين فقط لإثبات أصول هذه العناصر التي نحن بصددها، فإن الاحتمال الرابع يفتح المجال لاجتهاد الباحث وحريته في استطلاع هذا الأمر بوسائله الخاصة ، وقد يتوصل الباحث إلى احتمالات أخرى لم تخطر في بال غيره. لكن المهم دائما أن يبقى للباحث سـياقه الذي يهديه ويهدي القارئ من ورائه.

ثامنا – التاريخ الاجتماعي:

كان العالم العربي ابن خلدون رائدا في حقل التاريخ العام عموما وفي التاريخ الاجتماعي خصوصا، ومن هنا كانت شهرته وريادته التي جعلت منه مؤسسا للمنهج العلمي للتأريخ العام والتأريخ الاجتماعي فضلا عن المنهج العلمي في دراسة الظوهر الأجتماعية، وهو ما عرف لاحقا بعلم الاجتماع.

يقول ابن خلدون في مقدمته " اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر من الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبقة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس واصناف التغلبات للبشر على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.. ". وهكذا يبدأ إبن خلدون بتحديد جوهر التاريخ بأنه هو التاريخ الاجتماعي الذي يختص بأنماط المجتمعات الإنسانية من وحشية (بدائية) أو مدنية، أو قبلية تلعب فيها العصبية دورا بارزا، كما أن " القوة " بكل ما تنطوي عليه من معنى تمثل بعدا أساسيا من أبعاد

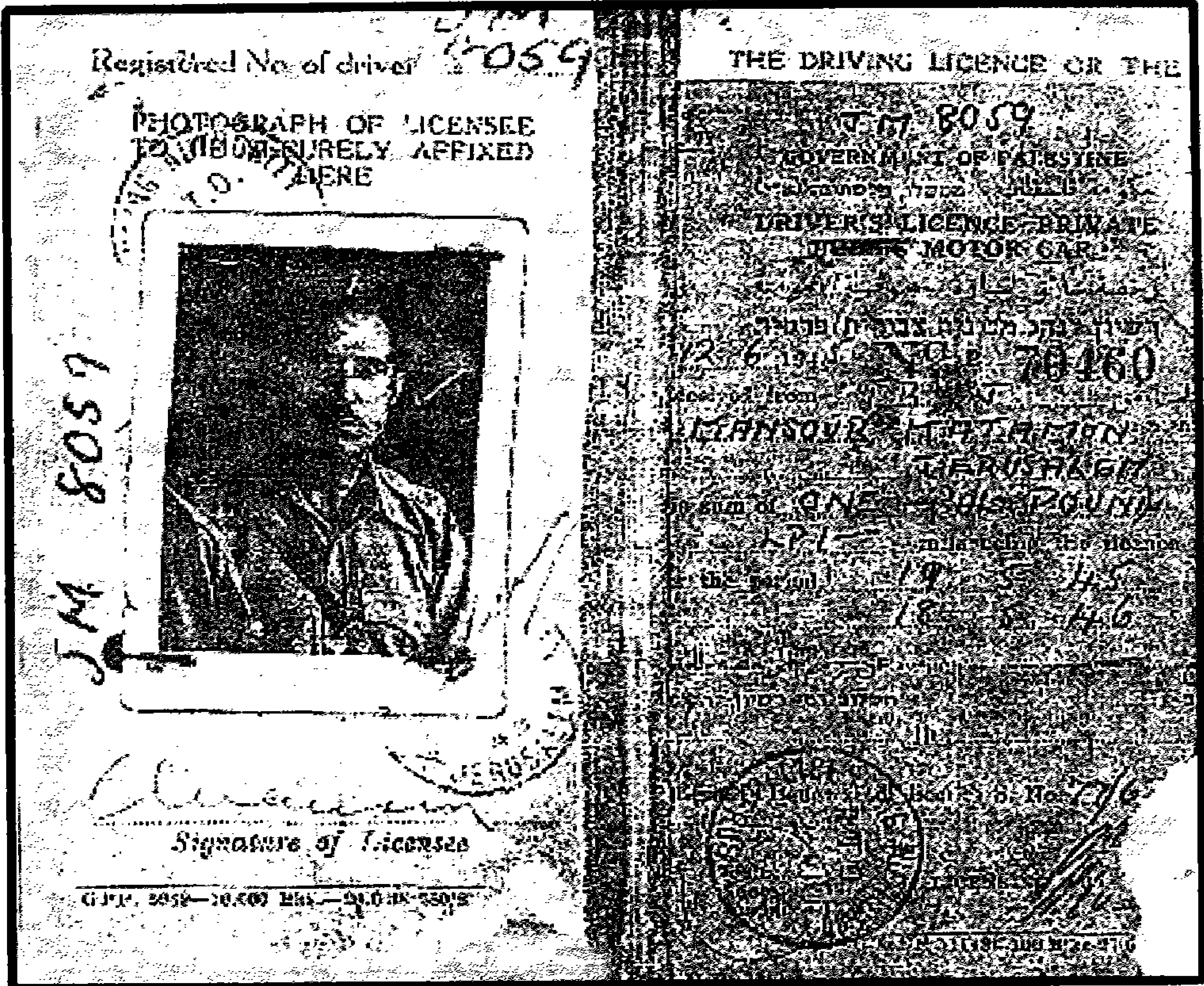
التاريخ الاجتماعي الذي هو عمران العالم أو حياته الاجتماعية. كذلك يهتم العمران البشري بالحياة الاقتصادية والأحوال المعيشية للجماعات الإنسانية (١٥).

ومن المعروف ان نمو وتطور الإتجاهات التحررية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، دفع نحو الكثير من التغيرات في العلوم أيضا، كان من أحد مظاهرها الاهتمام بالتاريخ غير الرسمي للشعوب والبلدان والقوى السياسية والاجتماعية والمهنية، فقد بات مفهوم كتابة التاريخ لا ينحصر فيما يمليه المنتصرون أو الحكام أو القوى النافذة، والذي يجعل من الزعماء او الرؤساء أو المعاهدات والنصوص المكتوبة مادة ومصدرا وحيدا للتأريخ، بل بدأ المؤرخ بالتوسع والتعمق لدراسة عوامل أخرى أكثر عمقا واكثر تاثيرا في صناعة التاريخ، فمن ذلك العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية إلى غير ذلك من الديناميات الكامنة أو الظاهرة، ومن خلال هذا المفهوم الواسع، فقد بات الاهتمام بميدان المجتمع نفسه أمرا مهما ولا يقل أهمية عن الاهتمام بالوقائع الرسمية والمكتوبة التي ترتبط بالحكام والزعماء.. إلخ.

وقد وجد البعض، ومن المؤرخين خصوصا وعلماء الاجتماع أيضا أن الكثير من الأحداث التاريخية أو الحروب مثلا ما هي إلا ذروة لوقائع أخرى في الواقع الشعبي (الاجتماعي) أو الأقتصادي مثلما جرى – على هذا الأساس – تفسير الحروب الإستعمارية وقبلها الحروب الصليبية. وعلى الباحث أو المؤرخ الاهتمام بدراسة الوقائع الشعبية أو الميدانية وعدم الاقتصار على دراسة ما يقوله المسؤولون أو الرسميون أو الوثائق الرسمية في هذا الشأن.

ومن ذلك التاريخ الشعبي الذي يتم من خلاله رواية التاريخ غير المكتوب للشعوب او الجماعات وفق ما يعرفه أو وفق ما عايشه الرواة، من مثل رواية تاريخ ثورة القسام ١٩٣٦ في فلسطين، أو رواية تاريخ مدينة تونس، او رواية الحرب بين بعض العشائر أو الجماعات أو الدول وفق ما عايشها الناس أو ما تناهى إليهم بالتواتر، ومن ذلك رواية التاريخ المحلي لهذه القرية او تلك المدينة، وقد عرفنا من هذه الدراسات الكثير نظرا لرغبة البعض من الباحثين أو المثقفين بتخليد تاريخ قراهم أو مدنهم، والكثير من الأبحاث تم إعدادها حول تاريخ الكثير من العواصم العربية ومنها

عمان والقدس والرباط وبغداد ودمشق والقاهرة..، وكذلك معظم المدن وكثير من القرى الفلسطينية حيث يستشري الصراع لطمس التاريخ والهوية والتراث.



Registered No. of driver 8059

PHOTOGRAPH OF LICENSEE TO BE SECURELY AFFIXED HERE

Signature of Licensee

THE DRIVING LICENCE OF THE

GOVERNMENT OF PALESTINE

DRIVER'S LICENCE—PRIVATE MOTOR CAR

No. 70460

(رخصة سوق من حكومة عموم فلسطين عام ١٩٤٥)

بعض الوثائق والمخطوطات الشخصية فيها دلائل ذات مغزى

لكن السؤال الذي يظل مطروحا بخصوص المصادر الشفوية هل يمكن الاعتماد عليها كمصادر تاريخية ؟

في الحقيقة ثمة الكثير من المجتمعات والأماكن التي يعيش فيها أناس لا يعرفون الكتابة، وإذا كان الحال كذلك، فإن (الروايات الشفوية) تظل المصدر الأساسي المتيسر لبناء فكرة عن الماضي، وحتى بين هؤلاء الذين عرفوا الكتابة، فإن عددا من المصادر التاريخية بما في ذلك أقدم المصادر، تعتمد على المأثورات الشفاهية[١٦]

ويبقى الكثير أمام المؤرخ لينتبه إليه وليقوم بتمحيصه، مستعينا بكل الأساليب والأدوات العلمية والمنطقية المناسبة، ومن ذلك (النقد الخارجي والداخلي) للنصوص التي أشرنا إليها أثناء الحديث عن المنهج التاريخي في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ومن ذلك أيضا إستخدام الاسنادات الموثوقة وتوسيع نطاق عينة الرواة التي تم الاعتماد عليها قدر الممكن. ومن ذلك الاستعانة بالوسائل الدراسية الأخرى الممكنة، وغير ذلك من الاحتياطات الكثيرة التي يتطلبها المنهج التاريخي.

تاسعا – السحر والشعوذة والرقى وقصص الجان والأرواح:

ومن المواضيع الرئيسية أيضا دراسة أنماط السحر والشعوذة وما يتصل بها من طقوس ومعتقدات، ويمكن إدراج مثل هذه الموضوعات في نطاق دراسة المعتقدات والطقوس الاعتقادية، وقد يكون هذا الحقل من أصعب حقول الدراسات الفولكلورية، وهو حري بذلك الاهتمام الكبير الذي أحيط حوله في الدراسات الانثروبولوجية، وقد استنبط علماء الانثروبولوجي الكثير من المفاهيم والاصطلاحات المتعلقة بهذا الحقل، وبرزت نظريات قوية ومتعددة لتفسير ظواهر السحر والشعوذة وما إلى ذلك من معتقدات غيبية، وقد اعتبر بعض العلماء أن هذه الأنشطة السحرية وما يرتبط بها من مراسم وطقوس ما هي إلا بقايا للأديان أو الثقافات البدائية الموغلة في القدم، وقد بادت تلك الأديان وبقي منها هذه الشظايا أو (الآثار)، فيما اعتبرتها بعض النظريات أنها تعبيرات نفسية – اجتماعية لمجتمعات أو جماعات بدائية. وثمة وجهات نظر أخرى في شأن السحر والشعوذة والمعتقدات الغيبية التي لا تتصل بالدين.

ويبدو السحر والشعوذة أحيانا كثيرة ذات صلة بالطبابة والتداوي، فثمة أمراض كثيرة تستخدم في علاجها مثل هذه الأساليب السحرية أو الشعوذة أو الرقى، ومع ذلك فيبقى لموضوع الشعوذة والسحر تميزه الخاص الذي يجعل منه ميدانا مميزا أو مستقلا عن غيره لأسباب عديدة، فهو أولا ليس تطبيبا بالمعنى العام للقواعد ومهارات التطبيب الشعبي، وهو في الوقت نفسه غير معترف به – بالضرورة – من قبل النسق الاعتقادي السائد في المجتمع، فتجده يعيش مجاورا له وإن جرى الاعتراف

ببعض عناصره من قبل النسق الاعتقادي والثقافي العام، أي أن فئات محدودة من المجتمعات هي التي تؤمن به، فيما قسم من هذه الفئات فقط على استعداد للتعامل به أخذا أو عطاء، ولهذا النشاط (الشعوذه والسحر) قواعده الخاصة وشخوصه (سدنته) مثلما أن له خاصتة من الزبائن المتعاملين به.

ويجب الفصل في هذا الصعيد بين ما له ارتباط بالأصول الدينية وبين الشعوذة والسحر الذي لا يقره الدين. وهذا الخطأ وقع فيه الكثير من المستشرقين الذين درسوا المجتمعات العربية الإسلامية، عندما لم يفصلوا – عن قصد أو عن غير قصد – بين ما هو ديني وبين ما هو اعتقادي بصبغة دينية. وضرورة الفصل لا تأتى من ضرورة احترام المعتقدات الدينية وحسب، بل من أجل الفصل بين ما توارثه الناس جيلا بعد جيل من هذه الأساليب وتبيان حيثياتها ومغازيها وأصولها ما أمكن، وما أتى به الدين البين من أساليب ومناهج وطرق مما يعني إختلاف المنطلقات والأهداف والوسائل التي تجعل من كل حقل مجالا منفصلا عن الآخر بمختلف المعايير.

وقد اهتم الأنثروبولوجي، وخصوصا ألأنثوغرافيا (علم دراسة الثقافات الإنسانية) بموضوعات السحر والشعوذة وجعلهما من أهم المواضيع التي يدرسها إلى جانب الأساطير والخرافات والطقوس المتعلقة بالكثير من الأنشطة الاجتماعية.

ومن المواضيع التي لها ارتباط بهذا النوع من النشاط، موضوعات عبادة الأسلاف والأرواح، فقد آمنت جماعات كثيرة بأن بعض الاختلالات أو الأغراض التي يستدعيها السحر والشعوذة هي من صميم حياة الأسلاف والأرواح ومتطلبات ضرورية لرضائها أو تجنب سخطها... إلخ.

قصص الجان والأرواح والمردة :

ومن المواضيع التي درسها علم الفولكلور، قصص الجان والمردة والأرواح وما إلى ذلك من المخلوقات الغيبية، ودراسة قصص الجان والأرواح، تهتم بما يعتقده الناس أو ما تخيلوه او ما توارثوه من قدرات الجان والمخلوقات الغيبية وحكاياتهم وسلوكهم في علاقاتهم مع الإنسان. ويظل هذا الحقل ذو خصوصية تميزه عن الحقول

الأخرى من المعتقدات أو السحر أو الشعوذة، مع التقاءه معها في أحيان كثيرة، نظرا لما فيه من وصف لعالم آخر أو عوالم متعددة غير عالم البشر، فصحيح أن الدين يقر وجود الجان على الأرض، لكنه لا يقر بالكثير مما يعتقده الناس أو يتخيلونه اتجاه الجان وحيواتهم وسلوكهم، وكذلك المردة والأرواح وما إلى ذلك من معتقدات.

وسيلحظ الدارس أن مثل هذه الموضوعات لا بد أنها تتداخل كثيرا مع الأساطير والخرافات، وهي في الوقت نفسه تتداخل مع الأديان أيضا، وسيكون من أصعب المهمات أمام الباحث الفصل بين ما هو ديني وبين ما هو إعتقادي نظرا للتراكمات الكبيرة في هذه الأعتقادات أولا، ثم نظرا لأن المجتمعات إعتادت الحفاظ على معتقداتها الدينية محاولة إلباسها لبوسا دينيا يتوافق مع الدين السائد بالقدر الممكن بالرغم من الطابع (اللامعقول) لهذه المعتقدات.

ومن الصعب أن نحصر مظاهر اللامعقول في الثقافة العربية، فهي تأخذ شكل اساطير ومعتقدات وممارسات سحرية، وموضوعاتها هي موضوعات الحياة الانسانية كلها: الولادة والختان والزواج والحمل والجنس وتربية الاطفال ومراحل العمر، والصحة والمرض والحياة والموت، والروح والجسد، والحيوان والنبات والطيور والحشرات والجمادات، والزمان والمكان، والظواهر الطبيعية من برق ورعد ومطر وزلازل وعواصف، والشقاء والسعادة والأزل والأبد، ويمكن لأي منا أن يسترجع عددا كبيرا من الأساطير التي عرفها في حياته(١٧).

عاشرا- الملل والأقوام وأنسابها :

يدرس علم الإنسان (الأنثروبولوجي) الإنسان من جميع جوانبه الفيزيقية، والسيكولوجية، والاجتماعية، وهو يركز على الدراسة المقارنة للمجتمعات الإنسانية، وقد وصل التطور فيه إلى حد التفرع إلى العديد من الفروع التي يركز كل منها على جانب رئيسي لجوانب الحياة البشرية.

وتشكل دراسة الأقوام والملل والجماعات الصغيرة والكبيرة، موضوعا رئيسيا من هذه المواضيع، وهي من الاتساع لدرجة يصعب حصرها، فمن دراسة الأصول

العرقية للجماعات، إلى دراسة الأبنية الاجتماعية والثقافية لها، إلى غير ذلك من المسائل التي لا تنضوي تحت أي علم آخر من العلوم الإنسانية.

فدراسة نسب العشائر والقبائل الذي يلقى رواجا في المجتمعات العربية هي جزء من هذا الحقل الواسع، ويتصل أيضا بحقول أخرى، والدراسات حول جماعات الغجر أو النور المتنقلة قد يندرج في هذا الحقل أكثر من غيره من الحقول.

ويندرج في هذا الحقل أيضا دراسة الجماعات الفرعية المذهبية أو الفكرية – الثقافية في المجتمعات البائدة أو القائمة، ومن ذلك مثلا دراسة الأصول العربية لبعض القبائل الافريقية (أو دراسة) الأصول الأثنية لطائفة السامريين في اليهودية أو أنساب العشائر العربية في المغرب العربي.

ويبدو أن المشكلة الأكبر في نطاق داسات أنساب العشائر والقبائل العربية يتأتى من قيام الكثير من الباحثين وكتاب الأنساب بمحاولة (تحسين صورة) العشيرة التي يكتب تاريخها أو نسبها، فقد أصبح إرجاع ذلك النسب إلى الجزيرة العربية هو الهدف النهائي لبعض هؤلاء الكتاب، وغالبا ما يتجاهل هؤلاء سلاسل النسب (شجرة النسب) بالأكتفاء بتشابه الأسماء والمسميات التي لا تغني عن الحقيقة شيئا.

ويقع البعض الآخر في مشكلات أخرى منها الاعتماد على ما يعتقده الناس حول أنسابهم فقط، إن الاستناد إلى الروايات الشفوية في هذا الباب أمر لا بد منه، لكنه لا يكفي لحسم الحقيقة أولا، وهو لا يغني عن استخدام القرائن الأخرى في هذا الباب كاللهجة مثلا، أو بعض الاعتقادات والعادات والرواسب اللغوية.. إلخ.

وكان بعض الباحثين الرواد في هذا الحقل قد أشاروا إلى بعض هذه المشكلات، فمن المهم عند التعامل مع مصادر من هذا النوع أن نستنتج بسرعة ما إذا كانت هذه المصادر قد شكلت ونظمت، أو اخترعت ولفقت بهدف الدعاية أو بهدف تقديم سير ذاتية [١٨].

حادي عشر- اللغات واللهجات البائدة والمحكية :

من المعلوم أن معظم اللغات المعروفة تتصف بصفات مشتركة وعامة منها، أن هذه اللغات عرضة للتغير والنمو والتطور مثلما يتطور الكائن الحي، بل وأنها أيضا تخضع لقانون الموت، أي إنها خضعت قبل ذلك لقانون الولادة والنمو، وهي أيضا تعيش بوجهين، أو كأنها تعيش بشخصيات مزدوجة، فمنها ما يستخدم للحديث العام واليومي، ومنها ما لا يصح استخدامه إلا في الأدب الخاص أو المعاملات الرسمية أو التعبد والصلاة، والعكس بالعكس، فإن التراكيب التي تستخدم في الكتابة الرسمية، لا تعترف بالكثير من التراكيب والمفردات والصيغ التي يستخدمها الناس في حيواتهم اليومية، وثمة حقائق أخرى كثيرة حول اللغات(*).

واللهجات الدارجة، مثلما اللغات الرسمية، تتضمن الكثير من مفردات اللغات واللهجات الأخرى، ومن هذه المفردات (بقايا) اللغات البائدة، كمفردات اللهجات الكنعانية في لهجة الفلسطينيين أو في اللغة العبرية، ومن أمثل ذلك (كلمة بعل) وهي أسم لأله الطقس الكنعاني (بعل)، فنفس الكلمة صارت تعني (الزراعات التي تعتمد على مياه الأمطار) وذلك في معظم اللهجات المحكية مثلما في الفصحى أيضا، وهي تعني في العربية القديمة (الزوج) وهذا المعنى ليس بعيدا عما ثبت في العبرية – التي اخذت الكثير من الكنعانية والآرامية والعربية أخيرا – صارت تعني (الزوج – او رب البيت – رب العمل). . وثمة قدرا كبير من المفردات العربية في اللغة الفارسية القديمة

* – ومن ذلك مثلا قلب الحروف وإبدالها أثناء الحديث، فعبارة " عبد القادر يبحث قضايا في حقل التراث " تصبح " عبد الأدر يبحس أضايا في حأل التراس " في لهجة الكثيرين من أهل المدن في بلاد الشام، أما لو قال أحد الفلسطينيين من قرى شمال الضفة الغربية العبارة نفسها لتحولت إلى " عبد الكادر يبحث في كظايا في حكل التراث " بينما في قرى أخرى " الخليل مثلا، يكاد اللفظ متطابقا مع اللفظ الفصيح، من حيث عدم إبدال ألفاظ الحروف، فتلفظ كالتالي " عبد القادر يبحث في قظايا في حقل التراث " (مع تخفيف حرف القاف وإبدال الضاد ظاء). وقد عرفت اللهجات العربية منذ القدم وحتى اليوم الكثير من الظواهر التي يجري فيها إبدال الحروف المرسومة بحروف منطوقة بديلة، ومن ذلك ظواهر : الكشكشة والقطعة أو الترخيم، والإمالة والعنعنة.

(الإيرانية) بحيث لا يسهل حصرها ويمكن الأطلاع على ذلك من خلال أحد المعاجم، ومثل ذلك أيضا في اللغة الأسبانية وبعض اللغات الأفريقية والإنجليزية. وبالمقابل فقد أخذت العربية الكثير أيضا من هذه اللغات الجارة أو الشقيقة.

كذلك تبين أن في لغتنا العربية المستخدمة حاليا في الأدب أو في الكلام اليومي الكثير من المفردات القبطية القديمة ومنها (مدمس، ياما ومعناها كثير، شوب ومعناها حار، إمبو ومعناها شرب أو ماء، ومم ومعناها أكل، والبرسيم، وفوطة وهي المنشفة، وواوا أي الألم والوجع، ودبش وهو الطوب الصغير او الحجارة الصغيرة غير المنحوتة، والشونة والفاس والطورية والبعبع والواحة والكخ... إلخ [١٩](*)

وبعض المفردات المستخدمة حاليا مفردات حية من هذه اللغة انتقلت إلى تلك اللغة، كالمفردات الفرنسية في اللهجات المغربية أو اللبنانية (ميرسي وبنجور وبنسوار وأورفوار وغيرها الكثير)، أو المفردات الصينية في اللغة اليابانية والكورية والفيتنامية أو المفردات الأنجليزية في العربية أو العكس، كذلك الكثير من المفردات العربية في اللغة الاسبانية التي انتقلت عن طريق الوجود العربي في الأندلس، وبعض اللغات تتضمن مفردات لا يعرف لها أصل في أصولها النحوية، فاعتبرتها " أعجمية " مثلما هو في اللغة العربية أو اللغة الإيطالية أو في الإنجليزية التي أكد أحد البحوث أنها أستعارت من العربية أكثر من عشرة آلاف مفردة.(**)

وبعض اللغات استعارت حروف الكتابة من اللغات الأخرى مثلما فعلت الفارسية والتركية من العربية والكثير من اللغات الآسيوية أو مثلما فعلت اليابانية من اللغة الصينية.

---

* – من ذلك (اتون، أرز، بور، السبت، كفر بمعنى القرية، بطيخ، بلوطة، بطة، بركة، توت، خابية، حص، دجال بمعنى كذاب، زفت بمعنى القار، زنار، المكس بمعنى الضرائب، الكورة بمعنى البقعة التي تجتمع فيها عدة قرى، ناعورة، دولاب، يم بمعنى البحر، المجدل، قس، الشماس بمعنى المعاون وهو دون القس مرتبة في المسيحية، الدير بمعنى المسكن ولا سيما الحصن، مار بمعنى السيد والشفيع والرب.

** – أنظر : د. سليمان أبو غوش، عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربي، ط ١ (الكويت – ١٩٧٧).

وفي عالم اللغات واللهجات المحكية أو البائدة الكثير من محاور البحث والدراسة، ومنها الكثير مما هو عصي على التفسير حتى الآن، وهو بحاجة إلى تضافر الكثير من العلوم لتفسير الكثير من التساؤلات بشأن العديد من تلك المحاور. ومنها علوم الآثار حيث البحث في اللقى والبقايا من النقوش والأدوات، وعلوم الكتابة حيث تحليل النقوش وتفسيرها، والتاريخ بما يقوم به من تحديد للملامح المكانية والزمانية للحضارات.. إلخ.

ولذلك، فقد شكلت اللغة ميدانا للكثير من العلوم، فمنها ما يبحث في القواعد والتراكيب والمفردات (البناء) Structure، وهو علم اللغة العام، وثمة اتجاه حديث ناشئ بات يعرف بعلم اللغة الاجتماعي، وهو علم اللغة الذي يهتم جدا بالسياقات الاجتماعية Social context التي تكتسب فيها اللغة وتستخدم، إن مهمة علم اللغة العام، حسب هذا الرأي الشائع، هي اكتشاف وتحديد قواعد أية لغة حتى يستطيع علماء علم اللغة الاجتماعي بعد ذلك أن يدرسوا نقاط هذه القواعد بالمجتمع كما يحدث مثلا عندما يكون هناك عدد من بدائل التعبير اللغوي التي تستخدمها المجموعات الاجتماعية المختلفة للتعبير عن شئ واحد. إلا أن دراسة الكلام دون الرجوع إلى المجتمع الذي يتحدث به هو استبعاد لاحتمالات وجود تفسيرات اجتماعية للأبنية والصيغ المستخدمة في الكلام. [٣٠]

ويتوزع الاهتمام بدراسة اللغة على قدر كبير من العلوم والأمر المهم في أمر اللغة، هو ضرورة أن يكون الباحث الفولكلوري ملما بلغة المجتمع الذي يبحث فيه، وهذا الألمام يتعدى مسالة التدبر اليومي والتخاطب مع الناس وقراءة كتاباتهم، إذ يفترض أن يكون الباحث ملما بأسرار اللغة من أصول الأشتقاق وصيغ البلاغة وفنونها من التورية والأستعارات والكنايات...إلخ. فاللغة هي الوعاء الذي يتضمن التراث، ولا يمكن فهم هذا التراث وسبر أغواره قبل التمكن من اللغة.

وعلى الرغم من الكثرة الكاثرة من العلوم التي تهتم بالجوانب والأبعاد المختلفة للغات واللهجات وعناصرها وعلاقاتها المختلفة، فإن جوانب أو محاور أخرى من اللغات واللهجات لا تزال خارج نطاق اهتمام تلك العلوم، مع القدر الكبير من التعاون

والتقاطع بينها، وذلك الجزء المهمل هو ما يهتم به علم الفولكلور، وخصوصا الحقل المتعلق باللهجات.

ومن الأمثلة على الموضوعات التي يمكن ان يدرسها فولكلور اللهجات مثلا (الآثار الآرامية في لهجات بلاد الشام) أو (صيغ التحية في اللهجات الأردنية) أو (الأسم والكناية في المجتمع العراقي) أو (التمويه اللفظي في المواويل اللبنانية) أو (الصيغ اللغوية المكروهة والممنوعة في لهجة قرية عربية مسيحية) أو (المتشابه والمختلف في لهجات القرى الفلسطينية) أو (أثر الأمثال القرآنية في وحدة الموروث الشعبي للأمثال العربية)... إلخ

والمهم في أمر الدراسة الفولكلورية للتراث هو أن تأتي هذه الدراسات في السياق الثقافي – الاجتماعي والتاريخي للمجتمع، بمعنى أن يكون لها اطارها العام. وبالرغم من أن خلق هذا الإطار، أو توضيح السياق العام هو من مهمات العلماء وكبار الباحثين المتخصصين، فإن بوسع الباحث الفولكلوري، المساهمة الفاعلة في ذلك، من خلال توفير الدراسات الوصفية والتاريخية، الكمية والنوعية، وتلك خطوة أساسية في الطريق الطويل.

ومثلما أشرنا قبل قليل، فإن الدارسين الغربيين قطعوا أشواطا كبيرة في مجال الدراسات اللغوية الأنثروبولوجية، فيما بقي محيطنا العربي بكرا على هذا الحقل من الدراسة، ويعود ذلك – ربما – إلى أن اهتمام الفولكلوريين العرب انصب أكثر على الجوانب الأدبية منه على الجوانب الأجتماعية والثقافية، وقبل ذلك كان المثقف العربي حذرا إزاء التعامل مع اللهجات المحكية كموضوع ثقافي وبحثي كي لا يلتصق به الإتهام بمناصرة اللهجات المحلية والإقليمية على حساب اللغة الفصحى(٢١).

ثاني عشر- الفلك والتنجيم وقراءة الطالع والحظ :

اهتم الإنسان البدائي بالظواهر الكونية والطبيعية اهتماما كبيرا نظرا لارتباطه المباشر بالظواهر الكونية الطبيعية التي كانت تثير لديه التساؤلات والخواطر والمشاعر، وقد بنت المجتمعات الأولى منظومات من الأفكار والمعتقدات التي تفسر

هذه الظواهر الكونية وتحدد الأساليب المناسبة للتعامل معها، سواء لتجنب "غضبها" أو أضرارها، أو لتحقيق الفائدة من وراء ذلك كتوجيه الأدعية لها وللآلهه بشفاء المرضى أو زيادة المحاصيل الزراعية وغير ذلك من متطلبات تلك المجتمعات.

ومع أن الفلك أصبح علما متقدما منذ أزمان بعيدة، من خلال ملاحظة حركة الأفلاك والنجوم والكواكب واستخلاص الكثير من القوانين من وراء ذلك، إلا أن تراثا كبيرا من الأفكار والمعتقدات ظل على حاله في إضفاء عوالم غيبية وسحرية على الظواهر الكونية، وربطت ذلك إما برغبة الألهة أو برغبة أو حاجة الناس أو المخلوقات الأخرى. فالكسوف أو الخسوف – الذي يؤكد العلم الحديث على كونهما ظواهر علمية طبيعية – قد ترتبطان برغبة الشياطين أو الأرواح الشريرة مثلما يحدث في الكثير من المناطق الأفريقية، وكسوف الشمس قد يكون نوعا من الحزن الذي تظهره الشمس لموت شخص عزيز مثلما اعتقد بعض العرب في عصر الجاهلية وحتى وقتنا هذا ربما، وكذلك هزيم الرعد ولمعان البرق وسقوط الشهب والنيازك.

وتتسع المعتقدات الفلكية لتشمل حركة النجوم والكواكب، فتبنى الخرافات والأساطير أو المعتقدات التي تحاول إيجاد تفسير لكل الظواهر الطبيعية من سقوط المطر أو إنحباسه أو من الفيضانات والزلازل والبراكين وغير ذلك من الظواهر. فتربط هذه المعتقدات بين نشوء حركات الأجرام السماوية وبين حياة الناس على الأرض، فكثير من حظوظ الناس أو مرضهم أو سوء عاقبتهم أو فشل زواجهم أو جفاف محاصيلهم الزراعية ما هو إلا نتيجة لبعض الظواهر الكونية وخصوصا حركة النجوم.

وقد كان للعرب – كغيرهم من الشعوب – الكثير من المعتقدات المتعلقة بالفلك والتنجيم، وعرف عنهم ولعهم بقراءة الطالع (التنبؤ بالمستقبل) وكان لهم العديد من الأساليب والفنون في ذلك، كقراءة الكف، أو الضرب في الرمل والودع، ومنها قراءة الفنجان ولا يزال شـــائعا بينهم حتى الآن على الرغم من نهي الدين بقوة. فيما عرفت بعض الشعوب الأفريقية قراءة الطالع من خلال تفحص أحشاء الحيوانات المذبوحة وغير ذلك من الأساليب.

أما التنجيم، فهو لا يزال شائعا في المجتمعات العربية وغير العربية، وتلاقي كتب التنجيم التي تظهر في بداية كل عام رواجا لا تلاقيه أشهر الكتب العلمية والأدبية، وتحتفي وسائل الإعلام المختلفة بالمنجمين وأخبارهم وتوقعاتهم للسنة الجديدة، لا بل إن بعض المعاهد افتتحت لتعليم التنجيم في بعض الدول الغربية، مما يشير لدرجة الاعتقاد القوي بالتنجيم وقراءة الحظ والتنبؤ بمستقبل الغيب الذي جاء الدين الأسلامي ونهى عنه.

ومهما يكن من أمر، فإن على الفولكلوري دراسة هذه الظاهرة أيضا من جوانبها المتعددة بصرف النظر عن صحتها وعدم صحتها، والهدف الرئيسي لمثل هذه الدراسة يجب أن يحاول استشراف الدلالات الثقافية أو النفسية لمثل هذا السلوك.

ثالث عشر – الآثار الفولكلورية :

وقد أشرنا في مناقشة التعريف إلى موقف الباحث من هذا الأمر وتصنيفه بالنسبة للموضوعات والقضايا الفولكلورية، فهو الجانب المادي من الفولكلور، ودراسته تعتبر أمرا لا مفر منه للفولكلوري، إذ أنه وثيق الصلة بموضوعات الفولكلور اللامادية، وهو لا يدخل في نطاق أي علم آخر بخلاف معظم موضوعات الفولكلور، حتى علم الآثار (Archaeology) لا يعترف بهذه البقايا والرواسب، وعلى الرغم من اتصال علم الآثار بالانثروبولوجيا من خلال دراسته للخصائص الفيزيقية والتشريحية، والثقافية للشعوب القديمة، وشعوب ما قبل التاريخ، لكنه لا يهتم بالآثار الفولكلورية باعتبار معظمها "مصنوعات فردية " Artifac "، وهي علاوة على ذلك حديثة نسبيا، وبعضها لا يزال في طور الاستخدام والحياة.

ودراسة هذا الحقل من الفولكلور، لا تزال مجالا بكرا للدارسين وللمناهج أيضا، والفكرة الأساسية في دراستها هي أنها لا تدرس لذاتها، بل تدرس كموضوعات مكملة للجانب اللامادي في التراث، ويجب ان تعطى إهتماما أكبر في دراسة عمليات إنتاجها أيضا من مختلف الأبعاد الاجتماعية والفنية والتصنيعية والاعتقادية.. إلخ.

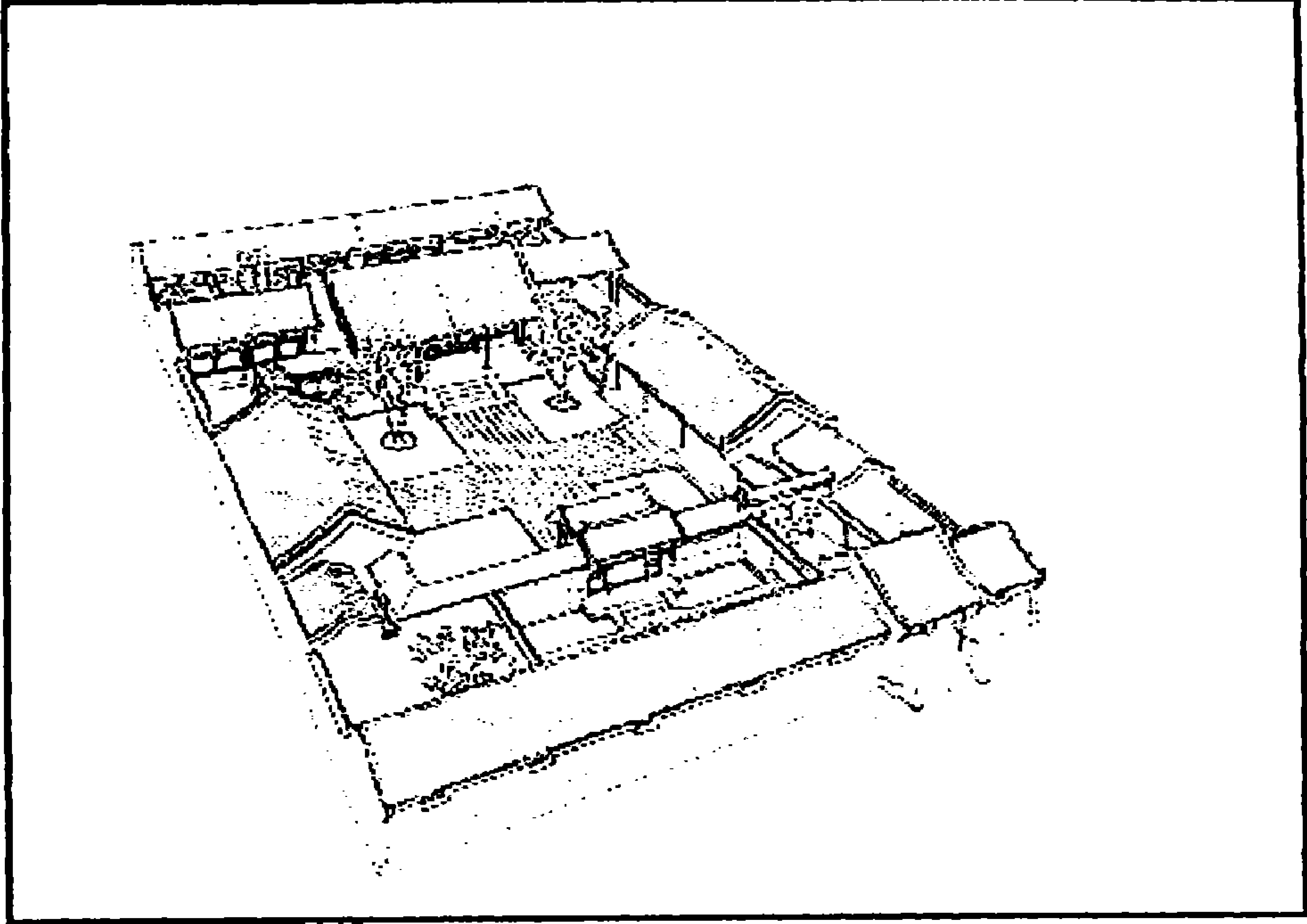
رابع عشر – أبواب اخرى وآراء متنوعة :

فليس من السهل حصر كافة المجالات أو الأبواب التي يهتم بها الفولكلور نظرا لاختلاف وجهات النظر من باحث لآخر ومن مجتمع لآخر، والمشكلة الأساسية تكمن في الحياة نفسها مثلما أشرنا غير مرة، فالحياة واسعة ومتجددة ومتشابكة ومتنوعة، وثمة أشكال وتعبيرات قد توجد في هذا المجتمع ولا توجد في ذاك من مثل مهرجانات الشوارع والميادين التي يندر وجودها في المجتمعات العربية.

وفيما يلي طائفة متنوعة من الموضوعات والحقول التي يتعاطى معها الفولكلور :

١٤ – ١ – الأنماط المعمارية:

وفي هذا الباب يمكن للباحث مثلا دراسة الأنماط المعمارية الهندسية والجمالية للبناء، وفي هذه الحالة يفترض فيه أن يكون ملما بما يكفي من مبادىء الهندسة المعمارية جنبا إلى جنب مع الأحوال الاجتماعية – الثقافية – الاقتصادية للمجتمع، ووصف الأشكال العمرانية لا بد وأن ينبئنا بشيء عن طبيعة الحياة الاجتماعية للمجتمع في ذلك الحين، وهو سينبئنا عن طريقة العيش والتفكير أيضا بما في ذلك المعتقدات والعادات والتقاليد.. الخ، والأنماط المعمارية لا بد أن تشكل لنا محطات تاريخية نستند إليها، إذ أنها شواهد صادقة من هذه الناحية، إذ أن لكل مرحلة زمنية أنماطها العمرانية والفنية وخاماتها. وقد يكون من المفيد وصف العادات والتقاليد والمعتقدات والمراسم المتعلقة بعملية البناء نفسها ودراستها، حيث تمارس بعض المجتمعات بعض الطقوس في كل أدوار البناء من وضع الأساسات مرورا وحتى السقف إلى أن تنتقل الأسرة للعيش في المنزل الجديد.



الباحث الفولكلوري في ميدان الفنون المعمارية، يتوجب عليه الاستعانة بخبراء الرسم والمهندسين

١٤ – ٢ – المهن والحرف:

ومن مجالات الاهتمام المختلف عليها أيضا الأنماط والعادات الزراعية والحرفية المختلفة، وقد لاقى هذا الحقل اهتماما لا بأس به من الدراسات في بعض المجتمعات، ويمكن دراسة جوانب عديدة من هذا الحقل باعتباره منظومات متنوعة من العلاقات الإنتاجية والاجتماعية والحاجات الثقافية – الاجتماعية الاقتصادية.

١٤ – ٣ – الملابس والحياكة والتطريز:

ويعمد بعض الباحثين إلى اعتبار الملابس نمطا مستقلا من أنماط الفنون الشعبية، وله خصوصياته التي يتميز بها عن الفنون الشعبية من حيث هي حاجة أولا، وقد يجري ذلك المجرى على أدوات العمل للمهن المختلفة كمهنة النجارة أو الدباغة أو الحياكة أو غير ذلك.

واللباس الشعبي يمتاز عن كونه مهنة أو صناعة بكونه فنا من ناحية، وبكونه تعبيرا دينيا أو اعتقاديا أو طبقيا أو إقليميا في جانب آخر.

ومن الجدير ذكره أن اللباس الشعبي الفلسطيني من أكثر الميادين ثراء بفنونه ورموزه وأشكاله. ومن المرجح أن الكثير من الرسومات والأنماط الفنية في الثياب النسائية يحمل الكثير من عناصر الثقافات القديمة وخصوصا الكنعانية. ودراسة اللباس والملابس هي في الحقيقة محط اهتمام بعض العلوم الأخرى ومنها علم النفس الاجتماعي لما لها من معان ورموز ووظائف أخرى خلاف الستر والحماية، فهي أدوات للزينة وهي انعكاس للشخصية وتعبير ثقافي كذلك. وباعتبارها أيضا فنا فقد كانت محط اهتمام بعض الفنانين وخصوصا فيما يتعلق بالرسومات والمطرزات خصوصا.

وأعتقد أن اهتمام الفولكلور في اللباس أمر مهم وضروري نظرا لما يختزنه اللباس من فنون وقيم وعادات وتقاليد. فالتطريز الفلسطيني يتضمن أشكالا ورسومات في غاية الروعة، وهي تتمايز من منطقة إلى أخرى، وتكاد تتميز كل منطقة بنمط محدد ومتنوع من اللباس، فالثوب التلحمي والخليلي والسبعاوي والصفدي والنابلسي والدجاني ..إلخ. وكذلك بالنسبة للباس الرجال والأولاد، ويتصل باللباس المطرزات المتعددة الأشكال والوظائف مثل "البراويز" التي تعتبر لوحات فنية رائعة، ومنها المعلقات والوسائد والشراشف والملاءات وأكياس الملاعق وكيس الأمشاط...ألخ.

ومن المفيد، مثلا تتبع التطورات والتجديدات في نطاق اللباس عموما أو التطريز خصوصا في غضون النصف الثاني من القرن العشرين، وهنا يستلزم الباحث العودة إلى أنماط التطريز القديم (ربما في النصف الأول من القرن العشرين) ودراسته، ثم يقوم بعد ذلك بمعرفة التجديديات والتطورات التي طرأت عليه، وربما تحليل أشكال التجديد وعوامله بتتبع مصادره الأصيلة أو المحتملة.





لا ينتقل التراث المادي وغير المادي عبر الآجيال، دون أن يتعرض للتعديل

هوامش الفصل الثاني:

١ - احمد مرسي، ص ٩٤.

٢ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة ثائر ديب، ص ٨٠.

٣ - غريب محمد سيد أحمد ورفيقه، علم الاجتماع. ص ٥٩.

٤ - نمر سرحان، احياء التراث الشعبي، ص ٢٤

٥ - أحمد رشدي صالح، نفس المصدر، ص ١٠.

٦- عبد الحميد يونس، دفاعا عن الفولكلور. ص ١٣٧

٧ - روكس بن زائد الزيزي، معلمة التراث الأردني، الجزء الاول، عمان، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ١٩٨١, ٥٧٨ ص.

٨ - مثيولوجيا الأردن القديم، خزعل الماجدي، ص ٢٥.

٩ - المرجع السابق , ص ٣٢.

١٠ - جاك لومبار، مدخل إلى الاثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي. ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

او تيري أيجلتون، فكرة الثقافة، ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

١١ - المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، نخبة من أساتذة علم الأجتماع (جامعة الأسكندرية) (الأسكندرية - دار المعرفة الجامعية) ص ٣٨.

١٢ - علياء شكري وزملاءها، قراءات في علم الاجتماع، ص ٢٠٣.

١٣ - المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ١١٥

١٤ - الدكتور محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة (الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية) ١٩٨٧. ص ٥٣.

١٥ - يان فانيسنا، المأثورات الشفاهية، ترجمة احمد مرسي. ص ٨٤.

١٦ - يان فانيستا. المأثورات الشفاهية، ص ٩٠.

١٧ - نبيل علقم، الثقافة العربية والتجديد الاسلامي، ط ٢ (كاليفورنيا - المركز الاسلامي المستقل للدراسات والنشر، فلسطين - رام الله - مركز فلسطين للدراسات والنشر) ٢٠٠٢. ص ١١٢.

١٨ - مصطفي مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ١، ق ١، ص ٦١٢.

١٩ - الدباغ، نفس المصدر، ص ٥٣٢. نقلا عن محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا، القاهرة ١٩٥٦..

٢٠ - علم اللغة الاجتماعي، د. هدسن: ترجمة: د. محمود عبد الغني عياد، بغداد (وزارة الثقافة): دار الشؤون الثقافية العامة. ١٩٨٧. ص ١٩ - ٢٠.

٢١ - د. احمد محمد الضبيب، مترجم ومقدم ت. م. جونستون، دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ط ٢ (بيروت - الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٣) ص ١٥.

الفصل الثالث

أساليب جمع البيانات التراثية

(أما الذين يتخصصون في الجمع والتصنيف والعرض، فإن المبدأ الأول الذي ينبغي أن يعتصموا به، هو القدرة على تمييز المادة الشعبية من المادة المنحولة على الشعب، مع العلم بأساليب الجمع الميداني ومناهج التصنيف النوعي وإعداد الارشيف)

د. عبد الحميد يونس

تمهيد:

كنا قد استعرضنا في الفصلين السابقين تعريف الفولكلور وحدوده وبعض قضاياه المهمة إضافة إلى الموضوعات والحقول التي يتناولها الفولكلور، مما يجعلنا نفترض أن القارىء قد كون أفكارا كافية "لتمييز المادة الشعبية من المنحولة، التي أشار اليها القول السابق لرائد الفولكلور العربي د. عبد الحميد يونس. وها نحن نحاول من خلال هذا الفصل الإيفاء بالشق الثاني منه أو ببعض منه، على اعتبار أن القول يتضمن أكثر من أساليب الجمع الميداني التي سيركز عليها هذا الفصل.

فما هي أفضل الأساليب التي من خلالها نستطيع جمع البيانات التراثية ؟ وهل هناك وسيلة جمع أفضل من غيرها؟. وهل تتميز أساليب جمع البيانات الفولكلورية عنها في العلوم الاجتماعية الأخرى؟

في الحقيقة، إن أساليب جمع البيانات هي من أهم المهارات الواجب على الباحث والجامع إتقانها، والإتقان لا يعني إتقان استخدام الوسيلة وحسب، بل كذلك معرفة كيف ومتى ولماذا يستخدم هذه الوسيلة أو هذا الأسلوب.

وفيما يلي إستعراضا مفصلا لأساليب جمع البيانات وبعض التطبيقات ذات العلاقة بالفولكلور تخصيصا:

أولا – الاستبيان (Questionnaire):

ويقوم هذا الأسلوب على تحضير استبانة (استمارة) تتضمن عددا من الأسئلة تهدف إلى جمع بيانات ومعلومات محددة أو قياس اتجاهات وآراء حول موضوع معين ضمن مجتمع بحثي محدد.

غالبا ما يتم استخدام هذا الأسلوب من أساليب جمع البيانات لقياس القيم والاتجاهات والحقائق المتعلقة بالمبحوثين في العلوم الاجتماعية، وهو إما أن يعبأ من قبل الفرد المبحوث "المستجيب"، أو من قبل الباحث نفسه لغرض الحصول على بيانات إضافية يقدرها الباحث أثناء قيام المبحوث بالرد على أسئلة الاستبانة. وثمة سبب آخر يدعو إلى قيام الباحث نفسه بتعبئة الاستبانة يتمثل في كون المبحوثين ممن لا يجيدون القراءة والكتابة باللغة التي صممت فيها الاستمارة، فيما الطريقة الأولى تفترض قدرة المبحوث على الكتابة وأمانته النسبية في تعبئة الاستمارة.

وإذا كانت حدود الأستخبار "الاستمارة" مرتبطة بخصائص عينة البحث، فقيمته العلمية مرتبطة بمهارة من قام بإعداده، ومراعاته لكافة شروطه المنهجية في صياغة الأسئلة والثبات والصدق وما إلى ذلك، بالإضافة إلى مفهومات الدراسة وانطلاقها النظري الواضح[٢].

ويستخدم اسلوب الاستمارة في العلوم الاجتماعية وفق منهجية وفرضيات محددة أقتضتها حيثيات البحث وموضوعه وطبيعة العينة أو مجتمع الدراسة محط الاهتمام. فقد يكون مجتمع البحث هذا فئة من الناس، كالصيادين مثلا، أو شريحة الصيادين الذين يزاولون المهنة منذ عشر سنوات فما فوق، وهذه المسائل يحددها الباحث وفق مقتضيات البحث والموضوع.

ومجتمع البحث هذا قد يصغر أو يكبر، فقد يكون قرية صغيرة أو جامعة أو طائفة أو قبيلة محددة، يهدف الاستبيان إلى جمع كل البيانات المتعلقة بموضوع أو موضوعات معينة في هذا المجتمع، كأن يكون مثلا "جمع الحكايات الشعبية" أو "الأغاني الشعبية" أو "الأمثال الشعبية " أو "قيم النساء اتجاه تنظيم النسل" أو اتجاهات

البدو الرحل نحو خطط الاستقرار "..إلخ من الموضوعات. وقد يكون مجتمع البحث مجتمعا أكبر من القرية ليشمل المجتمع بكامله ليصبح نوعا من المســح العام للبيانات مثلما فعلت بعض الدول الأوروبية مثل فنلندا، وكذلك إسرائيل التي لديها جهود شاملة لجمع التراث اليهودي في كثير من المناطق في العالم، مما نتج عنه جمع تراث الشعوب الأخرى وتقديمه باعتباره تراثا يهوديا. ولا يعني ذلك أن المسح لا يتم إلا باســتبانة دون غيرها، بل أن المسوح الشاملة والمهمة عادة ما تستخدم كل أساليب الجمع الممكنة من استبانة إلى المقابلات إلى التصوير بأنواعه والتسجيل على الأشرطة الممغنطة والوسائل الالكترونية الأخرى المتطورة يوما بعد يوم. وقد حاولت "لجنة التراث الشعبي "التابعة لجمعية إنعاش الأسرة – رام الله القيام بمثل هذه المسوحات في الثمانينيات من القرن المنصرم، وكذلك الدكتور شريف كناعنة في مركز أبحاث جامعة بيرزيت، غير أن الأمر – كما يبدو – يحتاج إلى جهود وإمكانات كبيرة على المستوى الوطني ماديا وبشريا ويحتاج إلى تعاون العديد من الجهات العلمية والإدارية ليكتب لها النجاح ولتكون شاملة بما يكفي لأن تنتج أرشيفا فولكلوريا شاملا.

وعلى كل حال، فإن الاستمارة هي أسلوب مهم للجمع والمسح، والاستمارة في حالات جمع التراث وبياناته عادة ما تعتمد ليس على المستجيب وحسب، أي بمعنى أن الاستمارة يجب ان تعبأ بإشراف مباشر من قبل الباحث أو من ينوب عنه من المؤهلين لذلك، لأن تعبئة الاستمارة تحتاج إلى الكتابة بالطبع، أو الإجابات الإنشائية، مثل كتابة القصص أو الحكايات أو الأمثلة أو المعتقدات، وهذا الأمر لا يصح إلا بإشراف الباحث الذي سيقوم بتوضيح شروط واعتبارات الاستمارة للوصول إلى البيانات الصحيحة المطلوبة، ويقوم الباحث أيضا بقراءة الأسئلة من الاستمارة للمستجيبين ثم يقوم بتسجيل إجاباتهم في السطور المخصصة، وفي هذه الحالة تصبح الاستمارة من النوع المقنن أو ما يسمى بالمقابلة الشخصيةInterviewing schedule. أما الاستمارات التي يمكن للباحث توزيعها على المستجيبين دون أن يساهم بنفسه في تعبئتها ومراقبة ردود الفعل على الأسئلة فهي غالبا ما تهدف إلى جمع بيانات أو إجابات مختصرة وبسيطة من قبل

شريحة متعلمة ومتماثله إلى حد كبير، وأعتقد أن مثل هذه العينات في المجال الفولكلوري ضعيفة القيمة ولا يركن إلى نتائجها كثيرا، ولذلك فأن أسئلتها تصاغ بشكل محدد (أسئلة مغلقة) تتوقع إجابات محددة، من مثل "هل تعتقد بوجود الجن – نعم / لا، ومن ذلك، ما هي الأمثال الشعبية التي تعرفها (أذكرها حسب الأهمية أو حسب كثرة الاستعمال)، ومن ذلك مثلا: اذكر الأغاني الشعبية التي تسمعها أو تحفظها؟ وكيف حفظت هذه الأغاني؟ متى سمعتها آخر مرة؟ هل تعتقد بوجود الأرواح في الحياة البشرية ؟ هل سبق أن تعرضت لحادث يؤكد وجود الأرواح أو الجان أو الأشباح ؟

وعادة ما توضع لهذه الأسئلة إجابات محددة كما يلي: ١- نعم، ٢ – أحيانا، إلى حد ما، ٣ – نادرا أو قليلا، ٤ – لا.

ومن الممكن أن تكون الأسئلة من النوع الإنشائي أو المفتوح، مثل: اذكر ما تعرفه عن الجان (مما حدث معك أو مع من تعرف)؟ ما هي العادات المتبعة في مناسبات ختان الأطفال أثناء فترة طفولتك؟

ومن الملاحظ أن كلا النوعين من الأسئلة المغلقة والإنشائية (المفتوحة) في موضوعات الفولكلور تشوبها الكثير من الشوائب، إذ إن الإجابة عليها تحتاج إلى قدرات ومهارات نادرا ما تتوافر لعامة الناس وخصوصا أولئك حملة التراث الشعبي النقي، فمعظم هؤلاء أميون أو بالكاد يحسنون فك الحرف مثلما يقال، ثم إن الباحث لن يضمن تسلل معارف آخرين وتأثيراتهم أثناء اجابة الأسئلة وخصوصا الإنشائية منها، وهكذا فإن الباحث سيكون مضطرا للإشراف على تعبئة الاستمارة إذا ما رغب في الحصول على أفضل البيانات وأدقها، وبهذه الحالة سيكون قد استخدم أسلوب المقابلة المقننة بالاستمارة، وعليه تقع مسؤولية الأيفاء بمتطلبات الاستمارة وتدقيق الإجابات وضبطها.

ومهما يكن من نوع الأسئلة التي تتضمنها الاستبانة، أكانت أسئلة إنشائية (مفترحة) أو أسئلة مغلقة (اي إجاباتها محددة سلفا)، فإن الباحث واستنادا إلى نوعية الناس المستهدفين (المستجيبين) وموضوع بحثه كذلك هو الذي بامكانه تصميم أسئلته وترتيبها بما يخدم أغراضه.

القواعد المنهجية لبناء الأستمارة:

يعتبر إعداد الاستمارة أهم مرحلة من مراحل العمل فيها، لأن الكثير من نتائج هذا العمل ستتوقف على طبيعة الأسئلة في الاستمارة بما في ذلك صيغتها وبناءها الكلي، ومع ذلك، فإنه يجدر القول أن موضوعات التراث الشعبي تتراوح في صعوبة التحضير لها بالاستمارات ما بين البسيطة جدا والمعقدة جدا وما بينهما، وفي كل الأحوال يحتاج تصميم الاستمارة إلى خبرة ومراس كبيرين لإنجاز هذا الهدف، ويتطلب ايضا الانتباه لبعض القواعد المنهجية نلخصها فيما يلي(٤).

١ – تحديد إطار البحث وأهدافه:

في هذه المرحلة الأبتدائية يتساءل الباحث عن حدود موضوعه، أي عن الجوانب والأغراض التي يتطرق إليها، فإذا ما قام بتحديد خطوطها العريضة، كأن يكون مثلا جمع الآداب الشعبية في مجتمع البحث (ص) وخصائص الرواة، في هذه الحالة فإن الغرض هو جمع معلومات من نوعين: النوع الأول ما تعلق بالرواة: العمر، الجنس، المهنة، مكان الولادة، مكان الطفولة والشباب.. إلخ من البيانات التي تهم الباحث. أما النوع الثاني فهو ما تعلق بالآداب الشعبية نفسها، مثلا: الغناء والقصائد الشعرية، المواويل الغنائية، الحكايات القصيرة، الطرائف والنكات.. إلخ. وهكذا فإن الاستمارة تتكون من قسمين رئيسيين، وكل قسم يتكون من عدد الأسئلة التي تستهدف البيانات المحددة المشار إليها، أي يجب أن تكون الأسئلة معبرة عن الأهداف وفق ما نظمها الباحث في هذه المرحلة. وبالطبع يجب تجنب " الحمل الزائد " للأسئلة ما دامت خارج هذه الأهداف.

٢ – تصميم الجداول الخيالية: Dummy Tables

بعد قيام الباحث بتحديد إطار بحثه وتحديد أغراضه وأقسامه، يعمد إلى تصميم جداول خيالية أو إفتراضية لما يتوقعه من بيانات مقابل الأسئلة التي قام بطرحها في الاستمارة، وهنا على الباحث ان يعمل خياله العلمي – الواقعي بأن يتصور النتائج الفعلية المتوقع الحصول عليها في شكل جداول صماء قبل بدء البحث، وهذه المرحلة

ستساعد الباحث على تحديد نقاط الخلل في عمله وبالتالي تحسين عمله وسد ما يبرز من ثغرات.

٣ – تصميم الأسئلة:

في البداية، يفترض أن يكون الباحث قد قام فعلا بحصر البيانات التي يسعى للحصول عليها، وبناءا على ذلك يسهل تحديد الأسئلة ونوعيتها سواء كانت مفتوحة أو مغلقة أو مختلطة.

ونمط الأسئلة نوعين: المغلقة والمفتوحة، فأما المغلقة فهي الأسئلة التي يفترض الباحث إجاباتها وعلى المستجيب الاختيار منها، والمفتوحة تلك التي يتاح فيها للمبحوث وضع ما يراه مناسبا من إجابة وبيانات.

وبديهي أن طبيعة البحث وأهدافه وطبيعة المجتمع المبحوث هي أهم العوامل التي تقرر شكل الأسئلة ونمطها.

يجري تقسيم الأسئلة عادة وفق نوعيتها ووفق صيغتها كما يلي:

وفق نوعيتها فهي، أسئلة تتعلق بجمع الحقائق وأخرى تتعلق بكشف الاتجاهات وشدتها أو درجتها.

ومن النوع الأول: ما هو عمرك ؟ أين تسكن ؟ هل تحفظ شيئا من الحكايات الشعبية ؟ ممن عرفتها أو سمعتها ؟.. إلخ.

أما الأسئلة المتعلقة بالاتجاهات والآراء فهي تهدف إلى كشف معتقدات المبحوث عن النظام الاجتماعي أو السياسي الذي يعيش فيه المبحوث أو بكشف معتقداته وأفكاره الدينية والروحية أو معرفة انطباعاته ومواقفه إزاء بعض القوانين.. إلخ [٥]. وهذه الأسئلة هي الأصعب في وضعها أو وضع الإجابة عليها، وتحتاج إلى دقة ومراس وخبرة ومعرفة تامة بموضوع البحث، ومنها: ما هو رأيك بالقيم التي تطرحها الحكايات الشعبية ؟ ما هو موقفك من زيارة قبور الأولياء والصالحين؟ هل أنت ممن يترددون على المزارات ؟ كثيرا، نوعا ما، قليلا، لا أتردد نهائيا.

أما تقسيم الأسئلة حسب صيغتها، فهي أسئلة مغلقة وأسئلة مفتوحة. فالأسئلة المغلقة هي الأسئلة التي يحدد الباحث خيارات الإجابة لها، وهي عادة قصيرة وواضحة ومركزة، ومنها: هل تحفظ شيئا من الشعر الشعبي؟ نعم كثيرا، نعم قليلا، لا أحفظ شيئا.

أو أين تسكن؟ في منزل من الحجر، في منزل من الطين أو الطوب، في خيمة من الشعر، في خيمة من القماش العادي، في عريش من الحجارة وأغصان الشجر.

وألاسئلة المفتوحة، فكثيرا ما يحتاجها الباحث في العلوم الاجتماعية وفي علم النفس خصوصا، ويمكن استخدامها في الفولكلور أيضا، فهي تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من البيانات حول الظاهرة أو موضوع البحث، أو أنها تهدف إلى فهم التداعيات والعناصر الفكرية أو النفسية للمبحوث مثلما يجري في علم النفس أحيانا. ومن هذه الأسئلة: ما هو تقييمك لسياسات الحكومة الحالية؟ ما هو تقييمك لسياسات الإدارة في شركتك ؟ ما هي الأحلام التي يتكرر وقوعها لديك؟ ماذا تحفظ من الأمثال الشعبية ؟ ما هي أفضل الأشعار التي أعجبتك وتحفظها؟ اذكر الحوادث التي تعرفها عن عالم الأرواح والمردة والجن؟

٤ – تحكيم الأستمارة:

من المفيد جدا عرض الأستمارة على عدد من المختصين والخبراء قبل إقرار الصيغة النهائية لها، وعادة ما يكون عدد هؤلاء الخبراء المحكمين بين ٣ – ٥ أفراد، وقد يكونوا من أساتذة الجامعات في قسم علم الاجتماع أو غيره من الاقسام الاجتماعية والانسانية، وتأتي هذه الخطوة بعد أن يقوم الباحث بدراسة كل الاعتبارات ذات العلاقة بموضوع بحثه، فيقوم الباحث بصياغة إستمارته كما لو كان مستعدا لتطبيقها، ومن الممكن أن يكون قد سبق ذلك بتطبيقها على عينة صغيرة لتحسين صياغتها بأكبر قدر ممكن قبل عرضها على اللجنة المحكمة.

ومن المهم أن تبدأ الاستمارة بمقدمة توضيحية كافية ومختصرة عن موضوع البحث وحدوده وأهدافه وأساليبه المتبعة، ويشترط في هذه المقدمة الايجاز والتوضيح ايضا، إذ يفترض ان يتمكن المحكم من إستيعاب ما يهدف إليه الباحث والبحث من

خلال هذه المقدمة دون المزيد من الاسهاب، فالوقت لن يســمح للجميع لبذل الكثير من الوقت تطوعا لهذا الهدف..

يفترض أن تبدأ الاستمارة بالقول:

هذا البحث يندرج في نطاق البحوث التي يجريها مركز (...) في التراث الشعبي، أو رسالة لنيل درجة الماجستير كذا، ومجتمع البحث يشمل كذا وكذا ولا يشمل كذا وكذا من الموضوعات أو الوحدات الجغرافية أو الأجتماعية أو الموضوعية، وعينة البحث هي عينة عشوائية مثلا أو إنتقائية وعدد أفرادها المستهدف نحو مائة من المستجيبين، وهم من كبار السن أو من الفئات العمرية (كذا وكذا)، ولا تشترط في المستجيب إجادة القراءة والكتابة لأن الباحث ومساعديه ســيشرفون على تعبئتها بأنفسهم.

ويهدف البحث إلى جمع البيانات المتعلقة تحديدا بما يلي:

١ – عادات الزواج المتبعة في هذه القرية مثلا والقرى المجاورة.

٢ – الطقوس الرسمية وغير الرسمية المتبعة في مناسبات الأعراس بدءا من مراحلها الأولى وحتى اليوم الأخير (الزفاف أو إقراء المدعوين)

٣ – الأغاني الشعبية التي يغنيها الناس (رجالا فقط مثلا) في مثل هذه المناسبات.

٤ – دور الأطفال من الجنسين في هذه الأفراح، وخصوصا ما تعلق منها بالمراسم (كحمل الشموع مثلا، أو صب القهوة والماء للضيوف). والبحث سيعتمد على مجموعة من الوسائل للحصول من خلالها على البيانات المطلوبة. وهي التصوير، المقابلات، وأسلوب الاستمارة هذا الذي بين أيديكم الكريمة.

وإننا إذ نشكركم على استقطاع جزء من وقتكم للمساعدة في هذا البحث، فإننا نتمنى على حضراتكم التكرم بوضع الملاحظات التي ترونها مناسبة حول أسئلة الاستمارة ومدى قدرتها على تحقيق أهداف البحث المشار إليها.

واقبلوا فائق الاحترام

الباحث (....)

مرفق:

١ – الاستمارة.

٢ – شهادة من المركز أو الجامعة المشرفة على البحث.

٣ – مخطط البحث.

وبعد هذه الخطوة المهمة، فإن الباحث سيحصل على مجموعة من الملاحظات التي قد تتضمن اقتراحات وتعديلات لطبيعة الأسئلة وربما الأهداف، وعلى الباحث الاستفادة منها بالطبع، لكن عليه وحده تقع مسؤولية تثبيت ما يراه مناسبا، واستبعاد ما يراه منافيا لأغراض بحثه.

بعد هذه الخطوة، يفترض أن يقوم الباحث بإعادة صياغة أسئلته مرة أخرى، ثم يقوم باختيار عينة صغيرة مقاربة لأفراد عينته، وذلك بهدف اختبار استمارته مرة أخرى، ولذلك تسمى هذه العينة (عينة تجريبية)، وهنا يقوم الباحث بتطبيق الاستمارة كما لو أنه يطبقها فعلا على العينة الحقيقية أو على مجتمع البحث، وسيقف الباحث هنا على ملاحظات مفيدة جدا قد تدفعه لتغيير بعض أسئلته أو تعديل صياغاتها أو تفصيلها أكثر أو أقل، لأنه سيلاحظ استجابات المبحوثين وربما سيسمع منهم الاستحسان أو العكس، وقد يلمس بعض الاعتبارات الجديدة التي لم تدر في خلده أصلا، ومنها مقدار ما تحتاجه من وقت للتعبئة، وعليه أن يتحلى بالروح الرياضية في هذه المرحلة ليكون مستعدا للتعديل، لكن دون أن يظل مترددا متقلبا تأخذه الرياح فينسى أهدافه الأساسية.

وأثر تطبيق العينة التجريبية، يفترض في الباحث ان يكون قد استقر على الصيغة النهائية المرضية للاستمارته، وعليه الانطلاق إلى عمله حسب البرنامج المخطط سلفا لهذا الغرض، متسلحا بالإرادة القوية والعزم والثقة، وإن لزم الأمر فعليه تدريب مساعديه قبل البدء بالتطبيق بوقت كاف.

وأخيرا، فإن على الباحث الأخذ بعين الاعتبار أن ثمة محاذير أخرى غير التي ذكرت(*)، ويجب على الباحث الاستزادة في هذا الموضوع دائما، وخصوصا من تجارب الاخرين في هذا المضمار، وبعض المحاذير تتعلق بمجتمع البحث نفسه عموما، وببعض المبحوثين خصوصا، وبعضها يتعلق بالوقت أو الزمن الذي يجري فيه تطبيق الاستمارة، فبعض الأوقات أو المواسم لن تكون مناسبة للعمل، كأن يكون مثلا وقت انتخابات محلية أو عامة لها أهمية كبيرة في مجتمع البحث، أو كأن يكون الوقت متأخرا في الليل أو في الوقت الذي ينصرف فيه الناس إلى أعمالهم... وهكذا من الاعتبارات الأخرى.

شروط صياغة أسئلة الاستمارة الاستبيانية:

إن النجاح في صياغة الأسئلة في الاستمارة هي الإجراء الأساسي في إعداد الاستمارة وربما في البحث عموما، فبناء على هذه الأسئلة تتحدد البيانات التي هي بيانات البحث التي من خلالها يستخلص الباحث نتائجه الرئيسية، ولذلك، فإن صياغة الاسئلة تحتاج إلى مهارة عالية وعدد من الشروط، أهمها: (٣)

١ – ينبغي أن تكون الأسئلة الاستبيانية متعلقة بموضوع البحث ولا تخرج عن إطاره ومضامينه العلمية بأية صورة من الصور.

وذلك كأن توضع أسئلة شخصية لا ضرورة لها أو أن توضع أسئلة لا تمت إلى موضوع البحث بصلة.

٢ – يجب أن يكون عدد الأسئلة المطروحة في الاستبانة معقولا ومشجعا للمبحوث على التعاون مع الباحث.

* – من ذلك مثلا مقياس صدق الاختبار Validity ومعناه أن يقوم الاختبار – الاستمارة بقياس ما وضعت لقياسه . ومنها أيضا مقياس الثبات Reliability وهو مقياس معني بقياس ثبات البيانات أو المؤشرات التي تعكسها نتائج الاستبيان في كل مرة يطبق فيها على مجتمع البحث نفسه . ومنها أيضا تصميم الجداول الرمزية Code Tables للإجابات التي ستكون ضرورية لتفريغ بيانات الاستمارة آليا بواسطة الحواسيب. ويجب على الباحث العودة إلى المراجع الإحصائية واساليب البحث العلمي في هذا المضمار للإستزادة.

ويجب على الباحث احتساب معدل الوقت اللازم للمبحوث لإجابة الأسئلة، وهذا يعني أن عدد الأسئلة ليس هو العامل الحاسم بقدر ما يكون ذلك مرتبطا بالوقت الذي تحتاجه إجابة هذه الأسئلة. وفي اعتقادي أن الحد الأقصى اللازم لإجابة الأسئلة لا ينبغي أن يتجاوز نصف ساعة من الزمن، وكلما كان الوقت أقل كان المستجيب أكثر تعاونا.

٣ - يجب أن تكون الاستبانية خالية من المصطلحات الفنية والمفاهيم العلمية التي يتداولها العلماء المتخصصون.

ومن ذلك مصطلحات كالعائلة النووية، العائلة الممتدة، مجتمع البحث، العينة، الميول، الاتجاهات،.. إلخ. وإذا كان الباحث أحيانا مضطرا لاستخدام بعض هذه المصطلحات وجب عليه إيضاحها بين قوسين.

٤ - يجب أن تكون الاسئلة قصيرة ومركزة وواضحة وبعيدة عن الغموض والارتباك والتشويش. فمن شأن ذلك تشجيع المستجيب على التعاون.

٥ - يجب أن تكون الأسئلة الأستبيانية متصلة الواحد بالآخر اتصالا نظاميا وعقلانيا، وينبغي أن تكون متسلسلة تسلسلا علميا يعبر عن وحدة الموضوع واتساقه ومعبرة عن افكاره ومضامينه واجزائه الكلية.

٦ - ينبغي صياغة الأسئلة لتكون محايدة، أي أنها لا توحي للمستجيب بإجابة معينة ولا تضغط عليه في هذا الاتجاه أو ذاك.

ومن ذلك ما يسمى بالأسئلة الضاغطة: هل تعتبر أن استخدام اللباس التقليدي دلالة للتخلف ؟ أو أنها دلالة للانتماء الوطني ؟

ومنها ما يسمى الأسئلة القيادية: هل تحب قراءة الصحف مثلما يفعل أغلب المثقفين ؟ أو هل ترفض اللباس التقليدي مثلما يفعل غالبية الناس ؟

فهذه جميعها أسئلة تستدرج المستجيب لاتجاهات معينة، وينبغي وضع صيغ محايدة بدلا منها: ما رأيك باستخدام اللباس التقليدي ؟ ما هو موقفك أو عادتك في قراءة الصحف؟

٧ – ينبغي صياغة الأسئلة بتراكيب وصيغ تناسب المستوى التعليمي والثقافي للمستجيبين.

فأحيانا ما يكون المستجيبون أطفالا أو شيوخا كبار السن، وأحيانا ما يكونون من المتعلمين تعليما عاليا، ووجب على الباحث صياغة أسئلته وفق مستوى مجتمع بحثه. أو بإمكانه اللجوء إلى الصيغة اللغوية المتوسطة المفهومة لجميع المستويات التعليمية. وهي الصياغة التي تتجنب التسطيح والإسفاف ثم لا تنحو إلى تقعير اللغة وتعقيد مفرداتها كالقول " مأسسة المجتمع " " المخيال الجماعي " " الضمير الجمعي " " التثاقف ".. إلخ.

٨ – تجنب طرح الأسئلة النظرية التي لم يجربها المبحوث على نفسه، كأن نسأل الفلاح عن سلبيات الصناعة الآلية، أو كأن نسأل عن الفروق بين الخرافة والحكاية الشعبية والأسطورة.. إلخ.

غير أننا نلفت الانتباه إلى أن الاستبانة هي أقل أساليب البحث والجمع استخداما في حقول الفولكلور، ويعود ذلك إلى أن معظم بيانات الفولكلور يحتاج إلى تسجيل خارجي، أي وصف وملاحظة، أو يحتاج إلى تحقيق عن طريق المقابلات التي تتضمن الحوار وطرح الأسئلة وإثارة الذاكرة، والرواة الأهم غالبا ما يكونون أميين لا يجيدون القراءة والكتابة، حتى وإن أجادوها كطلبة الجامعات مثلا أو المدرسين في المدارس، فإن نسبة كبيرة منهم سوف لن تدرك الاعتبارات المتبعة في مثل هذه الأبحاث، ولنأخذ مثلا جمع الحكاية الشعبية من خلال الاستمارة، فإن المستجيبين لا بد وأن يدخلوا شيئا من ثقافتهم الجديدة أو الرسمية عليها بقصد أو بغير قصد، وهذا مما سيكون مضرا لأهداف الباحث ومفسدا للنصوص الأصيلة للمادة، وغير ذلك من المشكلات التي عرفت عن الاستبانة.

ويجب التذكر دائما، أن استحضار النصوص التراثية، لا بد له من أجواء طبيعية قدر الامكان للحصول على نصوص بدون تكلف أو نقص أو زيادة، ويجب التذكر أن أغلب النصوص التراثية، وخصوصا الآداب التراثية، لا يتجلى فيها النص تماما بغير الجمهور المستمع أو المشارك. ومثل هذا الشرط لا يوفره أسلوب الاستبانة،

بل انه يضع المستجيب في أجواء نفسية واجتماعية ضاغطة تشبه أجواء الامتحانات أو الإفادات القضائية الرسمية. مما سيقلل من قيمة البيانات التي تم الحصول عليها من خلال الاستبانة.

ومن المؤكد أن الاستمارات المقننة، أي التي يشرف الباحث بنفسه على تعبئتها ستعكس بيانات ونتائج أفضل من تلك التي لا يشرف الباحث عليها وعلى تعبئتها، فهي في هذه الحالة أشبه بالمقابلة، وبوسع الباحث تقييم أهمية المعلومات ومصداقية المبحوث ومقدرته في حينه، وفوق ذلك فإنه يقوم بمحاورته وتوضيح بعض الجوانب الغامضة له أو يقوم بالأستفسار منه عن بعض البيانات أو الجوانب أو العبارات الغامضة في النص.

على أن الباحث يستطيع في كثير من الأحيان تجاوز العقبات التي يتضمنها اسلوب الاستمارة من خلال اتخاذ ما يكفي من الاحتياطات والاجراءات، ومن ذلك مثلا أنه يستطيع أن يجمع من خلال بعض الطلبة قصصا وحكايات يسمعونها من ذويهم، لكن أهم هذه الاحتياطات في مثل هذه الحالة توفير ما يكفي من التدريب والتوجيه لهؤلاء الطلبة قبل مباشرتهم بتعبئة الاستمارات التي توزع عليهم، وغير ذلك من المحاذير.

ومن خلال الاستبانة يمكن دراسة بعض جوانب القيم والعادات، وجمع بعض الأمثال أو الحكايات، وغير ذلك مما تقتضيه ظروف البحث والموضوع. وقام العديد من الباحثين باستخدامها بنجاعة مثلما فعل د. شريف كناعنة الذي استخدم الاستبانة في جامعة بيرزيت في الثمانينيات، ومن خلال عينة عشوائية تتكون من ١٠٦ من الطلبة حصل على ٣٩٩ مثلا شعبيا صحيحا، وقام بعد ذلك بدراسة بعض العلاقات بين أفراد العينة من جانب والنتائج التي عكستها أمثالهم، ومن المتغيرات التي درسها الباحث متغيرات الدين والجنس والمنطقة الجغرافية ومجال التخصص في الجامعة ونوع المدرسة الثانوية التي تخرج منها الطالب وبُعد التحصيل الأكاديمي. ومع أن طريقة تعبئة الاستبانة قد يكون مثارا للتقييم والتساؤل، إلا انها قدمت بعض النتائج الجيدة التي يمكن إحتسابها مؤشرات دالة على أقل تقدير.

ويشار إلى أن استخدام الاستبانة ربما كان ضروريا في دراســة المواضيع الاعتقادية والقيمية والتربوية كذلك، فلنفترض مثلا أن أحد الباحثين يرغب في دراسة القيم التربوية الأكثر شيوعا في مجتمع معين، فماذا ســيفعل إن لم يقم بســؤال الناس عن أهم القيم التي يؤمنون بها أو يفضلونها على غيرها، هل يكتفي بملاحظة ذلك واستنتاج هذه القيم من خلال ملاحظاته أو من خلال بعض الرواة والخبراء، بوسعه ذلك إذا ما أتيحت له الظروف المناسبة للقيام بالملاحظة على مدى فترة طويلة من الزمن، وربما بإمكانه استخدام أساليب أخرى، ويمكنه أيضا استخدام عدة وسائل منفردة أو مجتمعة، ولكن المهم هو أن إختيار الأسلوب من أهم العوامل التي سيكون لها الشأن الكبير في تقرير الوسيلة الأنسب.

والاستبانة ســتوفر للباحث ميزة يندر ان توفرها الأساليب الأخرى، ألا وهي ميزة النتائج أو المعطيات الرقمية الإحصائية، ومثلما فعل د.كناعنة في دراسته التي تحدثنا عنها كنموذج لأســتخدام الأستبانة في الدراسات الفولكلورية، فإن بوسع القارىء معرفة مجتمع البحث بأبعاد رقمية دقيقة، وهو يستطيع أن يكون صورة أعمق عن عمقهم الثقافي مثلا أو الجغرافي أو انتمائهم الديني أو الاجتماعي أو مستوياتهم الثقافية أو التعليمية.. إلخ، وقد صار بوسع القارئ تكوين صورة رقمية عن النتائج، فقد جمع أكثر من الف مثل شعبي خلال عشر دقائق أعطيت للمستجيبين ليقوموا بتسجيل ما يفيض بخواطرهم منها بعد أن زار المبحوثين في صفوفهم الدراسية بعد ترتيب مع الجهات المعنية بالطبع. وقام باستبعاد الأمثال المكررة أو الخاطئة أو التي لا تعتبر أمثالا شعبية، وبذلك انتهت الأمثال المعتمدة إلى ٣٩٩ مثلا، وبامكاننا معرفة الأمثال الأكثر تكرارا أي الأكثر استخداما في المجتمع، وكذلك الأمثال الأكثر شهرة في كل منطقة بعينها.

وفي المجمل، فإن استخدام الاستبانة أمر لا مفر منه، وهو أمر حيوي في الكثير من الموضوعات، ويتوقف مدى الفائدة من اســتخدامها على خبرة الباحث ومدى الاحتياطات التي يحتاط لها قبل وأثناء تطبيق الاستبانة وحتى أثناء تفريغ البيانات واستنتاج العلاقات والخلوص للنتائج.

خطوات الاستمارة وإجراءاتها:

نعيد فيما يلي تلخيص الخطوات الأساسية لتصميم الاستمارة ثم توزيعها على المستجيبين ثم جمعها وإخضاعها للتحليل:

أولا - إعداد أسئلة الاستمارة:

١ - إما أن تكون الاستمارة من النوع المغلق الأسئلة أو من النوع المفتوح الأسئلة (الأسئلة الانشائية) أو من النوعين معا. ويتم تحديد ذلك بعد تحديد أهداف الأستمارة، أي نوعية البيانات التي تحاول الاستمارة الحصول عليها.

٢ - وتحديد الهدف من الاستمارة هي مسألة خاضعة لعوامل ثلاثة أساسية: طبيعة الموضوع مدار البحث، طبيعة الأفراد المبحوثين وقدراتهم الكتابية والإدراكية، إمكانيات الباحث وقدرته على الإشراف على الاستمارة في كل مراحلها وفي ضوء هذا العامل يحدد عدد الاستمارات المنوي استخدامها.

٣ - صياغة أسئلة الاستمارة والتوضيحات الضرورية:

التوضيحات ضرورية في الأستمارة ولا يجوز أن توزع الاستمارة صماء، أي خالية من هذه التوضيحات التي توضح الأهداف العلمية للبحث والجهة القائمة عليه والتاكيد من سرية المعلومات، ثم بعض التعليمات الضرورية لتوجيه المستجيبين حول طريقة تعبئة الاستمارة إن كان ذلك ضروريا من مثل عدم الاستعانة بالآخرين وشرح لبعض المفاهيم أو الاصطلاحات إن وجدت وغير ذلك، ثم القيام بصياغة الأسئلة وفقا لاهداف الدراسة.

٤ - التحكيم والاستشارة والتجريب:

في البدء، بعد الصياغة الأولية للأسئلة يستحسن عرض الأسئلة وتجريبها على عدد من المستجيبين الأقربين كالأصدقاء أو الأهل المقاربين في صفاتهم بمجتمع البحث، إن مثل هذه الخطوة ستفيد الباحث في تحسين لغة الأسئلة لكي تصبح أكثر فهما من قبل المستجيبين.

بعد ذلك، بإمكانه تطبيق الاستمارة على عينة تجريبية أكبر من مجتمع البحث نفسه، وقد يغنيه ذلك عن الخطوة السابقة، وبعدها سيكون عليه عرض الاستمارة على لجنة المحكمين والخبراء من أساتذه الجامعات أو الباحثين أصحاب الخبرة في هذا المجال والإفادة من ملاحظاتهم لكتابة الصيغة النهائية للاستمارة.

٥ – تصميم الاستمارة وتنسيقها: عادة ما تبدأ الاستمارة بالمقدمة والتوضيحات الضرورية، ثم يبدأ بالأقسام الأقل صعوبة بالنسبة للمبحوث مثل معلومات الحالة الاجتماعية، ثم مختلف أقسام البحث ومحاوره التي جرى تحديدها في المرحلة الأولى.

ثانيا – تطبيق الاستمارة وتفريغها:

١ – يفترض أن يكون الباحث ملما بوسائل اختيار العينات الدراسية، وهو بعد ذلك يعرف حق المعرفة مجتمعه وعينته التي يطبق عليها الاستمارة، بعد أن يكون قد وضع مخططا واضحا ومدروسا لتطبيق الاستمارات من حيث المكان والزمان والظروف المطلوبة للتطبيق.

٢ – خلال عملية التطبيق على الباحث الحرص على الشروط والظروف التي وضعها، ولا يتم ذلك بغير التفاهم والتعاون من قبل المســتجيبين، ويقع على عاتق الباحث تحقيق هذا الشرط أكثر من غيره. فعلى سبيل المثال، قد يطلب بعض المستجيبين، أخذ الاستمارة إلى بيوتهم لتعبئتها هناك، وهنا على الباحث الحرص على ما وضع من شروط، فإذا كانت هذه الشروط لا تسمح بذلك، فإن من واجبه إقناع المستجيب بأن ذلك غير ممكن، وعليه يجب ان يخير المستجيب بين تعبئة الاستمارة في الحال، أو ربما الحصول على موعد آخر.. إلخ

٣ – غالبا ما يثير المستجيبين بعض البيانات الشخصية أو الاجتماعية، وعلى الباحث تقدير ذلك، غير أنه في بعض الحالات، يمكن أن تكون بعض البيانات الشخصية أو الاجتماعية ذات مغزى مهم بالنسبة لهذه الأستمارة أو تلك، وهنا على الباحث المشرف على التطبيق التفطن الدائم لذلك وربما يتمكن من وضع

بعض الملاحظات على الاستمارة بعد أن يتسلمها من المستجيب أو أن يقوم بتسجيل ذلك في دفتره، وربما يقوم بإجراء مقابلة مع بعض المستجيبين للاستفسار عن بعض المعطيات التي ظهرت في استماراتهم.

٤ – خلال مرحلة جمع الاستمارات، على الباحث التنبه الدائم لعدم خلط الاستمارات إذا كان ذلك مضرا بنتائج البحث، ومثل هذا الخطر يصبح جديا في حالات العينات الدراسية الطبقية، والتوصية الأساسية هي ان على الباحث وضع نظام مدروس لتجنب الخلط او أي محاذير اخرى كضياع الاستمارة أو عدم وضوح الخط أو نقص المعلومات... إلخ.

٥ – في مرحلة تفريغ معطيات الاستمارة، على الباحث التأكد تماما من قدرة الفنيين الذين يقومون بهذا العمل، وعليه الاطلاع المباشر على طريقة عملهم ليتأكد بنفسه من صحة الإجراءات المتبعة، وهذه المسألة أضحت مهمة جدا في ضوء ما نعرفه عن قيام بعض المكاتب التجارية الخدمية بمثل هذه المهمة، وليس للباحث من ضمان للتأكد من سلامة العملية بدون قيامه بالرقابة والإشراف.

ثانياً – اسلوب الملاحظة Observation

يعتبر اسلوب الملاحظة Observation من أهم أساليب جمع البيانات التراثية بعد أسلوب المقابلة أو بما يعادلها في الأهمية والضرورة، وعادة ما يقوم به الباحث بنفسه أو من ينوب عنه من الأفراد المدربين والمؤهلين تاهيلا جيدا لهذا الغرض.

والميزة الأساسية في هذا الاسلوب أنه يوفر للملاحظ فرصا متعددة لملاحظة الظواهر في المجتمع، أي إنه يتمكن من ملاحظة سلوك الناس وأقوالهم في ظروف متشابهه او متكررة وطبيعية، ويستطيع من خلال ذلك الحصول على ما يناسبه من بيانات او نتائج.

وهذا الأسلوب يعتمد على قيام الباحث أو الملاحظ بملاحظة وتسجيل أنواعا من الأقوال أو السلوك أو المراسم أو الطقوس أو العادات لمجموعة معينة من الأفراد أو لمجتمع بكامله وذلك بهدف جمع بيانات تخص المجتمع الملاحظ، ثم يقوم بتسجيل

ملاحظاته بالسجلات أو يقوم بتسجيلها إلكترونيا من خلال التصوير مثلا أو تسجيل الأصوات، كأن يقوم بتسجيل مراسم زواج أو تنصيب زعيم للمجموعة.

أنواع الملاحظة:

يمكن تصنيف أسلوب الملاحظة في أنماط ثلاثة حسب موقف الباحث ووضعه من مجتمع البحث كما يلي:

أولا - الملاحظة الصامتة أو المحايدة، وفيها لا يتدخل الباحث أو المراقب بالجماعة التي يلاحظها، ولا يعلن عن هدفه من الملاحظة، وفي بعض الحالات يكون الملاحظ مستترا عن الجماعة التي يلاحظها، أو يبدو - على الأقل - غير مهتم بتسجيل ما يجري، والملاحظة الصامتة أو المستترة غالبا ما تستخدم لدراسة سلوك الحيوانات وعاداتها، فهي إذا من النوع المنظم والمخطط له، وقد يضطر الباحث أحيانا لاستخدامها في بعض الحالات منها:

١ - أن الباحث لا يفهم لغة مجتمع البحث. كمراقبة الطقوس والمراسم والرقص ومختلف انواع السلوك في مجتمع أجنبي.

٢ - أن الظاهرة أو السلوك المراد ملاحظته لا يجوز أو لا يمكن مقاطعته بالأسئلة أو ربما بالتسجيل، مما سيثير سخط مجتمع البحث أو استهجانه أو تعديل سلوكه، ومن أمثلة ذلك مراقبة السجناء في أحد مهاجعهم أو الأطفال في ألعابهم، أو مراقبة بعض النساء أثناء طقوس الوفاة والدفن والعزاء، أو ملاحظة الدبكات أو الرقصات أثناء الاحتفالات أو المراسم المختلفة في بعض المناسبات..إلخ.

٣ - قد يقوم الباحث بالملاحظة من خلال الوسائل الالكترونية كآلات التصوير والتسجيل الصوتي المباشرة.

٤- ان موضوع الملاحظة يتكون من مجتمع أطفال لا يجدي معهم الحوار أو الأسئلة.

وعلى كل حال، فإن استخدام اسلوب الملاحظة الصامتة أمر نادر وقد يضطر إليه الباحث في مجال أبحاث التراث، فان ملاحظة بعض الفنون ووصفها قد يحتاج إلى

الملاحظة الصامتة، ومثل ذلك في بعض الوقائع مثل مراسيم الوفاة وطقوس الجنائز والدفن، وقد يتمكن الباحث خلال هذه العملية من الاستعانة بمعرف من مجتمع البحث ليفسر له بعض المواقف في حينه، وهذا يعني أن الباحث يمكنه توجيه الاسئلة والاستفسارات، لكن ذلك ليس للمشاركين المباشرين في الظاهرة محل الدراسة.

غير أن لهذا الأسلوب من الملاحظة عيوبا أساسية يجب التنبيه عليها، فالملاحظ هنا لا يحصل إلا على وصف سطحي للظاهرات والوقائع، وهذا الوصف لا يركن إليه في فهم جوهر الظاهرة وخصائصها ودينامياتها الداخلية التي لا تلاحظ بغير استخدام الأساليب الأخرى مثل المقابلة والاستقصاء.. إلخ، فهو إذا لا يصلح لدراسة الظاهرات الاجتماعية أو النفسية. ومن عيوب الملاحظة الصامتة او المحايدة انها قد تغري الباحث بإضفاء معانيه الذاتية على الظاهرة، فالظاهرات الثقافية والاجتماعية تمتاز بالنسبية الحضارية عادة، وبعضها لا يمكن فهمه بدون سبر أغواره الباطنة، أي معرفة " المعاني " التي ينضوي عليها السلوك وفق ما يعتقده او يقصده الفاعلين مثلما نادى بذلك ماكس فيبر في دراسته للسلوك الأنساني، فإذا ما شاهد الباحث بعض الناس يبكون في المجتمعات العربية مثلا، فإن ذلك لا يعني بالضرورة الحزن بل قد يعني الفرحة، وفي العادات القديمة للكثير من المجتمعات العربية، كانت بعض النساء يقمن حلقات الرقص (الندب) حزنا على موت اعزائهن. فدلالات السلوك تختلف من جماعة إلى أخرى في المجتمعات المختلفة وفي المجتمع الواحد أحيانا كثيرة، وذلك ما يدفع الباحث لتفسير السلوك وفق المعاني التي يقصدها أو يفهمها مجتمع البحث وليس وفق منظوره أو منظور غيره من المفسرين والمنظرين.

ومع ذلك، فإن هذا النوع من الملاحظة لا بد منه في أحيان كثيرة مثلما أشرنا حيث لا يمكن اللجوء إلى أساليب أخرى، أو حيث يمكن وصف الظاهرة وصفا ظاهريا كوصف الرقصات أو الطقوس كمرحلة أولى في الدراسة.

ثانيا – الملاحظة العرضية أو غير المبرمجة، والتي يمكن تسميتها (الملاحظة غير المنظمة)، ومن ذلك ما يحدث في حياة كل منا، باعتباره عضوا في

مجتمع وجماعات مختلفة، وكل فرد منا لا بد أنه يشارك مجتمعه في كثير من العناصر والأنشطة الاجتماعية والثقافية التي يعتبر بعضها جزءا من عناصر التراث، من ذلك مناسبات الأفراح والأتراح ورواية القصص والطرائف والأقوال المأثورة، ومن ذلك عناصر القيم والمعتقدات والعادات والمراسم.. إلخ.

فان سألت أي إنسان عن قيم مجتمعه، لوجدت لديه الجواب الذي يعتقد أنه هو الجواب الصحيح، باعتباره عضوا في هذا المجتمع، لكنك في الوقت نفسه ستجد أنك ستحصل على إجابات مختلفة أو متنوعة لنفس السؤال الموجه إلى عدد من الأفراد، ويأتي هذا الاختلاف تبعا لعوامل عديده منها إختلاف تجارب الأفراد واختلاف ثقافاتهم ومصالحهم ورؤاهم في الحياة وفي نظرتهم للمعرفة العلمية.. إلخ، غير أن مثل تلك المتغيرات المتعددة يمكن تلخيصها في قاسم مشترك واحد للجميع وهو أنهم جميعا لم يستخدموا الأسلوب العلمي في الاجابة على السؤال، إذ أن استخدام الأسلوب العلمي يقتضي مما يقتضي الشمولية والنسبية، والبرهان أو الواقعية، ومن النادر ان تجد إنسانا عاديا (ضعيف التأهيل العلمي) لديه الإلمام الكافي بتلك الشروط التي وجب على الباحث التنبه لها. وهذه الملاحظة مهمة من حيث التنبه إلى عدم اعتماد الباحث على فرد واحد أو عدد قليل من الأفراد ليستنتج أو يستخلص تراث مجتمع معين إستنادا إلى شهاداتهم ورواياتهم، بحجة أنهم أفراد من هذا المجتمع...

ومع ذلك، ليس من الخطأ الإفادة من أصحاب الملاحظة العابرة، ولكن هذا يعني أن يقوم الباحث بتوسيع عينة البحث التي يوجه لها الأسئلة، وقد يكون من المناسب استخدام الاستبيان لهذا الغرض او أي أسلوب آخر، وهنا يكون الباحث قد انتقل إلى أسلوب أخر غير اسلوب الملاحظة.

لكن البعض يكتب عن مجتمعه الذي عاش فيه اعتمادا على معارف ذاكرته وخبراته فقط، فهل يمكن اعتبار ذلك أسلوبا مفيدا للجمع والبحث ؟

بالطبع، يمكن الإفادة الكبيرة من مثل هذه المعايشة، فالباحث هنا سيكتب عن مجتمع يعيش فيه، ويعرف ما فيه من عادات تراثية وأخرى طارئة أو مستحدثة، وغير ذلك من العناصر، غير أن المشكلة سوف تبرز في جوانب عديدة من العمل، إذا كان

الباحث يعتمد فقط على ما يختزنه في الذاكرة من عناصر تراثية، دون الاستعانة بالأساليب والمهارات الأخرى المتبعة في عمليات الجمع والتصنيف للمواد التراثية. فإذا اختار الباحث الكتابة مثلا عن عادات الزواج في قريته، فبإمكانه القيام بذلك، وقد ينتج من وراء ذلك عملا جيدا، لكن الشكوك ستظل تدور حول الكثير من جوانب العمل الذي استند فقط إلى الذاكرة والخبرات الشخصية، من ذلك مثلا مســألة الاسنادات الغائبة، فإذا قال الباحث إن من عادة أهل قريته إرسال النساء فقط لخطبة العروس من أهلها، وجب عليه التدليل على ذلك، أو تأكيده، وتحديد الفترات التي عرفت فيها هذه العادة، والتأكيد كأن يكون الكاتب قد حضر العديد من هذه المناسبات بنفسه، أو أن يكون قد سمعها من رواة ثقات، وفي هذه الحالة، وجب عليه توثيق معلوماته وإسنادها إلى الرواة بالأسم وما إلى ذلك من معلومات.

والمشاكل المترتبة على مثل هذه الأعمال التي تعتمد على الذاكرة فقط كثيرة وأكثر من ان تحصى، ومنها أن القارئ سيظل متشككا بذاكرة الكاتب، ومتشككا في منهجه هذا الذي لا يبرز فيه الأساليب الأخرى من أساليب جمع المعلومات، ولذلك، فإن العمل سيقيم باعتباره شكل من أشكال الذكريات أو السيرة الذاتية التي يصح الأخذ بها أو رفضها جزئيا أو كليا.

ولذلك فثمة فارق بين الملاحظة السريعة السطحية التي يقوم بها الإنسان في ظروف الحياة العادية، وبين الملاحظة العلمية التي تمثل محاولة منهجية يقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات التي توجد بين عناصرها، وهي تتميز عن الملاحظة العابرة بأن الباحث يقوم بها لخدمة بحث معين وليس كيفما اتفق، كما أنها مخططة بطريقة منظمة من أجل تحقيق أهداف البحث، ثم أن الملاحظات العلمية تثبت وتسجل بطريقة معينة ودقيقة، والملاحظة العلمية فوق كل ذلك يمكن تكرارها.. (٥)

ثالثا – الملاحظة المشاركة المخططة، أو الفاعلة، وهو الأسلوب الذي يعايش فيه الباحث مجتمع البحث ويقوم فيه بالملاحظة ويقوم بالسؤال والتحري والتبصر

وتسجيل الملاحظات وفق مخطط يتضمن أهدافا علمية محددة، وبالتالي فهي الملاحظة العلمية.

فالباحث قد يشارك في الظاهرة نفسها مشاركة فعلية كأن يكون مدعوا في العرس مثلا، أو أن يشارك الفلاحين أعمالهم أو كأن يسجل الباحث معلوماته عن ألعاب الطفولة أو المعتقدات.. ألخ. ومن الممكن أن يعلن الملاحظ عن هويته، وقد لا يعلن حسب الظروف.

وأسلوب الملاحظة المشاركة هو الأكثر استخداما في العلوم الاجتماعية وفي الفولكلور والأنثروبولوجي خصوصا(*)، إذ لا بد للباحث من معرفة المعاني المتعلقة بالحدث وفهمها، وقد لا يتأتى مثل هذه المعرفة والفهم إلا لمن كان جزءا من ثقافة المجتمع المدروس، ولكن على الباحث تجنب التحيز والذاتية، ويفترض أن استخدامه للأساليب العلمية يمكنه من تحري الدقة والموضوعية، لذلك يجب دائما التأكد من الأساليب والخطوات المتبعة في الدراسة قبل الأخذ بنتائجها(٧).

والملاحظة المشاركة إما ان تكون في مجتمع الباحث – الملاحظ، أي مجتمعه الطبيعي، وإما أن تكون في مجتمع يكون فيه الباحث الملاحظ أجنبيا ولكنه تعلم لغة المجتمع أو لهجته، وهو يعيش مثلما يعيش أفراد المجتمع الآخرين، وقد اشترط بعض علماء الأنثروبولوجي على الباحث قضاء حولا كاملا على الأقل في مجتمع البحث، وذلك ما يعرف "بدورة الحياة " لكي يتمكن الباحث من ملاحظة الظواهر بدرجة مناسبة من الكفاية.

---

* – شاعت البحوث الميدانية في الأنثروبولوجيا منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد قام فرانز بواس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامي ١٨٨٣ – ١٨٨٤، ثم قام هادون على رأس بعثة جامعة كمبردج – بريطانيا لدراسة منطقة مضايق توريس Torries staits في المحيط الهادي بين عامي ١٨٩٨ – ١٨٩٩، وقام مالينوفسكي بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriand في ميلانيزيا بين أعوام ١٩١٤ – ١٩١٨، وهي اطول فترة أمضاها أي أنثروبولوجي آخر، كما كان مالينوفسكي قد تعلم لغة الأهالي أنفسهم وعاش معهم بطريقتهم المحلية .

وشدد مالينوفسكي – رائد أسلوب المعايشة – في كل كتاباته على مزايا المعاينة بالمشاركة، فاختلط بسكان جزر التروبرياند البدائيين وعاش حياتهم وراقب الأحداث العابرة والدراماتيكية كالوفيات والمشاجرات، والواقع أن فائدة المعاينة الأساسية " منهجيا "[٨] تتمثل في نقاط ثلاث مهمة:

١ – تمكن الباحث من تسجيل ظاهرات قد لا يتسنى للمعرف[*] أن يحدثه عنها، سواء بقصد أو بغير قصد.

٢ – تمكن الباحث من مراقبة تصريحات " المعرف " للتحقيق من مدى صحتها.

٣ – تتيح للباحث رؤية الحقائق في الواقع تماما خلافا لما قد يصرح به المعرفون والمؤدون بما يختلط بالمثالي او النمطي في ثقافتهم.

ومهما يكن وضع الباحث، إن كان في مجتمعه او في مجتمع هو اجنبي فيه. فإن ما يميز هذا النوع من الملاحظة التي يقوم بها الباحث – الملاحظ هو إمتلاكه برنامجا أو خطة يسير عليها، وهي خطة تم إعدادها بعد القيام باستطلاعات ودراسات أولية حول الجوانب التي تهم الباحث في بحثه أو الملاحظ في ملاحظاته. وهذا النمط من اشكال المعايشة هو أكثر الأنماط ثقة وانتاجية وعلمية لأنه يستخدم الوسائل والخطط والأدوات التي تمنحه القدرة على استخلاص النتائج الموثوقة.

ولقد قام بعض كبار الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع باستخدام هذا الأسلوب في مجتمعات أجنبية، مثلما فعل مالينوفسكي ورادكليف براون، أو مثلما فعل الكثير من علماء الاجتماع عندما اندمجوا في بعض الجماعات الفرعية في مجتمعاتهم للقيام بالملاحظات، كقيام بعضهم بمعايشة السجناء في مهاجعهم او العمال في مصانعهم أو الصيادين في مراكبهم.. إلخ

ويقتضي هذا الأسلوب أن يكون الباحث جزءا من مجتمع البحث، وقد يكون مجتمع البحث هو ذاته مجتمع الباحث الذي يعيش فيه حياته الطبيعية، وهذا أفضل شكل

* – المعرف هو الراوي أو المخبر الذي يقدم للباحث معلومات وتفسيرات عن تراث مجتمعه وظواهره.

من أشكال المشاركة أو المعايشة، فالباحث في هذه الحالة يستطيع تفسير الظواهر ووصفها بشمولية وعمق أكثر من غيره، وهو سيتمكن من الوصول إلى المصادر بدون الحواجز التي قد يلاقيها الباحث الأجنبي، وهو أقدر في الحصول على المعلومات أو البيانات الصحيحة، التي يميل مجتمع البحث أحيانا لإخفائها عن الباحث، وخصوصا فيما يتعلق ببعض القيم والعادات والتقاليد. وهو أقدر كذلك على تقييم مصادر بياناته ثم إعادة مراجعتها كلما لزم الأمر بل ومدارســتها أحيانا (مثلما يقتضي موضوع القانون العشــائري مثلا، الذي لا يجوز فيه الركون إلى مصدر واحد فقط، ويتحتم أيضا مناقشــة المصدر في الكثير من القضايا الغامضة والمتنوعة..إلخ)، فالباحث في هذه الحالة أكثر تقبلا من غيره، لأنه يعيش في مجتمعه، ويفترض فيه أن يكون محل ثقة لمجتمعه، وهو يعرف كيف ومتى يدخل في مداخله ومتى يخرج منها، والباحث الجيد هو الذي يســتطيع استغلال المناســبات والأحداث الطبيعية لتســجيل بياناته دون أن يضطر إلى اصطناعها فيما بعد، من مثل استغلال الأعراس مثلا ومراســم العطوات العشائرية والأعياد والمواسم وغير ذلك.

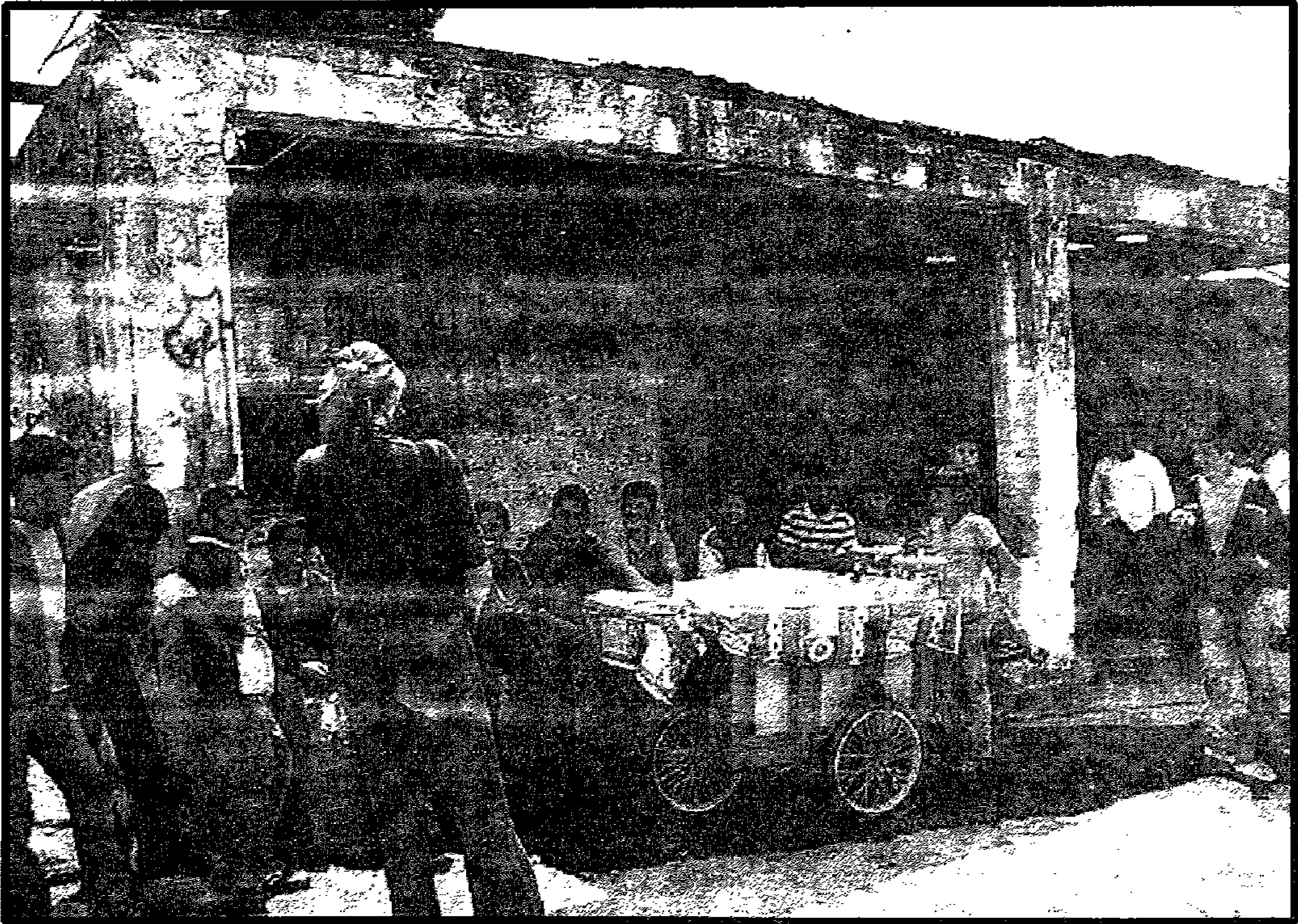
وبوسع الجامع، الإفادة الكبيرة من الملاحظات العابرة التي تتحقق من خلال معايشته للمجتمع، ولكن لذلك شروط واحتياطات ومهارات يجب على الجامع الوعي بها وإتقانها أيضا. فإذا كان الباحث واعيا لهذه الشروط، فإنه يكون قد انتقل إلى المستوى الأرقى من الملاحظة، ألا وهو أسلوب الملاحظة المنتظمة أو المعايشة المنتظمة.

وأولى هذه الشروط أن يكون لدى الجامع وعيا نظريا بموضوع التراث عموما والموضوع الذي يعمل عليه خصوصا، والوعي لا يتأتى بغير الاطلاع على عدد من الدراسات في هذا الموضوع وفي أساليب جمع البيانات في موضوع العلوم الاجتماعية التي نحن بصددها الآن.

أما الاحتياطات والمهارات الواجب التزود بها، فهي ما يتعلق منها بوسائل الجمع والتصنيف. وخصوصا فيما يتعلق بالتوثيق والإسناد والدقة في النقل. وهذه

المسائل على بساطة لفظها تحتاج إلى درب من المراس لا يستهان به أبدا، مهما بدا الموضوع بسيطا، كجمع الأغاني الشعبية مثلا. فإن تم له ذلك، أي إذا ما حقق الشروط والاحتياطات والمهارات المشار إلى أهمها، فبذلك يكون قد انتقل إلى مجال الملاحظة المنتظمة ذاتها التي نحن بصدد الحديث عنها.

فاسلوب الملاحظة المنتظمة (الفاعلة) يوفر بيانات غزيرة عن الظاهرة أو الموضوع المراد دراسته وجمع المعلومات عنه، والملاحظة بما أنها تتم في ظروف طبيعية، فإنها ستوفر معلومات دقيقة عن الموضوع بخلاف ما إذا كان يجري تمثيل الظاهرة أو اصطناعها (بكائيات الأحزان مثلا)، وبخلاف لو كانت الملاحظة عفوية غير واعية لكل عناصر الظاهرة وجزئياتها، والملاحظة من خلال المعايشة أقل كلفة وأيسر من غيرها في الكثير من الحالات.



أسلوب الملاحظة، قد يكون صامتاً وقد يتخلله مشافهة المجتمع الملاحظ

محاذير الملاحظة المشاركة وعيوبها:

غير أن لأسلوب الملاحظة بعض العيوب أو الحدود منها:

١ - إن بعض المفحوصين (الملاحظين) حين يشعرون بأنهم ملاحظون قد يغيرون من سلوكهم ولا يظهرون سلوكا حقيقيا.

٢ - تتطلب الملاحظة وقتا طويلا، فقد ينتظر الباحث فترة طويلة حتى يبرز السلوك الذي يلاحظه، فإذا أراد الباحث ملاحظة سلوك الطالب – مثلا – حين يعاقبه المعلم فإنه يدخل إلى غرفة الصف وينتظر حتى يعاقب المعلم طالبا، وقد لا يتحقق هذا من خلال انتظار الباحث عدد كبير من الحصص.

٣ - وقد تتدخل عوامل وقتية تؤثر على السلوك أثناء الملاحظة، وبذلك يكون ما يلاحظه الباحث ليس صحيحا، فإذا أخطأ أحد الطلاب وأثار المعلم فإن جو الصف كله سيتأثر بذلك ويبدو سلوك المعلم والطلاب غير طبيعي، وبذلك يكون ما يلاحظه الباحث سلوكا غير طبيعي. (٩)

ومثل هذا الأمر يمكن أن يحدث في مواضيع التراث كذلك، فقد يتأثر الملاحظون بوجود الباحث، وقد يحاول البعض إثبات أن رأيه أو قوله أو غناءه هو الأصح من غيره، وقد يتطور الأمر فينشحن الجو بالتوتر ويتغير السلوك في اتجاهات غير طبيعية.

٤ - تحيز الباحث – الملاحظ، وهي مشكلة تبني الباحث لمجتمع البحث بكل ما فيه بقصد أو بغير قصد، أي إن مجتمع البحث يتجسد في نفس الباحث، مما يقلل من الموضوعية أحيانا لدى الباحث، ســواء من خلال الرضى التام، أو حتى المبالغة في وصف الحسنات مثلما فعل بعض الباحثين العرب أثناء وصف مجتمعاتهم، أو على العكس، المبالغة في وصف الســيئات مثلما فعل بعض المستشرقين في المجتمعات العربية، وفي كلا الحالتين، يجافي الباحث الحقيقة، وعلى كل حال، فإن الموضوعية تقتضي، أن يعي الباحث هذه المسألة وعيا تاما، ثم أن يجاهد نفســه ليكون موضوعيا بأكبر قدر ممكن.

والباحث الجيد الذي يستخدم هذا الأسلوب، عليه القيام بتسجيل ملاحظاته أولا بأول كي لا تتأثر بالنسيان، وقبل ذلك عليه معرفة أهدافه في الجمع والتسجيل، وإلا فإن حصيلة ملاحظاته ستكون خليطا من المواد الخام التي يصعب الاستفادة منها، والقاعدة الاساسيه في التسجيل تكمن في وضع مفاتيح للملاحظات أولا بأول، فلنفترض أن الملاحظ يهدف إلى جمع البيانات المتعلقة بمناسبة العطوات العشائرية، ووسيلته الأسياسية في ذلك الكتابة، فعليه أن يســأل نفسه ويتذكر أهدافه: هل يبحث في القانون العشائري مثلا كنصوص فقط ؟، أم أنه يبحث في المراسم والطقوس والعادات المصاحبة ؟، أم أنه يبحث في اللغة أو اللهجة ؟، أم أنه يبحث في كل ذلك ؟، ويجب أن تشمل ملاحظاته كل ما ذكر من محاور أو بعضا منها.

فإذا ما أتيح له حضور عطوة عشائرية بتخطيط أو بغير تخطيط، فإن عليه أولا استئذان أطراف العطوة لتسجيل الملاحظات عنها أو تصويرها إذا ما كان يرغب في نشر معلومات مخصصة عن هذه الحادثة، وقد لا يضطر لذلك إذا رغب في الملاحظة العامة وتسجيل الملاحظات فيما بعد، فإذا أتيح له ذلك، فعليه اتخاذ مكانا مناسبا يستطيع من خلاله ملاحظة الجميع وسماع كلماتهم ذات العلاقة بالأمر، ومن ثم يقوم بتسجيل ما يراه وما يلاحظه ليس تسجيلا ظاهريا وحسب، بل نافذا إلى ما أمكن من عمق، والمقصود بذلك أن لا ينشغل الملاحظ بمراقبة حركة الناس ويتلهى عن العناصر الأساسية في الأمر من مثل: موقف الفرقاء اتجاه الموضوع المختلف عليه، موقف الجاهة، القوانين أو المعايير التي تحكم مواقف الأطراف، العادات المتبعة في مثل هذه الحالة... إلخ من الملاحظات وفق المحاور التي تهمه خصوصا.

وبعد ذلك، فإن الباحث لن يكتفي مثلا بهذه الحادثة، وسينتظر مناسبات أخرى ليقوم بتسجيل ملاحظات جديدة، ولكن يجب عليه تدوين "مفاتيح ملاحظاته " أولا بأول كما قلنا ويثبتها في سجلاته، ومن الصيغ المناسبة لذلك ما يلي:

الموضوع: عطوات عشائرية – قانون عشائري – عادات وتقاليد – الكرك

التاريخ: ٢١ / ٣ / ٢٠٠٦. المكان: قرية (...) في الكرك.

الملاحظات: وصلت جاهة مكونة من نحو ٣٠ شخصا إلى مضارب عشيرة (...) أو إلى المكان المحدد.

استقبلها أهل البيت (المعزبون) بالترحاب، لوحظ أن بعض الشباب كان يبدي علامات السخط وعدم الرضى ــ أحد المسنين زجرهم ووبخهم. فصمتوا دون رد.

الجاهة قامت بمصافحة المستقبلين بالأيدي، البعض تبادل التقبيل.

قام أحد الرجال من المعزبين وصب فنجان قهوة ووضعه أمام أحدهم، فأشار عليه رجال من الجاهة لنقل الفنجان لرجل آخر أكبر سنا. (فهمت من أحدهم أن صب الفنجان يجب أن يتم لكبير الجاهة).

تبين أن طرفي المشكلة هما جماعة أحد السائقين من عائلة (...)، وأهل الفقيد من عائلة (...) التي فقدت فتى يافعا راح ضحية حادث سير قبل ثلاثة شهور مثلا.

قام أحد المسنين ورحب بالجاهة، وأطرى على بعض رجالها بالأسم.

(فهمت – مثلا – أن بعضهم يفضل أن تتم كلمة الترحيب بالجاهة قبل صب فنجان القهوة، والأمر يحتاج إلى تدقيق إضافي)...إلخ.

هذا نموذج افتراضي للمراسم الأولية لمناسبة العطوة العشائرية. ولكنه بالطبع غير كاف، وتنقصه الكثير من البيانات الرئيسية التي يجب استكمالها ليس في مجال المراسم والطقوس، بل في مجال المضمون كذلك الذي تحدثت فيه الأطراف، ثم في مجال النتائج التي تمخضت عنها المناسبة، ثم الخلفيات الكامنة وراء المشكلة أساسا، وقد لا يتم التطرق لها مباشرة، وعلى الباحث أو الملاحظ التحري عنها بالطرق المناسبة، والتحري يجب أن يكون دقيقا لا يعتمد على الأقوال الشائعة أو السابحة في الفضاء (وسنخصص عنوانا خاصا للتحري كأسلوب من أساليب جمع المعلومات)، ويبقى جزء آخر شكلي ولكنه في غاية الأهمية لتسجيله على البطاقة أو في دفتر الملاحظات، وهو المتعلق بالإسنادات أو الهوامش.

والإسنادات أو الهوامش سيكون لها أهمية كبيرة قد لا تظهر في البداية، ومن هذه الإسنادات مثلا: أسماء ما يسمى " كفلاء الدفا والوفا "، أو رأس الجاهة القادمة أو المضيفة، ومن هذه الإسنادات صك العطوة العشائرية إن وجد. أما الهوامش فمن مثل التعليقات أو الظواهر الجانبية (١ – لوحظ غياب كلي للنساء في المراسم. ٢ – أوضح أحد المتحدثين أن عدداً آخر من أعضاء الجاهة لم يستطع الوصول في الوقت المناسب بسبب ظروف طارئة في الطريق..، ٣ – لوحظ أن أحد أفراد الأمن العام قام بتصوير فيديو لفترات متقطعة (دائرة العلاقات العامة)، وقد وعدنا بالتعاون في تقديم ما يلزم من المادة المصورة بعد القيام بالإجراءات المناسبة (رقم هاتف ٥٣٥٣.. إلخ).

وهكذا فقد أضاف الباحث بطاقة أو سجلا جديدا لملاحظاته وسجلاته، وربما سيعود إليها بعد فترة قد تطول لسنوات أو تقصر لأيام، فإذا ما تنبه منذ البداية لمفاتيح سجلاته وملاحظاته، فإن الأمر سيسهل عليه فيما بعد، وقد يحتاج بعد عام مثلا للاستفسار عن نقطة معينة تبين أنها غامضة في سجلاته، ويتوقف على توضيحها معان مهمة للبحث، فإن مفاتيح السجل سوف تعينه على استيضاح هذا الأمر: الأمن العام الذي صور الواقعة، المتحدثين بالجاهة الذين كتبت أسماءهم، قد يمكن الوصول إلى أحدهم أو حتى التحادث معه بالهاتف.. وهكذا.

والمشاركة، لا تعني أن على الباحث عدم القيام بأبحاث أو تسجيل بيانات في غير مجتمعه، بل إن الباحث يستطيع ذلك في أي مجتمع يريد إذا ما توافرت له الوسائل لذلك، وأهمها وسيلة اللغة، ثم التقبل من جهة مجتمع البحث، وهو لا يقل ضرورة عن اللغة، فالمجتمع لن يقدم بيانات صحيحة للباحث إذا لم ينل ثقته أولا، كأن يذهب فلسطيني إلى مجتمع إسرائيلي ليقوم بتسجيل بعض البيانات، أو على العكس من ذلك، والأمر لا ينحصر في العداء السياسي، فإن ما يقف حاجزا في وجه الباحث أكثر من غيره، ما يمكن أن نسميه " قناعات مجتمع البحث اتجاه موضوع البحث فمجتمعك الصغير الذي تنتمي إليه قد يرفض التعاون في بعض الموضوعات التي لا تقنعه، كأن يحاول أحدهم مثلا معرفة بعض التقاليد الخاصة بالعلاقة الزوجية بين

الأزواج في مجتمع تقليدي، ولذلك فإن قناعة المصادر ومجتمع البحث مهمة جدا في التعاون مع الباحث حتى وإن كان الباحث أجنبيا عن مجتمع البحث. ومن المعروف ان أهم الأبحاث الأنثروبولوجية قام بها باحثون أوروبيون في بعض القبائل البدائية في الغرب واستراليا، وبعض الأبحاث " الاستشراقية " قام بها أوروبيون في مجتمعات شرقية، ومن المعلوم أن بعض العرب والمسلمين وضع بعض الكتب المهمة في وصف عادات البلاد الأخرى مثل الهند والصين وأفريقيا بل وأوروبا أيضا. وخصوصا في العهد العباسي الذي كان يشهد فترة من الازدهار العلمي، ولكنها تصنف في عداد أدب الرحلات أو السير الذاتية.

وفي أسلوب المشاركة هذا، الذي لا يكون فيه الباحث جزءا أصيلا من المجتمع المبحوث، بعض الاعتبارات والمحاذير التي يجب التنبيه لها، فالباحث لا يتحتم عليه إعلان انتمائه للجماعة أو مجتمع البحث بالضرورة، بل يجب عليه كسب ثقته أولا، وباستطاعة الباحث الحفاظ على هويته والإعلان عنها أيضا إذا ما نجح في كسب ثقة المجتمع على هذا الأساس، وقد يضطر الباحث للإعلان عن مهمته أو اهتمامه بموضوع البحث، كأن يقنعهم بأهمية الموضوع العلمية، وأن ذلك سيكون لمصلحة العلم والمجتمع، أو أن ذلك سيكون سجلا للأجيال القادمة، أو غير ذلك من الحجج المنطقية، التي لا تتضمن المبالغات.

وأساليب المعايشة لمجتمع البحث كثيرة ومتنوعة، ومنها أن ينتقل الباحث للعيش الدائم مع مجتمع البحث، ومنها أن يتواجد الباحث في مجتمع البحث لفترات معينة من الوقت، فهو قد يكون مدرسا في إحدى مدارس مجتمع البحث، أو طبيبا أو موظفا حكوميا، أو حتى صاحب محل تجاري وغير ذلك، وبمعنى آخر فإن على الباحث تدبر أمر تواجده في مجتمع البحث بحيث لا يبدو متطفلا عليه كل الوقت، وبحيث يظهر الباحث ويختفي في الأوقات المناسبة. وهنا يتعين على الباحث عدم الظهور بمظهر "الجاسوس" الذي يعمل لجهة معينة، بل من الأفضل أن يحافظ على احترامه وعلى ثقة الناس به وأن يحافظ على خصوصيات الناس وأسرارهم. وغالبا

يكون على الباحث الإفصاح عن مهمته لمجتمع البحث، إلا في بعض الحالات النادرة، التي تتأثر بهذا الإعلان تأثرا جوهريا. وعلى الباحث أيضا عدم تقديم وعود زائفة للناس أثناء القيام بدوره طمعا في تعاونهم، فإن من شـــأن ذلك هز جسور الثقة بينه وبين الناس.

والملاحظة - ربما الأهم - في أمر المشاركة، هي ضرورة أن يحترم الباحث مجتمع البحث أو مصادره (بقيمه وعاداته وطقوسه.. إلخ) بصرف النظر عن قناعته الذاتية، ومن ذلك مثلا أن يتجنب الاختلاط بالجنس الآخر إذا كان هذا الأمر معيبا في مجتمع البحث، ومن ذلك الحساسية في تســـجيل بعض طقوس النساء ومراسمهن وعاداتهن، فعلى الباحث التأكد أولا من حدود الممنوع والمســـموح، وفي بعض الحالات يتوجب على الباحث الاعتماد على مســـاعدين من مجتمع البحث أو من خارجه للحصول على بعض البيانات، كأن ينتدب فتاة لمشـــاركة النساء بعض الفعاليات الخاصة بهن، أو قد يكون الباحث أنثى ووجودها غير مرغوب فيه أو محرجا لمجتمع البحث أو لها، فعليها تدبر أمر المعاون المناسب من جنس الرجال ليقوم بالمهمة. ومن ذلك أيضا إحترام العبادات والدين للمجتمع حتى ولو كان عبادة البقرة، فبغير ذلك لا يمكن للباحث الاستمرار وتلقي التفهم والتعاون.

وفي بعض الأحوال، ســيكون من المفيد جدا تدريب بعض أفراد مجتمع البحث للقيام بالدور ومتابعة المهمة بغياب الباحث أو بوجوده، وذلك ما يسمى " الاخباريين أو المخبرين " وفي هذه الحالة يضمن الباحث اســتمرار إمداده بالبيانات المطلوبة أولا بأول.

قواعد الملاحظة:

مهما كانت الطريقة المستخدمة في الملاحظة، فإن على الباحث أن يجيب على عدة تساؤلات هامة هي: (١٠)

- ما هو الغرض من الملاحظة ؟
- ما الذي يجب ملاحظته ؟
- كيف تسجل الملاحظات ؟

- ما هي الاجراءات التي يجب إتخاذها للتأكد من دقة الملاحظة ؟

وقد وضع بعض علماء الأنثروبولوجي بعض القواعد العامة للقيام بالملاحظة كما يلي: (١١)

١ - يتعين على الباحث أن يدخل ضمن مجالات ملاحظاته كل الأشياء أو الوقائع او الظواهر ذات الصلة بموضوع بحثه وحسب هدف الملاحظة، وعليه ان يتأكد من الظواهر أو الأشخاص الذين تركهم بدون ملاحظة ليست لها دلالة بالنسبة للدراسة.

٢ - إذا شارك في الملاحظة أكثر من باحث واحد، فمن الضروري أن يتخصص كل منهم في جانب معين من الموضوع الذي تجري الملاحظة من أجل دراسته.

٣ - يجب أن يتأكد الباحث الملاحظ من مدى التعارض بين ما يقوله الناس وبين ما يمارسونه بالفعل، أو يتبين عن طريق الملاحظة صحة ما يدلي به أفراد البحث من معلومات دون اشعارهم بانهم يخفون الحقيقة أو يتهربون منها.

٤ - على الباحث التذكر بأن أنماط السلوك قابلة للتغير بتغير الزمان او المكان أو طبيعة الحضور وعددهم، فكثيرا ما يتغير السلوك بتغير المواقف أو بتغير الحضور.

٥ - متى يحدث الموقف؟ وما هي الفترة الزمنية التي يستغرقها؟ هل هو موقف فريد غير متكرر ؟ أم أنه موقف متكرر الحدوث (تقليدي)، وهل يعتبر الموقف " نموذجيا " بالنسبة للمواقف الأخرى.

ولأهمية أسلوب الملاحظة بالمشاركة، نعيد التأكيد على بعض الملاحظات بشكل مختصر:

١ - على الباحث أن يجعل من وجوده حالة طبيعية لا تثير الشكوك.

٢ - على الباحث معرفة أهدافه في المشاركة والملاحظة والتركيز عليها وعدم التشتت لأهداف كثيرة أخرى.

٣ - على الباحث التاكد من سلامة وسـائله التسـجيلية قبل الشروع في العمل، والوسائل التسجيلية تبدأ بالقلم والورقة مرورا بآلة التصوير والمسجل. وعليه أن لا ينشغل في إصلاحها وتسوية أمرها خلال العمل مما قد يفسد الأجواء المناسبة للعمل وقد يثير سخط المبحوثين أو سخريتهم أو شكوكهم.

٤- إن الباحث الجيد هو الباحث الذي (يأخذ ويعطي)، فلا يظل دوره دور المسجل أو المحقق المستجوب أو المراقب المترصد للآخرين، بل لا بد من بعض الوقفات أو التساؤلات أو المجاملة للمبحوثين الذين سمحوا بمثل هذه الفرص. وهنا يتوجب على الباحث أن يكون ملما بجوانب الموضوع إلماما كافيا، لكن دون أن يدعي أمام المبحوثين بأنه "حجة زمانه" في هذا الموضوع.

٥- الباحث الجيد هو الذي يسـتطيع التكيف السريع مع عادات المجتمع الذي يعيش فيه ليس من ناحية السلوك فقط، بل من ناحية تقاليد الضيافة، وعلى الباحث أن يكون لبقا في رفض او تقبل ما يقدم له من مشروبات أو أطعمة في حدود الممكن، أي أن لا يظهر الباحث تقززا أو ترفعا على أطعمة مجتمع البحث وأشربته، وفي الوقت نفسه، يتوجب عدم الانجرار في تقبل كل العروض في هذا الشأن بحيث يظل الباحث كريما خفيف الظل.

٦- على الباحث أن لا يدعي سلطات ومعارف خارج سلطانه ومعارفه. فإن بعض المبحوثين أو الرواة يتوقعون أو يأملون من الباحث حل بعض مشـاكلهم مثل توفير الكهرباء مثلا او توظيف الأبناء او المساعدة المالية أو غير ذلك، وعلى الباحث أن يكون صادقا ولبقا تماما منذ البداية في هذا الشـأن. وإلا فإنه قد يخفق فيما يصبو إليه من تعاون.

استخدام وسائل التسجيل الإلكتروني في الملاحظة:

إن إسلوب الملاحظة المشاركة يتيح للباحث والملاحظ الكثير من الوسائل لإستخدامها لجمع أكبر كم ممكن من الملاحظات، خصوصا مع التطور السريع في وسائل الاتصال الجماهيري وووسائل التسجيل الألكتروني، فقد صار من السهل استخدام الآت التصوير والتسجيل الصغيرة والدقيقة لتسجيل الكثير من المناسبات، ووسائل التسجيل توفر الدقة للملاحظ الذي قد لا يسعفه الوقت لكتابة ملاحظاته أولا بأول. فهذه الوسائل أتاحت لنا العودة إلى منازلنا أو مكاتبنا ومن ثم تفريغ البيانات المسجلة بيسر وسهولة، ومع ذلك، فإنه لا غنى للملاحظ عن الملاحظات المكتوبة، فبعض الكلمات (في الأغاني مثلا) لن تكون مفهومة في التسجيل أو حتى عند سماعها مباشرة، والباحث الفطن يقوم بالسؤال عنها في الوقت المناسب ويسجل معناها أو مغزاها، يسجل كذلك ما لم تسجله الوسائل الالكترونية من مثل "عنوان المناسبة التي يتم فيها هذا الغناء، اسم الفرقة أو المغنين الشعبيين الذين قدموها، الوقت والتاريخ والمكان الذي حدثت فيه هذه المناسبة، المجتمع الذي حدثت فيه، وربما ملاحظات أخرى كثيرة، قد يجدها الباحث متغيرة من مناسبة لأخرى ومن مكان لآخر.

لكن مع كل الحسنات التي توفرها آلات التسجيل الإلكتروني، فإن لها بعض المثالب أو المشاكل التي يحسن بالباحث التنبه لها، وأهم هذه المشكلات أن البعض يرفض تسجيل صورته أو صوته، والبعض الآخر يغير من سلوكه وردود أفعاله في حالة وجود الآت التسجيل، وخصوصا أن مسـألة التسجيل لا يجب أن تتم بدون موافقة الناس المعنيين، ومن هذه المشكلات، أنها معرضة للأعطال أثناء القيام بمهمة التسجيل وهذه المشكلة يجب أن لا يستهان بها في أمر آلات التسجيل، فعلى الباحث التاكد من سلامة آلآته دائما، والتدرب على إصلاحها أو تشخيص مشاكلها، ومن المستحسن أن يضمن الباحث آلات بديلة أو احتياطية للطوارئ، ومن الضروري أن يوفر قطع الغيار الاضافية كالبطاريات مثلا أو أشرطة تسجيل أو الأفلام أو الوصلات الكهربائية، بحيث

يقوم بعمله بسلاسة ودون إرباك له أو لمجتمع البحث الذي يعمل فيه، ويذكر الباحثون الكثير من الطرائف حول استخدامهم آلات التسجيل، منها أن بعض الناس يعتبرون ذلك خدمة للحكومة أو بإيعاز منها، أو من التلفزيون أو الإذاعة، فيجدونها فرصة لسرد معاناتهم أو للمطالبة بالخدمات، ومنهم من اندهش من هذه الآلات فتطير من وجودها، وأذكر أنني في بداية تجاربي في هذا المضمار في بداية الثمانينيات ولصالح مركز الأبحاث في جمعية انعاش الأسرة – رام الله، حاولت التسجيل لأحد المسنين من قريتي حول التاريخ الشعبي لثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، وبالرغم من اعتمادي على صديقي وهو ابن شقيقه في التعريف علي وعلى مهمتي "العلمية المحايدة" إلا أن الرجل قاوم المحاولة مدعيا أنه لا يذكر شيئا عن تلك المرحلة البعيدة، مؤكدا أنه لم يكن له علاقة تذكر بعناصر الثورة في حينه، وبصعوبة بالغة استطعنا التسجيل له لكن مع قناعتنا أنه أخفى الكثير خوفا من مســاءلة السلطات الإسرائيلية في حينه، رحمه الله. هذا ما كان من مجتمع يرزح تحت احتلال غاشم، فما بال مجتمع يعيش حياته في دولة مستقرة كالأردن، إذ أذكر أنني أقتنيت مسجلا صغيرا لغرض التسجيل بين الحين والأخر في المناسبات وخصوصا الأعراس، وسرعان ما لمست التحسس الزائد من الناس اتجاه أهداف التسجيل التي راح الكثير من الناس يشك في أن هذه الآلة قد تستخدم للتجسس عليهم لصالح هذه الجهة الحزبية أو الأمنية، فما كان مني الا أن تخليت عن هذا الجهاز إلى غير رجعة حتى الآن.

ومهما يكن من أمر، فإن على الباحث الصبر، وسيعتاد الناس فيما بعد على عمله أو هوايته إن كانت هواية يقوم بها على أمل أن تتبلور إلى مشاريع جادة في المستقبل، والباحث ملزم بمنح الثقة للمجتمع من خلال الحفاظ على مصداقيته في كل شئ بدءا من المواعيد وانتهاء بالحفاظ على خصوصية المعلومات وسريتها واستئذان الناس في تسجيل بياناتهم أو نشرها.

وثمة ملاحظة مهمة حول وسائل التسجيل الألكتروني، فمن المفترض أن يقوم الباحث بتسجيل ملاحظاته الكتابية إلى جانب وسائله الالكترونية، مثل أن يضع أرقاما

للأشرطة أو الوسائل الأخرى، ويجعل سجلا للملاحظات الدفترية أشبه ما تكون بالفهرس، فالشريط رقم (...) هو حفلة عرس (...) التي أقيمت يوم (...)، ويتضمن الشريط أغاني، دبكات، مراسم للزواج.. إلخ.

وقد يكون من المتيسر والمفيد أيضا أن يتم تسجيل هذه الملاحظات على أول الشريط أو أخره إن أمكن، ويعتبر ذلك احتياطا آخر في حالة ضياع الملاحظات التسجيلية، وهو يوفر وحدة معلوماتية متكاملة إذا ما رغبنا بنقل الشريط إلى باحث آخر أو لإيداعه في مراكز البحث أو الأرشيفات الوطنية.. إلخ.

وأخيرا، من الضروري أن يسارع الباحث إلى عمل نسخ احتياطية من أعماله وتسجيلاته، وينأى بها عن الاستخدام، فلعله سيضطر لها إن آجلا أو عاجلا، وخصوصا أن بعض الأعطال الالكترونية قد تمسح كل جهد الباحث خلال لحظات مثلما يحدث أحيانا في أجهزة الكمبيوتر أو وسائل التسجيل الأخرى.

ثالثا – أسلوب المقابلة Interview

يتلخص أسلوب المقابلة في اللقاء المباشر بين الباحث أو الجامع وبين المستجيبين من مجتمع البحث سواء كان المستجيب فردا أو جماعة، وخلال المقابلة يقوم الباحث بتوجيه الأسئلة للمستجيبين، فيما ينحصر دور المستجيب في الإجابة والرواية وحتى الاستعراض كاستعراض بعض الرقصات أو الدبكات أو تمثيل بعض الأدوار في العمل أو اللعب.. إلخ.

وعادة ما يستخدم الباحث العديد من وسائل تسجيل البيانات خلال المقابلة أو بعدها، بدءا من القلم والورقة وحتى مختلف الوسائل الالكترونية التسجيلية المناسبة إذا ما كان ذلك ممكنا وضروريا.

ويعتبر أسلوب المقابلة من أهم الوسائل المستخدمة في جمع البيانات الفولكلورية، وقد يجوز اعتباره أهم أسلوب على الإطلاق نظرا لطبيعة المواد التراثية

التي يصعب الحصول عليها بغير استخدام أسلوب المقابلة، ولذلك فإن أسلوب المقابلة سيكون من أنجع الأساليب المستخدمة في جمع البيانات الفولكلورية.

وعندما يجري الحديث عن أسلوب المقابلة، عادة يتخيل المرء باحثا أشبه بالمحاور الصحفي المتزمت الذي يوجه الأسئلة في حين أن الآخرين يجيبون، وربما بقدر من الإجهاد أو الإحراج، وهذا الشكل من أشكال المقابلة هو الأسوأ على الإطلاق، وهو محل ريبة في نتائجه وصيغته. فعلاوة على الصيغة الرسمية المناسبة للمقابلة، التي نقصدها هنا، فالمقابلة قد تجري بصيغة مبسطة وطبيعية جدا، وهذا يعتمد على قدرة الباحث وسيطرته التامة على موضوعه، فقد يقوم الباحث بتوجيه الأسئلة والاستفسارات على الناس متجاذبا معهم اطراف الحديث، فقد يجري ذلك في منزل المستجيبين أو في العمل أو وسائل النقل، وقد يقوم بتسجيل ملاحظاته في الحال أو قد يوجل ذلك لأول فرصة سانحة، وهذا الأسلوب هو ما يمكن تسميته "بالمشافهة" والمشافهه لغة (المخاطبة، وشافهه شفاها ومشافهة أي خاطبه من فيه إلى فيه)، وهو لا يعني أن الباحث معفى من اتباع خطة أو أنه معفى من المحاذير في مثل هذه الحالات، وأولها أن يكون لدى الباحث أسئلة محددة وهو ينتظر إجابات محددة، قد يصعب الحصول عليها بغير هذه الطريقة، ومنها أن يتأكد الباحث أن المستجيب هو الشخص المناسب التي توجه له مثل هذه الأسئلة، وأنه غير معني بتلفيق الإجابات للباحث بصيغة أو اخرى لإرضاء الباحث أو ربما للتخلص منه، وأن هذا هو الوقت المناسب أيضا لسؤال المستجيب.. إلخ، لكن يجدر التنويه أن أسلوب المشافهه هذا غالبا ما يستخدمه الباحث لتقصي المعلومات والحدود والإمكانيات الأولية لموضوعه أو لرواته أو لمجتمعه، إذ أن المرحلة اللاحقة يجب أن تكون مخططة ومدروسة وموجهة تماما وفق الاعتبارات التي نحن بصدد إستعراضها في هذا الفصل حول أساليب جمع البيانات الفولكلورية.

وإجراء المقابلات في البحوث الاجتماعية قد يكون إلزاميا للباحث نظرا لعدم توفر المصادر والوسائل البديلة. ويبرز ذلك أكثر ما يبرز في حقل الفولكلور وجمع

بياناته، فإن معظم بيانات الفولكلور لا تزال في صدور الناس وألسنتهم، بخلاف ما تم في بعض المجتمعات الأوروبية التي أستطاعت إجراء مسوح شاملة لتراثها وحولته إلى وثائق مسجلة، يستطيع الباحث الوصول إليها مباشرة دون العودة إلى المصادر الأولية (الناس – الرواة والمؤدون)، ولا تزال المجتمعات العربية بحاجة إلى عمل كبير وتنقيب واسع وعميق للحصول على العناصر الأساسية لتراثها الشعبي، ومن المعروف أن معظم المصادر الأولية للتراث تتصف بالأمية أو ضعف القراءة والكتابة، ولا بد من الوصول إليها للحصول على ما لديها من عناصر تراثية، وأسلوب المقابلة هو أفضل الأساليب لهذا الغرض، وكذلك فإن أسلوب المقابلة سيكون نافعا جدا في تسجيل بيانات تراثية ليس من مجتمع الكبار وحسب، بل ومن مجتمعات الأطفال والفتيان كذلك للحصول على بيانات تتعلق بتراثهم مثل الأغنيات والألعاب الشعبية التي يمارسونها، والمقابلة هنا مع مجتمع الأطفال ستختلف عنها مع مجتمعات الكبار، وعلى الباحث التنبه لذلك بالطبع، وهو قد يضطر لاستخدام وسائل إضافية إلى جانب المقابلة مع الأطفال كالتصوير، والملاحظة التي من خلالها يستطيع فهم اللعبة دون الاعتماد فقط على وصف الأطفال أو فهمهم لهذه الألعاب.

الإعداد للمقابلة:

والمقابلة الجيدة، يسبقها تخطيط مناسب يشمل تحديد الهدف منها والمستجيب المناسب لها وتحديد الزمان والمكان المناسبين، وتستند إلى الأسئلة المعدة سلفا، والأسئلة الأخرى التي تبرز بإيحاءات الحوار في حينه، ولا يجوز أن يذهب الباحث إلى إجراء المقابلات قبل أن يحضر أسئلته تحضيرا كافيا بعد أن يكون قد حدد أهدافه جيدا، وهذه الخطوة ضرورية جدا لكي يستطيع الباحث المحاور السيطرة على اتجاه المقابلة واستغلالها أحسن استغلال، فلا ينساق إلى محاور أخرى بعيدة عن أهدافه وإن كانت ذات أهمية في مجال آخر.

والإعداد للمقابلة يبدأ أولا من تحضير الموضوع وبالتالي الأهداف الرئيسية (أي البيانات المطلوب الحصول عليها) من المستجيبين، ومن ثم تسجيلها في دفتر الملاحظات، ومن الخطوات المهمة لإنجاح المقابلة، حسن الترتيب لها سواء بالاستعانة بوسيط مقبول لدى المستجيبين أو مباشرة من قبل الملاحظ، وغالبا ما يحتاج الباحث إلى استطلاع "لقدرات المستجيب" ومدى صدقيته وأهليته للنقل، ومن الاعتبارات المهمة في المقابلة ما يلي:

١- اختيار الأشخاص المناسبين للهدف أو الغرض، أي حسن الاختيار، وهذا ممكن إذا اهتم الباحث بدراسة مجتمع بحثه واستطلاعه قدر الإمكان.

٢ - اختيار الوقت المناسب والمكان المناسب لإجراء المقابلات بحيث يكون الأمر مرضيا للمستجيب، وبما يمنحه الاطمئنان والراحة بأكبر قدر ممكن. والأصل أن يخير المستجيب في الزمان والمكان المناسبين لعقد اللقاء.

٣ - على الباحث تحديد المدة المناسبة للقاء، بحيث لا يثقل على المستجيبين، وبحيث يضمن استمرار تعاونهم خلال اللقاء، أو في لقاءات قادمة إن لزم الأمر.

٤ - وضوح أهداف المقابلة وتحديد الأسئلة المعبرة عنها والتنبه لمجريات الحوار الذي قد يفتح نوافذ جديدة لأسئلة الباحث.

٥ - قد يضطر الباحث أحيانا إلى سماع أو مشاهدة أحوال يرغب المستجيبين باظهارها لكسب التعاطف أو الدعم المعنوي او المادي أو ربما لأجل المشورة وحسب، ومثل هذا الأمر وارد جدا في ظروف المناطق الشعبية الأكثر فقرا والأقل تعليما، وعلى الباحث في هذه الحالة حسن التصرف بإظهار التعاطف بدون مبالغة، وعدم تقديم الوعود الزائفة لحل المشكلات التي تعرض عليه، وإلا اعتبر مخادعا، فحرم نفسه وربما غيره من التعاون في المستقبل.

على أن بعض الباحثين الغربيين، كانوا مضطرين لتقديم بعض الهدايا أو النقود لأفراد مجتمع البحث أو لقاداتهم نظير قيامهم بتقديم معلومات أو شهادات شفوية ذلك مقتنا كي لا تتأثر الإفادة أو الشهادة التي يقدمها للباحث، فإذا كانت قيمة هذه

العطايا مرتبطة بطول الشهادة او المادة التي يقدمها المستجيب، فإن بعضهم سـيجنح إلى الإسهاب وربما المبالغة في معطيات إفادته، والأنسب من ذلك، هو تقديم نفس العطايا على المقابلة الواحدة بصرف النظر عن مدتها أو نوعية مادتها.

ذلك ما خبر في بعض المجتمعات الغربية أو غير العربية، فماذا بالنسبة للمجتمعات العربية ؟ هل أثار الباحثون مثل هذه الملاحظة في مجتمعات عربية ؟

ندر أن أثار الباحثون في المجتمعات العربية مثل هذه الملاحظة، وإن كان بعض المستشرقين قد ألمح إليها في بعض الحالات النادرة بين البدو، لكن الكثير من الباحثين أشاروا بالفعل إلى عكس ذلك، وهو أن الناس في المجتمعات العربية غالبا ما يعاملون الباحث كأحد ضيوفهم المبجلين، ويقومون تجاهه بالكثير من عادات الضيافة من تقديم الطعام والهدايا وتحضير أمكنة الإقامة والنوم وحتى وسائل التنقل في كثير من الحالات. ومثل هذه الملاحظة لا تساق لكيل المديح لهذا المجتمع والنيل من المجتمعات الأخرى، بل إن ذلك مما يواجه الباحث فعلا وعليه في كل الأحوال تجنيب ملاحظاته الآثار الناتجة عن مثل هذا السلوك، أي بمعنى عدم تأثر ملاحظات الباحث ببعض التصرفات الشخصية سلبا أو إيجابا، إذ إن بعض الذين بحثوا في الأنساب العشائرية، تأثر بمثل هذه التصرفات ومال إلى كيل المديح لهذه العشيرة أو لشيخها من باب المجاملة أو ردا لجميل تلقاه، أو قد يجري العكس أحيانا، مما لا ينسجم مع اصول البحث النزيه.

وقد أوصى أساتذه أخرون في العلوم الاجتماعية[١١] بما يلي بشأن المقابلات:

١ – البدء بحديث مشوق غير متكلف والتقدم التدريجي نحو توضيح أهداف المقابلة وتوضيح الدور المطلوب من المفحوص (المستجيب).

٢ – إظهار الدفء والود نحو المفحوص (المستجيب)..بما يشعره بالطمأنينة.

٣ – البدء بمناقشة الموضوعات المحايدة التي لا تحمل صبغة انفعالية أو شخصية حادة لدى المستجيب. ثم الانتقال التدريجي نحو الموضوعات والأسئلة ذات الطابع الانفعالي الخاص.

٤ – صياغة الأسئلة بشكل واضح، وتفسيرها وشرحها للمستجيب كلما لزم الأمر.

ومن ذلك تجنب اللغة الصعبة على المستجيب وخصوصا التعابير والاصطلاحات اللغوية الخاصة أو العلمية وربما منها كلمة "فولكلور" في بعض الأحيان باعتبارها اصطلاحا أجنبيا. وربما الاستعاضة عنها بكلمة " التراث " أو " أسلوب الحياة القديم " و " حياة زمان " أو ما شابه ذلك.

٥ – إعطاء الوقت الكافي للمستجيب لتقديم الإجابة، والتفاعل معه بالإيماءات أو الكلمات ليستمر في حديثه.

٦ – يوجه الباحث المستجيب نحو الالتزام بالسؤال وحصر الحديث – ما أمكن – بالاتجاه الذي يريده الباحث، منعا للاستطراد الذي لا لزوم له.

٧ – على الباحث الحفاظ على التوازن في ردود فعله، بحيث لا يغالي في إظهار الدهشة أو اللامبالاه أو غير ذلك من المشاعر التي قد تدفع المستجيب إما للتحفظ أو للمبالغة.

٨ – لا يجوز إحراج المستجيب واتهامه وتوجيه أسئلة هجومية عليه تضطره للدفاع عن نفسه، وتؤثر على الجو الودي للمقابلة.

والباحث معرض لمثل هذا الموقف خصوصا عندما يتحفظ المستجيب للرد على بعض الأسئلة الحساسة من وجهه نظره على الأقل. وبدلا من الاستفزاز أو الهجوم، على الباحث المحاور البحث عن أساليب أخرى أكثر علمية وانسانية. ولنأخذ مثلا:

عندما رفض أحد الذين قابلناهم التعاون لاستيضاح بعض أحداث ثورة عام ١٩٣٦، تحرزا منه للأسباب الأمنية الاحتلالية، كان لا بد من إعادة المناورة وبذل جهود إضافية في أهمية الموضوع، في كونه أصبح تاريخا لا يهم السلطات الحالية، وفي كون الباحث حريصا على أية اعتبارات من هذا القبيل... مما أقنع الراوي للتعاون مع الباحث.

ولو كان العكس من ذلك مثلا حدث، كأن يتهم المستجيب بأنه كان هامشيا، لحصلنا على أحد الاحتمالات الثلاثة التالية: إما أن يبالغ في ردة فعله فينسب لنفسه أحداثا أو مشاهدات كاذبة، وإما أن يمتنع بتاتا عن التعاون، وإما أن يقوم بصرفنا بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ. ولذلك، فإن الصبر، والمناورة، وبذل المزيد من الجهد أفضل الوسائل في هذه الحالة.

وفي بعض الحالات سيكون من المفيد جدا، الاستعانة بمساعدة آخرين لضمان تعاون أو تفهم أكبر لمهمة الباحث من المستجيبين، وأفضل المساعدين أولئك الذين يحوزون على ثقة المستجيبين، وغالبا ما يكون هؤلاء من مجتمع البحث نفسه، كأن يكون مختار الحي مثلا أو طبيب المنطقة أو مديرة المدرسة أو ابن الراوي أو أي شخص آخر معروف وموثوق في مجتمع البحث، وفي حالات كثيرة يكون من الضروري اتخاذ مساعد أو معرف من الجنس الآخر، فإذا كان الباحث رجلا، قد يضطر للبحث عن فتاة للقيام بدور المساعد، هذا إذا تعلق الأمر ببعض المستجيبين من النساء، فوجود الفتاة المناسبة بجانب الباحث قد يساعد في تعاون المستجيبات من النساء، والعكس بالعكس أيضا، فإذا كان الباحث أنثى، فإن وجود أو حضور رجل أو أكثر مساعدين لها قد يكون مفيدا جدا في مجتمع الرجال، ويجب الإشارة إلى أن أهم مساعدة متوقعة من المساعد هي منح الطمأنينية للمستجيبين لكي يقدموا أفضل ما لديهم من بيانات يبحث عنها الباحث. على أن بعض البيانات ذات الحساسية (بتقدير المستجيبين على الأقل) تحتاج إلى حصر المقابلة بين شخوص من نفس الجنس، وذلك من مثل أغاني بعض النساء أو رقصاتهن في مجتمع محافظ، ومن ذلك أيضا مثلا بعض القصص أو النكات او النوادر التي لا يرويها الرجال أو الأولاد فيما بينهم، ودائما يظل للباحث تقدير حدود الموضوع واختيار الشخص المناسب لهذا الغرض.

لكن مع ذلك يجب الحذر كذلك من هذا الأسلوب، لأن الباحث قد لا يعلم مدى الحساسية التي قد يثيرها حضور هذا الشخص المساعد لدى المستجيبين، حتى ولو كان من نفس المجتمع أو من نفس الجنس، وأميل للأعتقاد أن مثل هذه الحساسية أكثر ما تظهر في رواية الوقائع التاريخية أو الاجتماعية، حيث قد يضطر الراوي للتعرض لذلك الشخص او تلك الجهة أو الفئة مما لا يحبذ فيه وجود طرف محلي في المجلس.. وهذه المسـألة تعتمد على تقدير الباحث نفسه، وتعتمد إلى حد ما على استطلاعه الأولي لمجتمع بحثه.

وباستطاعة الباحث تقييم مدى نجاح مقابلته من خلال عدة معايير بعد الانتهاء منها، وأهمها أن يكون مقتنعا أنه حقق أكبر وأدق قدر ممكن من البيانات، وأن المستجيب كان حسن التعاون، وكان اختياره موفقا لهذه المهمة، وأن المستجيب نفسه كان راضيا ولم يبد التذمر أو غيره من المشاعر الحادة.

توثيق المقابلة وبياناتها:

لكن ماهي حصيلة المقابلة وكيف وثقها الباحث ؟

إن طريقة توثيق أو تسجيل المقابلة يعود لتقدير الباحث معتمدا على نوع موضوعه وعلى قبول المستجيبين لهذا الأسلوب أو ذاك، فبعضهم قد يرفض التسجيل الألكتروني، وبعض الموضوعات لا تستحق مثل هذا التكلف الزائد أصلا، إذ أن الأمر ينحصر في مجموعة إجابات محددة من المستجيب وبالإمكان تسجيلها بالورقة والقلم، وفي بعض الحالات، فان بالإمكان الاستغناء التام عن التسجيل وخصوصا إذا ما كان ذلك عائقا أمام تعاون المستجيب مثلما يجري في المشافهات العابرة التي يسـتغلها الباحث للحصول على بعض البيانات المفيدة.

ومن الملاحظ أن رفض المستجيبين للتصوير والتسجيل أخذ في التراجع ولم يعد مشكلة أساسية كما كان في العقود الماضية، وذلك بفضل انتشار وسائل الاتصال وزيادة الوعي كذلك بأهمية تسجيل المواد التراثية.

لكنه من غير شك أن بعض الموضوعات لا ينفع فيها غير التسجيل الألكتروني، ومن ذلك بعض الأغاني والألحان الموسيقية والرقصات الحركية، ومن ذلك أيضا بعض المراسم والشعائر التي يمكن تصويرها من بعد لأن هدف البحث هو التسجيل والوصف.

إعداد البطاقات التسجيلية:

وثمة موضوعات أيضا لا بد فيها من استخدام الورق والقلم، فرواية التاريخ الشعبي مثلا ستتضمن بعض التواريخ أو الأسماء، وقد يصعب فهمها إلا من خلال التدقيق مع المستجيب وتسجيلها في حينه، ومن ذلك أيضا إعداد بعض الرسومات لأشكال أو أنماط العمارة أو الطرقات والحارات التي قد تعجز آلات التسجيل عنها، ومن ذلك أيضا، أن المستجيب (الراوي) قد يتحدث بلهجة صعبة على الباحث، فيضطر الباحث إلى تسجيل الملاحظات حول معناها من المستجيب نفسه أو من آخرين يفهمون اللهجة نفسها أو اللغة التي يتحدث بها، وبعض الأغاني الشعبية فيها قدر كبير من الخداع اللفظي التي يصعب فهمها بدون توضيحات في حينه، ومن ذلك بعض المواويل:

ابو فلان يا عزي ومالي
غيرك يا أبو فلان أنا مالي
أفديك يا فلان بروحي ومالي
تسلم يا أعز الطياب

فقد يصعب على الباحث فيما بعد تفسير المعاني المختلفة لكلمة مالي في الموال، وبامكان الباحث تسجيل ملاحظاته في حينها، كما يلي:

١ – مالي (١): أي رصيدي (المعنوي) الذي أعتمد عليه.

٢ – مالي (٢) تعني ليس لي (ما إلي).

٣ – مالي (٣) من المال والأملاك.

وما دمنا في شـــأن بطاقات التسجيل، فإن على الباحث التنبه دائما لكتابة المعلومات الأستنادية أو المرجعية والهوامش التوضيحية على البطاقة أولا بأول ما دام ذلك ممكنا. وأهمها معلومات الرواة وحدود الزمان والمكان والمناسبة التي تمت فيها المقابلة.. إلخ.

والحقيقة أن أنماط أو أشكال البطاقات التوثيقية متعددة، ويتحكم نوع المادة فيها، وكذلك رغبة الكاتب، لكن ذلك لا يمنع القول إن أفضل الصيغ المجربة للبطاقات التوثيقية، هي تلك التي تتخذ لنفسها نظاما معينا يسهل على القارئ العودة اليها في أي وقت، وبحيث يسهل فهمها من قبل الباحث نفسه أو أي قارئ آخر يعود اليها في أي وقت. ولذلك وجب أن تكتب بلغة واضحة، وتتضمن تفسيرات وهوامش وإرشادات حول المادة والرواة أو المصادر والتواريخ، وحتى يتم ذلك يفضل أن يقوم الباحث بتفريغ أو تبييض أوراقه التي استخدمها أثناء المقابلة على البطاقات في اسرع وقت ممكن، وإلا فقد ينسى بعض المعلومات التي كان قد سمعها أثناء المقابلة. وعادة ما تحتاج مادة التراث إلى استخدام بطاقات كبيرة الحجم.

والبطاقات عادة ما تبدأ بذكر رؤوس الموضوعات التي تتضمنها المقابلة أو البطاقة مثلما أوضحنا من قبل، ثم جغرافية البيانات (أي اسم المدينة أو المنطقة أو القرية) ثم تاريخ المقابلة ومصدر المعلومات (أسم المستجيب – مكان إقامته، نبذة عن حياته السابقة.)

وفي بطاقات المقابلة، من الضروري تسجيل اسم الراوي الثلاثي إن كان ذلك مفيدا وإذا ما وافق المستجيب للأمر، ثم تاريخ ولادته، ومكان الولادة، ومكان الإقامة الدائم، أو الأماكن التي عاش فيها الراوي، وقد يكون لذلك مغزى كبير في التراث إذا ما كان الأمر يتعلق بالبحث في أصول العناصر التراثية التي نحن بصددها، ومن الأمور المهمة في التسجيل، جنس الراوي، وعمله أو خبراته في العمل، وكذلك مستواه

التعليمي، وقد يكون من المفيد تسجيل حالته الاجتماعية، أي إن كان متزوجا وغير ذلك من المعلومات التي يقدر الباحث أهميتها، لكن في كل الأحوال على الباحث تجنب البحث عن المعلومات الشخصية غير ذات العلاقة بموضوعه بقدر ما يفطن إلى تلك ذات الأهمية لموضوعه، والملاحظات التالية حول الراوي وهوامش الحكاية مثالا لأهمية هذه البيانات:

الموضوع: الحكايات الشعبية الفلسطينية - (عرنجس وبرنجس).

المكان: الأردن - مخيم البقعة.(منزل الراوي).

التاريخ: شهر أذار ٢٠٠٦.

الراوي: الحاج كامل محمد الحكواتي.

تاريخ الميلاد: ١٩٣٠ (تقديرا) -

مكان الولادة: بيت جبرين (فلسطين) انتقل للأردن لاجئا عام ١٩٤٨، المستوى التعليمي: أمي.

الحاله الاجتماعية: أرمل منذ ١٩٨٥، عمل مزارعا ثم في التجارة.

وسيلة تسجيل الرواية: مسجل الصوت، والقلم.

ملاحظة: ذاكرة الراوي بحالة ممتازة جدا حين إجراء المقابلة ولا يمانع في الإفصاح عن اسمه في النشر.

ملاحظة: حضر المقابلة عدد من أبناء الراوي والجيران (كمستمعين) وكان ذلك عاملا مساعدا لتهيئة المناخ المناسب لنجاح المقابلة.

حكاية: عرنجس وبرنجس (عن عمر الساريسي - بتصرف).

وحدوا الله - لا إله إلا الله

صلوا على النبي - عليه الصلاة والسلام

يحكى أن في عنزة إلها ولد، يعني جدي أسمه عرنجس، وبنت يعني سخلة،أسمها برنجس.

وكل يوم تقول هالعنز:

يو(١) عرنجس يو برنجس وأفتحي البابين وأنزح
في كريناتي (٢) عشيب(٣) في بزيزاتي(٤) حليب

وكل يوم تخرج إلى الخلاء، وتحضر الأعشاب بين قرونها، وتحضر الحليب في بزازها (أثدائها)، ويوم تصل للباب تقعد تدق عليه بقرونها:

يو عرنجس يو برنجس وافتحي البابين وانزح

في قريناتي عشيب في بزيزاتي حليب

أثاري(٥) الغولة كانت تتصنت عليها وتسمع شو بتقول، وثاني يوم تيجي الغوله تعقب أمهن وهي غايبة وتدق الباب عليهن وهي تقول:

يو عرنجس يو برنجس، يعني مثل ما كانت إمهن تقول.

فتقول عرنجس لبرنجس، والله ما هو صوت أمنا، فلم تقبلا أن تفتحا الباب، وراح واحد دخل في العسلية (٦)، والثاني في الجرة (٧).

فراحت الغولة تحفر تحت الباب بأظافرها الكبيرة، ودخلت عليهن، وكسرت العسلية والجرة، ومن كثر ما هن صغار، زلطتهن (٨) الغولة زلط، يعني بدون مضغ. المسويات (٩)، أجت إمهن العنز، وقعدت تنادي:

يو عرنجس يو برنجس يو عرنجس يو برنجس

لكن بدون فايدة، مفيش ولا صوت إلهن، ولا نفس، وبعدين عرفت على طول إن الغولة أكلتهن، ومين بدو يكون غيرها.

راحت العنز على بيت الغولة تركض ركض، وقفت وراحت تنادي عليها:

- **تعالي يا غولة نتبارز في الميدان.**
- **مش فاضي، بأمشط شعر أبوي.**
- **ورجعت بعد شويه، ونادت تعالي نذهب للميدان**
- **مش فاضي، بأمشط شعر أخوي.**

وكمان مرة ومرة، وهي تقول مرة بمشط شعر اختي ومرة شعر أمي. وأخر شيء طلعت الغولة، وهي تقول في نفسها: بسطح بطنها وبقرش عظماتها وببلعهن بلع.

أثاري العنزة، كانت متفقة مع الحداد أنه يسوي لها قرون حديد، ويسوي للغولة قرون طين. راحن على الحداد، ولبسن القرون، العنز قرون الحديد، والغولة قرون الطين.

ونزلن للميدان، حطت العنز قرونها في بطن الغوله وسطحتها سطح، فطلعن عرنجس وبرنجس يتنططن، لأنه الغوله زلطتهن زلط بدون ما تقرشهن وتمضغهن.

فأخذت العنز أولادها ورجعت لبيتها، وظلت الغولة مرمية (ملقاة) على الأرض في مطرحها.

وطار الطير الله يمسيكم بالخير

هوامش:

١ – يو: يا – للنداء

٢ – كريناتي او قريناتي: تصغير قروني جمع قرن.

٣ – عشيب: تصغير عشب.

٤ – بزيزاتي: تصغير بزازي أي أثدائي أو ضرعي.

٥ – أثاري: فإذا ب

٦ – العسلية: إناء فخاري صغير لحفظ العسل أو الزيوت.

٧ – الجرة: إناء فخاري أكبر من العسلية لحفظ الماء خصوصا والسوائل عموما.

٨ – زلطتهن: أي بلعتهن بلعا.

٩ – المسويات: أي المساء وتخصيصا أول المساء.

الأشكال الالكترونية للبطاقات والتوثيق:

من المعروف أن وسائل التسجيل والتوثيق الألكتروني أصبحت متعددة جدا ومتطورة يوما بعد يوم، وبعض هذه الوسائل مناسب لهذا الغرض وغير مناسب لذاك، وفي كل الأحوال وبكل الوسائل الالكترونية المستخدمة، يفضل دائما تحضير نسخ احتياطية، لأن الوسائل الحاسوبية معرضة - عادة - للدمار أو التخريب بفعل عوامل عديدة منها الفيروسات مثلما يحدث في النسخ الكمبيوترية والأفلام والأشرطة التسجيلية، وقد يكون من الممكن تحويل بعض هذه المواد المسجلة إلى نسخ مطبوعة على الورق وحفظها في الملفات، لأن للملفات ميزاتها أيضا وخصوصا في كونها أطول عمرا من تلك الالكترونية.

والوسائل الالكترونية، يجب أن تعامل معاملة البطاقة العادية من حيث البيانات والمعلومات التوضيحية والتفسيرية والإسنادية، فعلاوة على سطح الوسائل ودفاتر الملاحظات كالفهارس المعدة خصيصا لما نملك من وسائل تسجيلية، يفضل تثبيت هذه البيانات الإسنادية في متنها إن كان ذلك ممكنا، كأن نسجل في بداية شريط التسجيل أو في آخره بيانات العنوان والراوي والتاريخ والمكان... إلخ وهذا يستدعي الاحتياط لذلك قبل التسجيل، وبالنسبة للأشرطة المصورة كذلك، يفضل وضع هذه المقدمات سواء بالصوت أو بالحرف، لأن في ذلك فائدة كبيرة فيما لو فقدت الملاحق المرتبطة بها، وكذلك فإنها ستشكل وثائق متكاملة ما دامت تتضمن تلك البيانات الضرورية، ويصبح من السهل نقلها وتوثيقها في أي مكان آخر، وستبرز أهمية ذلك في حالة غياب الباحث بسبب الموت أو غيره، وهذا مما يحدث في هذه الحياة باستمرار.

رابعا - المصادر المكتوبة (البحث المكتبي)

يمكن القول أن المكتبة هي أهم مصادر البحث بوجه عام، وذلك لأنها تمثل حصيلة انتاج الفكر الإنساني في مختلف ميادين المعرفة، فالمعرفة الإنسانية معرفة متصلة ومتنامية يرفد بعضها بعضا على نحو مستمر. [١٢] والبحث المكتبي هو البحث

الذي يعتمد على المصادر والمراجع المكتوبة التي توجد في المكتبات والأرشيفات والسجلات وبين أيدي الناس وأينما وجدت. والبحث المكتبي يرتكز على ما في هذه المصادر والمراجع والوثائق المكتوبة، بحيث أنها تكون كافية للإلمام بموضوع البحث وتحقيق أغراضه دون اسـتخدام الأساليب البحثية الأخرى.

والمصادر المكتوبة قد تكون مخطوطة وغير مطبوعة ومنشورة، والوثائق المخطوطة لا يعني أنها مخطوطة باليد حصرا، بل قد تكون مضروبة بوسائل الطباعة الآلية كالحاسوب، ولكنها لم تطبع وتنشر بالعديد من النسخ، وكثير من الأطاريح والرسائل الاكاديمية تعتبر مخطوطة، وثمة الكثير من الكتب والمؤلفات القديمة التي لا تزال مخطوطة ومودعه في المكتبات وخصوصا المكتبات الغربية. حيث يختار بعض الباحثين العودة اليها والإقتباس منها، او قد يقومون بتحقيقها وطباعتها ونشرها.

أنواع المصادر المكتوبة:

والمصادر المكتوبة عادة ما تصنف إلى نوعين: المصادر الأولية أو "المراجع"، والمصادر الثانوية. وقد أدخل بعض الباحثين نوعا آخر جديدا من مصادر المعلومات سماه "المصادر الثالثة".

والمراجع "المصادر الأولية": وتضم كل من الآثار والوثائق، والكلمة المنقولة أو المأثورة، فالآثار تدل على وجود شكل أو نمط معين من أنماط الحياة الاجتماعية، أما الوثائق فهي سجل الاحداث أو وقائع ماضية قد يكون مكتوبا أو مصورا أو شفهيا. اما السجل الكتابي فيشمل المخطوطات والرسائل والمذكرات، والسجل المصور غالبا ما يضم الفنون المختلفة من نحت ورسم، اما الكلمة المنقولة، فهي التي لم تدون مثل الحكم والامثال والاساطير وعبارات التحية والمجاملة والرقصات والاغاني الشعبية (١٣)

ومن أمثلة ذلك "الكتب السماوية" فهذه الكتب تتضمن نصوصا لم تنقل بواسطة مؤلفين وسطاء، إنما تنسب إلى مصدرها الأصلي مباشرة، وقد تكون كتبا عادية مؤلفة " تفسير الأحلام لابن سيرين " أو " رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ ". أو " مقدمة أبن خلدون لمؤلفها ابن خلدون " او " التقرير الإحصائي لدائرة الإحصاء.." أو " عادات الولادة والزواج والوفاة في قرية ارطاس، للباحثة هيلما قرانكفيست " أو "... إلخ.

والمصادر الثانوية هي الكتب والمؤلفات التي يكتبها مؤلفوها مستندين فيها على ما كتبه أو ما قاله غيرهم في الموضوع، ومن ذلك الصحف والمجلات والموسوعات ودوائر المعارف والمطبوعات الأخرى التي تصف أحداثا أو تنقل بيانات أو معطيات عن مصادرها الأولية. فتفسير القرآن الكريم لابن كثير مثلا يعتبر مصدرا لا مرجعا بالنسبة لنصوص القرآن، أما بالنسبة للتفسير فهو مرجع لأنه نقل مباشر عن صاحبه بدون وسيط، فاذا نقل مؤلف اقتباسا عن ابن كثير في التفسير، ورغب باحث آخر بنقل هذا الاقتباس، اعتبر هذا النقل نقلا من مصدر وليس من مرجع، ولو عاد الباحث مباشرة إلى إبن كثير، فهو في هذه الحالة يعتمد على المرجع ذاته. ومن أمثلة المصادرالثانوية أيضا: " أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية " لمجموعة من المؤلفين " أو " حكايات شعبية من فلسطين والأردن "، جمع وإعداد عبد الرحمن الساريسي وأبراهيم يعقوب عبد الهادي. أو " ألأغاني الشعبية في قرية كذا.. إعداد وجمع فلان "...

فالمصادر الأولية " المراجع " هي المصدر الأولي او الأساسي للحصول على البيانات أو المعلومات، وهذه البيانات أخذت من أفواه أصحابها أو من سجلاتهم أو قام الكاتب نفسه بنقلها كما هي دون تعديل، فيما أن المصادر الثانوية كانت اقتباسا للكاتب من غيره من المؤلفين أو الجامعين أو الباحثين، تماما كعمل الصحفي الذي يكتب واصفا حدثا معينا، فهذا بحد ذاته مرجع، فإذا جاء باحث أخر، واقتبس ذلك الوصف، فإنه في هذه الحالة يصبح مصدرا، وقد لا نستطيع الوصول إلى المصدر الأصلي لكننا قد نستطيع الوصول إلى مصادر تغنينا عن ذلك المرجع، ومن ذلك المصادر التي تتضمن ترجمات عن النصوص الأجنبية، التي تسهل على الباحث الأطلاع على ما يفيده أو ما يستلزمه من معطيات يصعب عليه الوصول إليها لو لم تنقل من خلال هذه المصادر.

والبحث المكتبي مع أنه من أكثر أشكال البحوث في العلوم الطبيعية والإنسانية، إلا أننا نجد الكثير من المصادر والمؤلفات في أساليب البحث العلمي تتجاهل هذا الأسلوب من البحث مقتصرة على الأساليب الثلاثة الأولى، والحقيقة أن هذا

الأسلوب معروف ومتبع في الكثير من البحوث الإنسانية، خصوصا في الغرب، بعد أن امتلأت المكتبات الغربية بالمراجع والمخطوطات والمسوحات والمصنفات التي تمكن الباحث من تحقيق أغراضه من خلال المكتبة وحسب، فجميع المواد والبيانات التي تستلزم الباحث موجودة وموثقة في المراجع والمصادر وما على الباحث إلا أن يبذل الجهد المنظم للحصول عليها.

بل إن بعض الباحثين (١٤) راح يصنف مصدرا ثالثا من مصادر المعلومات المكتبية جاعلا من المصنفات والكشافات وقواعد البيانات الموجودة في المكتبات مصدرا ثالثا، وهذه المصادر تتلخص في أن جهة ما أخذت على عاتقها تجميع البيانات وتصنيفها ليسهل على الباحثين الوصول إليها، وهذه التصنيفات تتبع واحدا أو أكثر من الأسس التالية:(العنوان – الموضوع – التاريخ – المكان – المؤلفين).

ولنأخذ مثلا من واقع تراثنا الشعبي حول البحث المكتبي، فثمة العديد من المؤلفات التي أعدت حول الأمثال الشعبية في المجتمعات العربية مثل فلسطين والأردن، والبحث الميداني في هذا المجال لن يضيف الكثير إلى البحث وقد يفيد بالطبع، ولكن ذلك قد لا يكون هدفا للبحث، والهدف الرئيسي للبحث قد ينحصر في " الجانب اللغوي في المثل " أو " مكانة المرأة في المثل الشعبي والأقوال المأثورة ". وقد حقق الكثير من الباحثين الغربيين إنجازات مهمة جدا من خلال هذا الأسلوب يشار فيها إلى الأطالس أو المعاجم التي تجمع وتقارن أو تفسر الكثير من العناصر الفولكلورية مثل معاجم الحكايات الشعبية العالمية، ففي هذا العمل تم جمع الآلاف من الحكايات الشعبية من خلال العديد من الأساليب المتبعة، ثم جاء عدد من الباحثين وأستخدموا هذه الحكايات وقاموا بتصنيفها وشرحها وفق نظم معينة كنظام " رأس الموضوع " وهذه الأنظمة تسمح للقارئ بالاطلاع على كل ما أمكن من الحكايات التي تتضمن " الموضوع " المشار إليه في رأس الموضوع، ومن ذلك أيضا الدراسات التي أجريت على القصص والحكايات التي جمعها الأخوين جريم في ألمانيا، فقد قام عدد آخر من الباحثين بإجراء العديد من الدراسات عليها تناولت جوانب متعددة من النص، كالجانب اللغوي أو المعتقدات أو القيم.. إلخ مما تضمنه النص في ثناياه.

ومن أمثلة البحث المكتبي " الحرف والمهن الشعبية في المجتمع المصري قبل مائة عام مثلا " أو " الخرافات والأساطير العربية في العصر الجاهلي " أو " أوجه الشبه في عادات الزواج بين المجتمع الأيطالي والمجتمع التركي ".. إلخ.

والملاحظ أن الموضوعات التي أشرنا إلى أمثلة منها قد يكون من المستحيل او من المتعذر الحصول عليها من الميدان أو المجتمع الأصلي، فنحن نتحدث إما عن فترة زمنية بائدة قبل مئات أو آلاف السنين، أو أن هذا المجتمع بعيد المنال ولو أنه لا يزال قائما، كالمجتمع التركي والمجتمع الإيطالي، ثم إن البيانات أو المواد والنصوص التي سيعتمد عليها البحث متوفرة في المراجع والمصادر التي استطلعناها مبدئيا وتأكد لنا أن ثمة ما يكفي من المادة لإجراء البحث، والباحث في مثل هذه الحالات سيعود إلى العديد من المصادر المكتوبة ككتب التاريخ والأدب وكتب الرحالة والسجلات الرسمية في تلك الفترة ليستخلص ما يجده فيها من عناصر ذات العلاقة بموضوعه.

في هذه الحالة، ســيكون هذا النوع من البحوث على أشكال متعددة كأن يهتم بالجانب التاريخي للموضوع، أو الجانب اللغوي، أو الجانب الجغرافي، اي مصدر هذه المعطيات الجغرافي – الأقليمي، والجغرافيا التي تنقلت فيها هذه المعطيات وما طرأ عليها من تعديل أثناء ذلك، وقد يهتم الباحث بالوصف فقط، أي بجمع هذه المعطيات وتصنيفها فقط، مما سيوفر للقارىء والباحث مصدرا شاملا ومتخصصا في جانب معين من جوانب التراث، كأن يكون " القصيدة النبطية في مرحلة الانتداب البريطاني للأردن " أو " أشكال وانماط الأسواق الشعبية في مدينة دمشق في بداية القرن العشرين " أو " اللباس الشعبي في الجزيرة العربية على مر العصور ".. إلخ.

صحيح أن كل هذه الأشكال تتشارك في أنها تعتمد على الوثائق المكتوبة والجاهزة، ولذلك يسميه بعضهم " البحث الوثائقي "، ويسميه آخرون " الأسلوب المكتبي"، وهو المنهج الذي يتناول الوثائق المتوفرة بالتحليل والنقد والتفسير واستنتاج ما بين سطورها من متغيرات أو عناصر... إلخ. إلا أن الأسلوب المكتبي – بنظرنا – يختلف عن الأسلوب الوثائقي وأسلوب تحليل المضمون، فالوثائقي يبحث غالبا في ثنايا

وثائق أولية أو تاريخية لبناء نص جديد أو لتحقيق نصوص الوثيقة، فيما أن تحليل المضمون يهدف إلى استقراء أو استنباط مقولات أو فروض جديدة أو تدعيم أو نفي فروض قائمة، بينما يتسع الأسلوب المكتبي ليشمل الأساليب الأخرى لكن داخل حدود المكتبات والكتب، وقد يبدو من نافلة القول أن الباحث غير ممنوع من الاستعانة بما يراه مناسبا من وسائل أخرى كالمقابلات والاستبيانات، غير ان موضوع بحثه يغلب عليه العمل في المكتبات، ولذلك تميز بهذا الأسم لتأكيد تميزه عن الأساليب الأخرى، فكل منها يحتاج إلى منهجيات (فنية) وقدرات بحثية متفاوتة.

لكن، كيف يتميز البحث المكتبي عن الأدوات والأساليب الأخرى وكيف يتشابه معها ؟

يتميز البحث الوثائقي – المكتبي عن غيره من الأساليب في كونه أسلوبا مناسبا للكثير من المعطيات التي لا يمكن للأساليب الأخرى الالمام بها، وعادة ما تكون هذه المعطيات تاريخية او أدبية أو في الفلسفة او في العلوم النظرية البحتة، ولا يمكن العودة فيها إلى الرواة الأصليين الأحياء، أو أن تكون هذه المعطيات تدور أو تصف مجتمعات بعيدة أو يصعب على الباحث الوصول إليها لأسباب التنقل أو اللغة أو غير ذلك.

والمعطيات المكتبية الجاهزة هي أشبه ما تكون بالرواة في التراث الشعبي، أو أشبه ما تكون بالمعطيات التي يتم الحصول عليها عن طريق أسلوب الملاحظة، لكن البيانات التي يتم الحصول عليها بواسطة الملاحظة تكون تحت المسؤولية الكاملة للباحث الملاحظ، في حين أن هذه المعطيات التي توفرها الوثائق والكتب تقع تحت مسؤولية الباحث المحقق والمصدر الأصلي لهذه الوثائق، ودور الباحث هنا تقييم مستوى موثوقية هذه الوثائق والمراجع ومعطياتها وتحمل المسؤلية بشـــأنها رفضا أو قبولا.

والأسلوب المكتبي سيكون ناجعا ومفيدا في اختصار الوقت والكلفة التي يحتاجها الباحث للإلمام بالمواد التي يحتاجها لاستكمال بحثه، وهذه مشكلة واقعية حقيقية من شـــأنها الحد من رغبات الباحثين والدارسين.

والأساليب الدراسية هي في الأساس أدوات ووسائل لجمع البيانات كميا ونوعيا، فالوثائق والمراجع والمصادر في هذه الحالة أشبه ما تكون بالرواة الأصليين، وعلى الباحث التنبه لما يناسبه من وثائق وما لا يناسبه تماما مثلما يتعامل مع الرواة في أرض الواقع، فليس كل راو مناسبا أو يتصف بما يكفي من المصداقية، وكذلك الحال مع الوثائق، فكل وثيقة أو مصدر أو مرجع هي بمثابة الراوي أو الشاهد، ووجب على الباحث التعامل مع هذه المعطيات بحذر لأنه ليس كل ما هو مكتوب غاية في الموثوقية أو السلامة، وخصوصا ما تعلق منها بمواد التراث، فالرواية التاريخية للحدث أو وصف الظاهرة سيختلف من راو إلى أخر ومن مصدر إلى آخر، وكذلك الحال في الحكايات الشعبية، فسيلاحظ الباحث ان لنفس الحكاية عدد من الصيغ، وقد تختلف حتى في بعض العناصر الأساسية للحكاية، وكذا الأمثال، فصياغاتها مختلفة من مجتمع لآخر أو من فرد لآخر في بعض الحالات.

خامسا – التحقيق والتحري والاستقصاء

التحري والاستقصاء هو أسلوب للتحقيق بغرض الوصول إلى الحقائق المتعلقة بقصية ما، التحقيق في هذا المنهج يختلف عنه في المنهج المعروف بالتحقيق الذي يقصد به تحقيق المخطوطات القديمة، وقبل تقديم شرح واف لهذا المنهج، نبدأ بتعريف منهج " تحقيق المخطوطات " المعروف بين الباحثين لتعريف المخطوطات القديمة.

يقال صح الأمر أي صح وثبت، وأحق الأمر: أحكمه وصححه. وحقق الرجل القول: صدقه. وفي اللسان تحقق عنده الخبر أي صح. وحققت الأمر وأحققته: كنت على يقين منه. أما في الاصطلاح فالتحقيق هو: إثبات المســألة بدليلها. والكتاب المحقق في الاصطلاح المعاصر هو الذي صح عنوانه وأسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه [١٥].

على أن الباحث في موضوعات التراث الشعبي نادرا ما يحتاج إلى منهج التحقيق المعروف، وهذا لا يعني أن الباحث في التراث الشعبي لا يحتاج إلى هذا الأسلوب، ولذلك وجب عليه الاطلاع عليه والإفادة من أساليبه في التحقيق والضبط،

وقد اتفق المختصون على وضع أسس وقواعد لمثل هذا الجهد العلمي يجدر بالباحث الاطلاع عليها.

وبما أن الباحث في التراث الشعبي كثيرا ما يحتاج إلى أساليب التحقيق في بلوغ الحقائق والنصوص التراثية، فقد اخترنا أن نسـم هذا الأسلوب بأسلوب " التحري والاستقصاء " تمييزا له عن التحقيق المشار إليه في ميدان المخطوطات، خصوصا أن قضايا التراث تختلف عن قضايا المخطوطات في جوانب عديدة، ولذلك يسـتلزم الباحث التزود بأساليب أخرى تعينه على تحقيق أهدافه.

وأول وجوه الاختلاف بين تحقيق المخطوطات والتحقيق في التراث الشعبي هو أن الباحث في المخطوطات " المحقق " إنما يتعامل مع نسخ أو نصوص كاملة أو وافية بين دفتي الكتب او المخطوطات، وما يهدف اليه من بحثه قد ينحصر في واحد أو أكثر من **الأهداف التالية:**

١- التحقيق في مؤلف النص المجهول المؤلف في النص المتنازع عليه أو في تاريخ أو زمان التأليف.

٢- التحقيق في الزيادات أو النقص أو التكرار في النص.

٣- التحقيق في تعدد النسخ لنفس النص مع إختلاف بين بعض أجزاء النص.

على أن قضايا التراث الشعبي نادرا ما تتضمن مثل هذه الإشكالية، فالنص التراثي ليس نصا لمؤلف واحد، فإن وجد نصا تراثيا مخطوطا، ورغب باحث التحقيق (التحري) فيه، فإن القضايا التي سيحقق فيها غالبا ما تختلف عن التحقيق العادي، ومن قضايا التحري الرئيسية في النص التراثي:

١ – التحري في الزمن الذي جمعت فيه المادة والزمن الذي كتبت أو طبعت فيه.

٢ – التحري في تراثية النصوص، أي في كونها نتاجا جماعيا وليس نتاجا فرديا لأحدهم. ومن ذلك التحقيق في بعض الأغاني أو القصائد الشعرية أو الحكايات أو الخرافات.

٣- التحري في الجماعة أو المجتمع الذي ينسب إليه النص التراثي. فقد يجمع بعض الرحالة أو الهواة بعض النصوص من مجتمعات متفرقة دون أن ينسبوا المادة إلى مجتمعها، ومثل هذا الأسلوب متبع كثيرا لدى الهواة والمتحمسين للتراث الشعبي العربي.

٤ - التحري في الوقائع التي ذكرها بعض الكتاب أو الرحالة حول بعض المجتمعات، وكثيرا من هذه الكتابات ما يخلط الوقائع بالخيال أو بالمبالغة أو بالتواتر غير الدقيق. كأن يقول الكاتب "وأظن أن مذبحة وقعت في ذلك التاريخ..، أو (سمعت أن أولئك الناس يعبدون الجان، أو أخبرت بأن شيخ العشيرة ينتخب بالتصويت السري..) فمثل هذه القضايا قد تحتاج إلى تحر واستقصاء إذا كان باحث ما مهتم بها تحديدا.

٥ - التحري والاستقصاء كثيرا ما يجري في الوقائع التاريخية، سواء في التاريخ السياسي أو الاجتماعي لهذه الجماعة أو ذلك الشعب أو تلك القرية.

٦ - يفيد التحري والاستقصاء في معرفة المصادر الجغرافية للعناصر التراثية، فقد يهتم باحث في معرفة الأصول الجغرافية للحكايات الشعبية أو لاحدى الملاحم، وقد فعل الباحثون الأوروبيون والروس مثل هذه الأبحاث منذ عشرات السنين، وقد سافر بعضهم آلاف الكيلو مترات أغلبها مشيا على الأقدام للتحقيق في بعض القضايا التراثية وإستقصاء أصولها. تماما كما فعل رواة الحديث النبوي في العصرين الأموي والعباسي، ومثل ذلك يســتخدم أيضا لمتابعة الكثير من العناصر التراثية الأخرى ومنها اللهجات، أو بعض المفردات اللغوية الداخلة على اللغة.

ولقد كانت دراسة أهالي جزر التروبرياندية من قبل مالينوفسكي رائد الأنثروبولوجي – بين عامي ١٩١٥ – ١٩١٧ واحدة من أطول الأعمال التحقيقية التي أنجزت في ذلك الحين، فتحول الباحث معها إلى محقق يعتمد على تحقيقاته الخاصة،

ولم يعد بحاجة للاستناد إلى أقوال مشكوك فيها... أو إلى معاينات تمت على سبيل الهواية، فصار النياس(*) والحالة هذه محققا ناسوتيا، وصار المنظر جامعا بنفسه لمواد تحليله. (١٦)

وتجربة مالينوفسكي الشهيرة، هي إذا مزيج من الأسلوبين الأهم: الملاحظة بالمعايشة والمشاركة جنبا إلى جنب مع التحري والاستقصاء ثم أسلوب المقابلة، وهذا يؤكد مرة أخرى حاجة الباحث لكل اساليب البحث في معظم الحالات من دراسة المجتمع أو الثقافة عموما.

والتحقيق بمفرده قد لا يكون كافيا في كثير من القضايا التراثية، إذ أن التحقيق غالبا ما يجري في التراث المدون، وهذه القضية أصبحت ميسرة بسبب الكميات الكبيرة من المعطيات المصنفة في المكتبات في قضايا التراث، لكننا في العالم العربي بعيدون عن هذا المستوى، ولا نزال بحاجة إلى المزيد من الجهود والمسوح الواسعة لإنجاز هذا الهدف الذي لا يزال يبدو مستحيلا، فإذا رغب باحث بتتبع نص ما لم تلم به الكتب أو المصنفات أو ألمت باجزاء منه، فإنه سيحتاج إلى تحقيق ميداني وهذا ما نسميه هنا " الاستقصاء " الاستقصاء لغة البحث عن الأمر حتى أقصى أطرافه.

إذا فإن التحري والاستقصاء أسلوب بحثي، ويقوم من خلاله الباحث بدور المحقق أو المتقصي للحقيقة وذلك بهدف التحقق والتأكد من صحة بعض البيانات أو المواد التي يشوبها بعض النقص أو الغموض أو بهدف التحقق من مصدرها الاجتماعي أو الجغرافي أو الزمني. والباحث في حقول التراث قد يعترضه مثل هذا الأمر، فقد يقع بين يديه نص تراثي مفيد، وقمين بالتحقق والنشر، ولكن هذا النص تعتوره بعض نقاط الغموض التي اشرنا إليها، وهو في هذه الحالة مطالب بتحقيق النص وتوضيحه وتدقيقه قبل نشره أو قبل اعتماده. وقد يجد نصوصا غامضة أو ناقصة كالحكاية أو الملحمة وينوي الباحث معرفة أوجه النقص فيها ومعرفة مصدرها الجغرافي أو الإقليمي أو

---

* - **النياس – الأناسي والنياسي:** الباحث او العالم المختص في علم الأنسان.

الفترة التي ولدت فيها مثل هذه النصوص، فهو يتحرى من راو إلى آخر ومن مصدر إلى آخر، وقد يتبع أساليب مقارنة، وقد يضطر للتحري في الآثار المادية التي ظهرت في النص لتتبين له الحقيقة أو جزء منها.

وكثيرا ما يحتاج الباحث استخدام هذا الأسلوب في موضوعات التاريخ الشعبي أو الاجتماعي أو التاريخ الأدبي، وهنا يبذل الباحث كل ما وسعه من أساليب وأدوات للبحث عن الحقائق المرجوة من مقابلات وملاحظات ومراجع مكتوبة وآثار دارسة لا تزال ماثلة في الأرض، وقد يستخدم الدراسات المقارنة خلال هذا الأسلوب إذا تبين له أن ثمة فائدة مرجوة لذلك، ومثل هذا الأسلوب المختلط قام به عدد من الباحثين الميدانيين المستشرقين في دراسات التوراة والتراث الشعبي للشعب الفلسطيني، افتراضا منهم أن هذا التراث أو جزءا كبيرا منه كان سائدا في الزمن التوراتي الذي عاش فيه اليهود في هذه البلاد. وقد برزت هنا مشكلات حقيقية في الكثير من هذه الأعمال، أهمها غلبة الأهداف الذاتية للباحث على الحقائق العلمية، إذ حاول هؤلاء الربط بين التراث الفلسطيني والتراث التوراتي بدون الأخذ بعين الأعتبار مصادر التراث الفلسطيني العربية والسامية التي كانت أسبق منها على الزمن التوراتي، علاوة على تقارب جذور التراث السامية أصلا من لغة وعادات وتقاليد وديانات... إلخ.

والمشكلة الثانية التي قد تبرز هنا هي في الخلط بين النص الأساسي، وبين تعليقات أو وجهات نظر الباحث، مما يخلط عناصر النص الأصلي بغيره من النصوص التي يدخلها الباحث بقصد أو بغير قصد. وبالطبع، فإن على الباحث المحقق الفصل بين تعليقاته وبين النص الأساسي، ويكون ذلك بجعل نصه في الهوامش، أو على العكس من ذلك. ومن البديهي ان يكون المحقق أمينا في نقل النص مثلما هو بالأصل، وعليه الالتزام بهذا المبدأ بالجملة وبالكلمة والحرف وباشارات الفصل بينها كذلك. أما ما يتدخل فيه المحقق فوجب دائما الاشارة إليه بدون هوادة.

وعلى كل حال، فإن التحري والاستقصاء عمل من أصعب الأعمال نظرا لما يستلزم ذلك من صبر وسعة إطلاع، ونظرا إلى حاجة الباحث المحقق للاستعانة بعدد آخر من الوسائل وربما المعارف والعلوم وفق ما يقتضيه الموضوع.

أما والاستقصاء أشبه ما يكون بتحقيق المخطوطات المعروف، لكنه يختلف عنه في كون التحقيق يستند إلى مادة أساسية مكتوبة، غير أن الأستقصاء سيكون مفيدا في الحالات التي لا يكون فيها لدى الباحث نصا كامل او متماسك، وقد يكون لديه جزء يسير من النص، أو طرف خيط فقط، أستطاع الباحث الوصول إليه دون أن يجد ما يكفي لاستكمال هذا النص. وقد يتوفر للباحث نص متكامل، وهو بحاجة إلى تقصي محدد عن: مؤلفيه أو ظروف تأليفه أو بعض العناصر الزائدة أو الناقصة فيه.

وموضوع الاستقصاء قد يكون مجموعة من القصائد، أو حتى قصيدة شعرية واحدة، وقد يكون حكاية أو خرافة أو ملحمة أو أسطورة أو أحداثا معينة مما يندرج في نطاق التاريخ الشعبي لهذه المنطقة أو تلك، لهذه المرحلة أو تلك... إلخ، والباحث هنا مطالب باستكمال ما هو ناقص أو غير مؤكد من النص، غير أن المادة التي يبحث عنها الباحث هنا لا تتوافر في الكتب أو المخطوطات المكتوبة، وقد نجد بعضا منها في هذه المصادر المكتوبة، والباحث هنا ملزم بالبحث عن مصادر أخرى كأن تكون الرواة الذين عايشوا تلك المرحلة التي يستقصي فيها الباحث، أو قد تكون بعض الرواة الذين شاركوا في الأحداث المرتبطة بالموضوع الذي يجري إستقصاءه.

وقد قام بعضهم بمثل هذا العمل الذي يجمع الاستقصاء مع التحقيق، ومن ذلك مثلا ما قام به بعض الباحثين العرب أو اليهود في التحقيق والاســتقصاء بشأن بعض المذابح أو الوقائع التي وقعت خلال حرب عام ١٩٤٨ أو ما قبلها وما بعدها. وكان الهدف هو استجلاء الوقائع التي وجد لها " طرف خيط " إما في روايات الناس، أو في بعض الوثائق الرسمية أو الصحفية. وقام باحث أخر(*) التحقيق في بعض النقوش

* – سليمان بن عبد الرحمن الديب، نقوش الحجر النبطية، (الرياض – مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٨).

اللغوية في مناطق الحجر النبطية، واستقصى ما كان ناقصا منها في المتاحف والمكتبات الفرنسية، حيث كان بعض الباحثين قد سجل هذه النقوش في فترة سابقة قبل أن تتعرض للكثير من التآكل الذي أصابها. ولم يكتف بما وجده عند الفرنسيين، بل فقد أقام لذلك بحوثا وتحليلات لغوية وتاريخية فند فيها بعض التفسيرات وثبت أخرى واقترح ما رآه مناسبا لما أشكل من نقوش وحروف.

والعملية قد تبدأ يالاستقصاء، ثم تتحول إلى التحقيق، أو قد يجري العكس، والباحث يقرر ذلك وفق موضوعه، فإذا وجد " طرف الخيط " في إحدى الوثائق مما يشير إلى وقوع مذبحة مثلا، لكن هذه المعلومات غير وافية في جوانب عديدة، فإن أمام الباحث في **هذه الحالة أحد أسلوبين:**

أولا: الاستمرار في البحث في الوثائق الرسمية والصحفية وغيرها مما يرتبط بزمان أو مكان الواقعة أو بالوثائق الخاصة بالجهات المشتركة في الواقعة. وهذه هي البداية الوثائقية.

ثانيا: التحول إلى الاستقصاء من خلال الرواة إن كان بعضهم لا يزال على قيد الحياة، وهؤلاء الرواة قد يكونون من المشاركين مشاركة مباشرة في الوقائع كالجنود والضباط او الضحايا أو المقاومين. وقد يكون هؤلاء الرواة من طرف ثالث كأن يكونوا من شهود العيان من أي طرف كان، أو منظمات خيرية وإنسانية اطلعت على الواقعة ميدانيا أو عبر وثائق في حينه. وقد يضطر مثل هذا الاستقصاء لملاحقة المشاركين والشهود إلى البلدان التي انتقلوا إليها، وقد يستطيع الأتصال بهم بوسائل عديدة.

وهكذا، نلحظ من خلال الملاحظات الموجزة السابقة أن الأستقصاء، هو أشبه ما يكون بعمل عالم الأثار من جانب، وعمل شرطة التحقيق من جانب اخر، فعالم الآثار يعمد إلى مطالعة المصادر المكتوبة حول الموضوع الذي يهتم به، ثم يتابع التنقيب في الأماكن التي يتوقع أن يجد فيها الشواهد والآثار التي تؤكد لديه فرضية ما أو تنفيها أو تستكملها، وهو أشبه بقاضي التحقيق الذي يستمع إلى الإفادات التي يمكنه الحصول عليها من أفواه الشهود أو من بطون الوثائق المكتوبة،

ويقوم بنسج الخيوط التي حصل عليها، وإجراء المقارنات وتقييم صحة البيانات إلى أن يصل إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه لنشره على الملأ، وكأنه يقدم خلاصة عمله لقضاة المحكمة للحكم على إدعاءاته وخلاصة أعماله.

يتضح إذا، أن التحقيق والاستقصاء هما من أصعب الوسائل والأساليب التي قد يضطر لها الباحث لإعادة ترميم المواد التراثية التي لها قيمة تستحق هذا العناء، ويتضح أيضا أن الباحث قد يكون مضطرا للتنقيب في المكتبات والوثائق المكتوبة ثم في الميدان في الآن نفسه، لا بل فانه قد يضطر إلى اســتخدام وسائل أو أساليب اخرى مثل إجراء المقابلات أو ربما الاستعانة بالاستمارات أو أسلوب الملاحظة.

ولكي لا نظل نتحدث في النظريات، دعنا نتحدث عن مثل إفتراضي لقضية من قضايا التراث:

رغب احد الباحثين بإجراء دراسة (أحكام القضاء العشائري في عشائر الحمايدة (مادبا) في حالة القتل العمد) مثلا.

إن أول أمر لا بد للباحث من القيام به هو مراجعة ما أمكن من المصادر المكتوبة حول هذا الموضوع، فهو إذا سيعود إلى المكتبات والبحث في هذا العنوان والعناوين القريبة منه، وكذلك تاريخ المنطقة محل الدراسة وجغرافيتها وديمغرافيتها أو بإختصار كل ما يتصل بمجتمع بحثه، وكذلك التوسع في استكشاف المصادر الممكنة كالأنترنت مثلا أو بعض السجلات الحكومية، والهدف هو استطلاع الموضوع من المصادر الأسهل أولا (بما في ذلك مجتمع البحث نفسه)، ثم تقييم هذه المصادر التي قد يجد بينها ما يطابق عنوانه تماما، وقد يســتنتج أن هذا الموضوع لا يستحق الزيادة أو العكس من ذلك.

في نهاية هذه المرحلة يكون الباحث قد تمكن من تكوين أفكارا رئيسية حول الموضوع وتمكن من بناء اساسات عريضة لموضوعه، وهذه الأساسات ستكون قابلة للتعديل في المراحل اللاحقة.

في بداية المرحلة الثانية، يبدأ الباحث باستطلاع ميدان بحثه، أي باستطلاع المجتمع العام، ثم من خلال ذلك استطلاع العينة أو الشخوص الذين سيعمل معهم أو

سيكون لهم دور في إنجاز مهمته، وقد يكون بعض هؤلاء من رجال القضاء العشائري أو من الذين كانوا طرفا في بعض الأحداث ذات العلاقة بالموضوع.

في المرحلة الثالثة، يكون الباحث قد وضع خطوط مشروعه وبدأ بالعمل المباشر. قد يكون العمل المباشر هو جمع الوثائق ذات العلاقة أو الحصول على نسخ مصورة منها، والاطلاع على الدراسات السابقة لدراسته في المجال نفسه وتسجيل بعض المعطيات ذات الصلة.

وخلال العمل قد يكتشف الباحث بعض الوثائق أو السجلات ذات الأهمية الكبيرة لموضوع بحثه، ولنفترض ذلك "سجلات قديمة تتضمن نصوص القانون العشائري وبعض التعديلات عليها" وبما أن للبحث جوانبه التاريخية، فإن مثل هذه السجلات مهمة جدا، ولكنها بحاجة إلى الكثير من الدراسة والعمل، فبعض الصفحات تعرضت للتآكل بفعل الرطوبة، وبعض العبارات كتبت بكلمات غير مفهومة للباحث ومعاونيه كذلك، فضلا عن ذلك فإن بعض المسائل الأخرى بحاجة إلى توضيح من مثل التاريخ الذي وضعت فيه ثم الهيئة او الجهة التي قامت على وضع هذه الوثيقة، ثم التأكد من أن السجلات بقيت كما هي دون تحريف أو غير ذلك...

في هذه الحالة، قد يكون على الباحث العودة إلى بعض المكتبات أو السجلات الحكومية أو ربما سجلات ومذكرات بعض الأهالي الذين عايشوا تلك المرحلة، والهدف العثور على ما يؤكد هذه الوثائق أو ما يتصل بها من ملاحظات، وربما العثور على نسخ أخرى لمقارنتها بالنسخة التي بين أيدينا وسد النقص في النصوص المعطوبة أو المفقودة أو الغامضة.

في الوقت نفسه، قد يستطيع بعض الرواة " حملة التراث " تقديم إفادات تساعد الباحث في اســتجلاء الحقيقة، وخصوصا في تفسير بعض العبارات التي تبدو غير مفهومة، وقد يكون الباحث مضطرا للمقارنة بين عدد من الإفادات المتناقضة وتقييمها والخروج بالاستنتاجات المنطقية.

هذا مثل صغير من الحالات التي قد يضطر فيها الباحث لاستخدام عدد من الأساليب والأدوات لتحقيق أغراضه في البحث، وهو كما يبدو يحتاج إلى الصبر والمثابرة والجلد والمرونة والدقة وسعة الاطلاع وغير ذلك من الظروف والعوامل.

هوامش الفصل الثالث:

١ - عبد الحميد يونس، دفاعا عن الفولكلور، ص ١٥.

٢ - غريب سيد محمد أحمد ورفيقه، علم الاجتماع، ص ٢٢١.

٣ - احسان محمد حسن، مناهج البحث الاجتماعي، ص ٢٣٠.

٤ - علياء شكري وزملاءها، قراءات.. ص ٣٤٧.

٥ - نفس المصدر السابق، ص ٢٣٤

٦ - علياء شكري وزملاءها، قراءات..، ص ٣٣٣

٧ - ابراهيم عثمان، الأصول في علم الاجتماع، (مؤسسة الكميل - الكويت، دار الشباب - قبرص، ١٩٨٩) ص ٣٠.

٨ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ص ١٧٤.

٩ - د. ذوقان عبيدات، د. عبد الرحمن عدس، د. كايد عبد الحق. البحث العلمي: مفهومه /ادواته / أساليبه (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع) ١٩٨٨. ص ١٥٢.

١٠- علياء شكري ومحمد علي ومحمد الجوهري، قراءات معاصرة في علم الأجتماع، ط ٢ (القاهرة - دار الكتاب للتوزيع) ١٩٧٩. ص ٣٣٤.

١١ - علياء شكري وزملاءها...، ص ٣٣٥.

١٢ - البحث العلمي، هنداوي، ص ١٣٨.

١٣ - محمد اشتية و علي خليل احمد، دليل الباحث العربي...، ص ١٥.

١٤ - علياء شكري وزملاءها، قراءات..، ص ٢٨٥

١٥- عامر قندلجي، البحث العلمي " وأستخدام مظاهر المعلومات " ط ١، (عمان - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع) ١٩٩٩.

١٦- د. عبود العسكري، ص٢٢٣

١٧ - تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ص ١٧٣.

الفصل الرابع

المنهج العلمي في الدراسات الفولكلورية

مقدمة:

- تعريف العلم وخصائص المنهج العلمي.
- تعريف المنهج العلمي.
- قضايا واشكالات في الأسلوب والمنهج في الفولكلور.
- تصنيفات المناهج.

١ – المنهج الوصفي.

٢ – المنهج المقارن.

٣ – المنهج التاريخي.

٤– المنهج التحليلي " تحليل المضمون "

٥ – المنهج الارتباطي – العلائقي .

٦ – المنهج الشكلي " الأدبي ".

٧ – منهج تحليل النظم.

٨ – منهج التحقيق في الحديث النبوي الشريف.

المنهج العلمي

Scientific method

تمهيد :

استعرضنا في الفصل السابق الأساليب والأدوات في جمع البيانات التي تستخدم في حقول التراث الشعبي على وجه الخصوص وفي العلوم الاجتماعية على وجه العموم، وقبل ذلك كنا قد استعرضنا الموضوعات والحقول والمجالات والقضايا التي يتعاطى معها علم الفولكلور. ورأينا كيف أن معظم هذه الموضوعات يمتاز " بالشفوية " أو أنه يخضع " للملاحظة " أو أن قليلا منها مجسدا في " وثائق وسجلات مكتوبة "، فيما الكثير منها غاب في تلافيف التاريخ والمراحل، مما يستدعي معه استخدام أساليب متعددة للحصول على المادة التراثية.

ومن نافلة القول أن الأمر لا ينتهي بهذا القدر من المعلومات والمهارات لكي يتمكن المرء من القيام بالبحوث الجادة في التراث أو في غيره من الحقول الإنسانية، لا بل فإن هذا القدر من المعارف والمهارات بالكاد يكون كافيا حتى لتأهيل "جامع البيانات " في هذا الحقل، لأن عملية الجمع وما يتخللها من تصنيف للمعومات و "غربلة " وتأطير لا بد لها من التسلح بمزيد من المعارف والقدرات والعلوم والمهارات النظرية والعملية لكي يتصف العمل بالموثوقية والمصداقية.

وأنه لمن المؤسف أن الكثير من أعمال الجمع والتصنيف، لا بل بعض الأعمال التي تندرج في نطاق الدراسات والأبحاث، لا زالت تعكس قدرا كبيرا من فقدان المعارف النظرية والمهارات العملية الأساسية الضرورية لمثل هذا الجهد العلمي.

فكثيرا ما نقرأ عناوين لبعض الكتب عن التراث في هذه المنطقة أو تلك، في هذا الحقل أو ذاك، لنجد في متن هذه الكتب شيئا مخالفا للتوقعات التي تعكسها العناوين، بل وتجاهلا لأبسط القواعد المتبعة في العمل العلمي، لا بل وأبسط القواعد المتبعة في الوصف أو التصنيف، ومن مثل ذلك عناوين مثل "التراث الشعبي"، لنجد

أن المؤلف قام بتصوير بعض الأدوات والأثاث والوسائل او العناصر التراثية مع قليل من الملاحظات التعريفية، مثل "دلة" القهوة وأدوات الطبخ وبعض أشكال الملابس، وصورة للربابة والشبابة وما إلى ذلك، وهدف إعداد الكتاب كما يصرح بذلك الكاتب، هو " الحفاظ على التراث الشعبي من الضياع ". وبعض العناوين لا ينبئ عن الجزئية الكبيرة التي يعكسها المضمون، فالعنوان يقول " العادات والتقاليد الشعبية الفلسطينية "، ولكنك لا تجد إلا بعض العناصر أو البيانات التراثية التي يعرفها الكاتب في منطقة جغرافية معينة، مثل قطاع غزة مثلا، والكاتب بهذا العمل يعطي صورة مغلوطة للقارئ عندما لا يوضح في كتابه المنطقة الجغرافية والفترة الزمنية التي تعكسها المادة التراثية، هذا علاوة على جزئية هذه المعلومات أصلا .

على أن بعض الأعمال، وإن جاء من غير المتخصصين، كان مثالا للعمل العلمي الجاد المدرك لأبعاد العمل العلمي وشروطه، فقد اتبع فيه نظاما للجمع والتصنيف ثم التأليف والشرح والتعليق، ونذكر من هذه الأعمال على سبيل المثال، أعمال العلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي الذي أخرج موسوعة أسماها " معلمة التراث الأردني " من خمسة أجزاء وهي كما يلي:

١ – قسم الأمثال، والحكم، ومناسباتها وحكاياتها، وقصصها.. فهي دراسة لعقلية الشعب، ولذكائه، ودقته في التعبير عن إنطباعاته، وهي الوسيلة لدراسة البيئة، والمجتمع، وعقلية الشعب، وحكمته، وفلسفته الاجتماعية.

٢ – قسم الأسمار، والحكايات، والألغاز التي يسميها البدو **(الفتاوي)**. وهذه تقسم إلى قسمين:

أ – الشعر.

ب – النثر.

٣ – قسم العادات، والتقاليد، والاعتقادات، والمزارات والحقوق، والنخوات التي تستثار بها الحمية، والنذور، وأنواع الذبائح.

٤ – الشعر وتطوره وأثره في القبائل، وبعض مشاهير الشعراء..

٥ – اللغة المحكية وقواعدها.

ومن الأمثلة أيضا أيضا على الأعمال النموذجية للجمع والتصنيف والدرس ما أعده الباحث عمرعبدالرحمن الساريسي، الذي جمع أعدادا كبيرة من الحكايات الشعبية في فلسطين والأردن، وقد قام بطباعتها ونشرها في بحث أكاديمي نال فيه درجة الماجستير من كلية الأداب بجامعة القاهرة (الحكاية الشعبية الفلسطينية ومضامينها ووظائفها) ثم واصل بعد ذلك التعامل مع ما لديه من قصص وحكايات وأخرج منها كتبا جديدة أعتمد فيها التقسيم التالي:

١- الحكاية الشعبية (حكاية الواقع الاجتماعي).

٢- الحكاية الخرافية.

٣- الحكاية المرحة.

٤- حكاية الحيوان.

٥- حكاية الأمثال.

وقد فضلنا الاستعجال في طرح هذين المثالين منذ بداية هذا الفصل، لنجعل من حديثنا التالي حديثا عمليا نشير من خلاله إلى هذين المثالين وغيرهما من الأمثلة ما أمكن.

ففي أعمال العلامة العزيزي، يتضح للقارئ بيسر وسهوله المناهج التي أعتمدها الباحث في اخراج نصوصه، وهي مناهج إما وصفية تحليلية كما في القسم الأول عن الأمثال والاقوال المأثورة، وكما في القسم الثاني أيضا، وإما وفق المنهج التاريخي كما في القسم الرابع المتعلق بالشعر وتطوره والقبائل وشعرائها.. إلخ. وإما وفق المنهج التحليلي، أو منهج تحليل المضمون بأسلوبين الاستنباطي والاستقرائي، فمن خلال المنهج الاستقرائي استخرج الباحث قواعد اللغة المحكية مقارنا ذلك بقواعد العربية الفصيحة، ومصنفا المفردات إلى أصولها في الفصيحة أو فى المحكية.

ومن خلال الأسلوب الاستنباطي، فسر الباحث الكثير من المفردات والعبارات العامية إستنادا لمعرفته باللغة العربية وتبصره بثقافة مجتمعه.

وهو بهذه المناهج والأساليب، لم يقتصر على المنهج الشكلي أو البنائي، بل تعدى ذلك مستفيدا من المنهج الاجتماعي الذي يوضح الخلفية الاجتماعية للنصوص الفولكلورية، فيضفي على الدراسة المصداقية العالية.

وفي المثال الثاني، الحكايات الشعبية للساريسي، وجدنا أن الباحث أستخدم منهجين في التعاطي مع نصوصه من القصص والحكايا، المنهج الأول الذي استخدمه في البحث الأكاديمي، وهو المنظور – المنهج الاجتماعي، وهذا المنهج يقوم بتحليل النصوص، ويستخرج عناصره الأساسية، ويحدد ما فيه من القيم أو العادات أو الأعراف أو المعتقدات، ويعود بها إلى المجتمع الذي وجدت فيه، وهو بهذا يبحث في الوظيفة أو الوظائف التي يقوم بها النص، بعناصره المختلفة في خدمة البناء الاجتماعي، ولذلك فان هذا المنهج، يصنف بالمنهج أو المنظور الاجتماعي، وهو من ناحية أخرى يعتبر منهجا وظيفيا أو بنائيا، والعنوان يعكس هذه الحقيقة منذ الوهلة الأولى " الحكاية الشعبية الفلسطينية ومضامينها ووظائفها "، أي ان القارئ سيجد أن لمضامين الحكايات وظائف ذات بال في البناء الاجتماعي، وأن هذه العناصر المتضمنة في الحكاية " أو في أي نتاج اجتماعي " ربما تكون – بالأصل – انتاجا للبناء الاجتماعي لتقوم بهذه الوظائف التي من شأنها الحفاظ على تماسك هذا البناء وتوازنه مثلما تقول بذلك البنائية الوظيفية.

إن الاستشهاد بهذين المثالين، لا يعني الدعوة لتبني نفس المناهج التي تضمنتها هذه الأعمال، بل إن الهدف هو الاستشهاد بالوضوح المنهجي الذي اعتمدت عليه هذه الأعمال وباعتمادها " وحدة الموضوع " بخلاف الكثير من الأعمال الأخرى المتعجلة التي تجنبنا تسميتها بالاسم، لأن بوسع القارىء الفطن اكتشاف ذلك بسهولة ويسر. وإذا كان العلامة العزيزي، قد استخدم العديد من المناهج في أعماله المشار اليها، فسيلحظ القارئ غلبة المنهج الأدبي – الشكلي على معظم هذه الأعمال، لماذا ؟ وهل في ذلك ما يعيب البحث ؟

لنأخذ القسم الأول المتعلق بالأمثال والأقوال المأثورة، فربما فضل أحدهم توسع الباحث في البيئة الاجتماعية التي أنتجت هذه الأمثال، وربما فضل أخر لو أنه قرأ التطور التاريخي - الجغرافي لهذه الأمثال. ولكن الباحث لم يغفل عن ذلك كلما وجده مناسبا لتوضيح النص أو مغزاه القيمي أو الاجتماعي ، بل راح يشرح معانيها والمناسبات التي تقال فيها وقصص هذه الأمثال والأقوال المأثورة إن وجدت، وهذه القصص أو مناسبة المثل، تعكس واقعا اجتماعيا بما فيه من قيم وعادات وتقاليد، ولذلك فقد كان عمله مبدعا ومميزا من حيث توضيحه للأبعاد اللغوية لنصوصه، مع التأكيد أنه كان في الوقت نفسه ملما بل وخبيرا في بيئة مجتمعه، وهذا ما عزز من مصداقية معالجاته اللغوية لنصوصه. وقد صار الآن من المتيسر لغيره من البحاثة الاجتماعيين مثلا قلب الموضوع رأسا على عقب، وبالاستناد إلى النصوص نفسها، فبوسع من يجد في نفسه القدرة إجراء أبحاث اجتماعية على هذه النصوص، كأن يختار معالجة " القيم الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع الأردني من خلال الأمثال الشعبية "، ففي هذه الحالة يجب على الباحث التمكن من مجتمع الدراسة من خلال المصادر الأخرى المتنوعة، وقد يكون أهم مصدر هو المعايشة، وفي هذه الحالة أيضا، يجب على الباحث الإلمام بقدر لا بأس به من قواعد اللغة التي صيغت بها هذه الأقوال.

وهكذا تتداخل المناهج وتتعاون وتتكامل أساليب البحث وأدواته العلمية المختلفة لتحقيق غايات متنوعة، وهذه الغايات جميعا تخدم نظرية المعرفة عموما، وتوضح الجوانب المتنوعة لأوجه الظاهرة الاجتماعية والنتاجات المعرفية. وهذا هو شأن المناهج العلمية التي سنتناولها في هذا الفصل بشئ من التبسيط ، لغاية التوضيح الذي لا يغني عن الاستزادة فيها من المراجع والمصادر الأخرى في العلوم الاجتماعية عموما وعلوم الإنسان خصوصا.

تعريف العلم وخصائص المنهج العلمي:

يمكننا القول أن المعرفة العلمية هي حصيلة لجهد الإنسان المنظم في مختلف جوانب الوجود بهدف فهم كنه الأشياء ومركباتها والتنبؤ بمستقبلها ومحاولة التحكم فيه.

ولأجل ذلك، أي المعرفة العلمية، أستطاع الإنسان بناء وسائل عقلية وعملية خاصة تمكنه من الوصول إلى أهدافه بكفاءة. وقد اطلق على هذه الوسائل اصطلاح مناهج Methodes.

والمنهج العلمي Scientfic method يتصف بعدة خصائص أهمها: (١)

أولا– الاعتماد على الأدلة: والأدلة تعني الوقائع Facts التي يمكن لأي عالم مدرب على الملاحظة العلمية ان يلاحظها ويرتبها أو يقيسها أو يحصيها وأن يتأكد من مدى صدقها لقبول أو رفض أي حكم أو فكرة.

والأدلة يتم الحصول عليها عن طريق إجراء الملاحظات العلمية التي تختلف عن الملاحظة العادية في دقتها Accuracy أولا، ثم التحديد Precision ثانيا، (مثلا: معدل المواليد في مصر أعلى منه في السعودية، فهو ٣,٥ في الأولى،و ٢,٨ في الثانية) ثم التسجيل الدقيق، ثم الموضوعية التي تعني (وضع الباحث كمحايد بالنسبة للحقائق) وتحصيلا للصفات السابقة.

ثانيا – التسليم بمبدأ الحتمية Determinism: يسلم المنهج العلمي بأن جميع مظاهر الكون نتاج لعمليات أو أحداث طبيعية فكل ظاهرة لها تاريخ يتلخص في الأحداث التي سبقت حدوث الظاهرة، وبناء على ذلك فإن العلماء لا يقتصرون على وصف الظاهرة أو الحدث ولكنهم يسعون دائما إلى اكتشاف ما سبقها من عوامل أو ظروف وأحوال أدت إلى وقوعها. وهذا المبدأ، وغيره أيضا، أتاح للعلماء اكتشاف الكثير من علل الظواهر كعلل الامراض في الجسم أو في البيئة، أو كعلل الفيضانات، بعد أن كان الإنسان يبحث في علل ميتافيزيقية (الأرواح مثلا)، وعليه تمكن العلم من وضع الكثير من العلاجات وفسر الكثير من الظواهر الطبيعية والإنسانية.

ثالثا: التسليم بترابط ظاهرات الطبيعة ووحدتها: يسلم المنهج العلمي بأن جميع ظاهرات الكون مترابطة ومتفاعلة بعضها مع بعض، وبالتالي فان على العلماء أن يكشفوا عن طبيعة هذا الترابط والتفاعل، وأن يتوصلوا إلى القوانين التي تحكمه. وقد أمكن للعلماء أسترشادا بهذا المبدأ أن يتوصلوا إلى الكثير من القوانين سواء في مجال

الظاهرات الجامدة (الفيزيقية) أو الظاهرات الحسية (البيولوجية) أو الظاهرات الإنسانية الاجتماعية. فالأرض ترتبط بنظام هو نظام المجموعة الشمسية ثم المجرات، والشمس تؤثر على الحياة في الأرض، والإنسان يتأثر بالظواهر الطبيعية في الأرض.. و هكذا.

وعليه فإنه لكي نستطيع فهم أى ظاهرة في الكون لا بد لنا من أن ندرس كل جوانبها وجميع العلاقات بين هذه الجوانب، ليس هذا فحسب بل ولا بد لنا أيضا أن ندرس علاقة هذه الظاهرة بغيرها من الظاهرات. (وهذا ما يركز عليه منهج النظم الوارد في هذا الفصل).

رابعا: التسليم بأن هناك درجة من الاستمرارية أو الثبات النسبي والانتظام في ظاهرات الكون في حالة تغير دائم، إلا أن هذا التغير لا يحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عارضة أو عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا، فما يحدث على نحو معين في ظل ظروف معينة سوف يتكرر على نفس النحو تقريبا إذا توافرت الظروف نفسـها. ولذلك فان العلماء يحددون مهمتهم بانها البحث عن القوانين الثابتة نسبيا وراء ما هو متغير. (والمناهج التاريخية تنشغل بمثل هذا الغرض أكثر من غيرها من المناهج الأخرى).

إن اسـتخدام المنهج العلمي الذي يتصف بهذه الخصائص الأساسية الأربعة في تحصيل المعرفة هو الذي يميز بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية، وعلى ذلك يمكننا تعريف العلم تعريفا مبسطا بقولنا " أنه المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التي تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمي ". وهذه المعرفة ذات طبيعة تراكمية وتمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية.

تعريف المنهج وتصنيف المناهج:

المنهج العلمي هو أسلوب للتفكير والعمل يعتمده الباحث لتنظيم أفكاره وعرضها، وبالتالي الوصول إلى نتائج وحقائق معقولة حول الظاهرة موضوع الدراسة.[٢]

ويعرفه المعجم الفلسفي بأنه " وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة [٣].

فالمنهج العلمي هو الطريقة المنظمة في التفكير والعمل، إذ يتكون المنهج العلمي من عدد من المراحل المترابطة والمتتابعة، فهو يتصف بقدر كبير من الاتساق والضرورة والتنظيم والمرونة في الشكل والبناء وإن تنوعت في الشكل أو في الترتيب والتتابع، لكنها تظل ملتزمة بالمنطق العقلي والمعقولية العملية والضرورة التي لا نافلة فيها.

وهذه الصفات التي تتصف بها المناهج وخصوصا المرونة، تجعلها متنوعة أو متعددة بما يناسب مختلف الظواهر أو الحالات او الأهداف التي يتوخاها الباحث من أبحاثه. ومن هذا المنطلق نشأت المناهج وتعددت أسـماؤها وتصنيفاتها من باحث لآخر.

ويشير استخدام المنهج العلمي – بصفة عامة – إلى عمليتين رئيسيتين هما: الاستقراء والاستدلال، أو التحليل والتركيب، فالاستقراء Induction هو الانتقال من المشخص إلى المجرد، او من الجزئيات إلى الكليات أو القواعد، من الظواهر الى القانون العام، ومن الحالات التطبيقية لمبدأ إلى المبدأ ذاته، في حين أن الاستنباط Deduction بخلاف الاستقراء، هو الانتقال من القاعدة إلى الجزئيات، من العام إلى الخاص، من المبدأ إلى التطبيقات.

على أن معظم المعالجات العلمية تسـتخدم كلا الأسلوبين في التفكير او البحث، ومن خلال الاستقراء مثلا يمكن الخروج ببعض المبادىء أو القواعد من خلال الدراسات الوصفية، في حين أنه باستخدام الاستنباط يمكن مثلا الوصول إلى حلول لبعض المسائل الرياضية. كأن نعرف قانون قياس محيط الدائرة، وبناء عليه نستطيع معرفة محيط أي شكل دائري. أو نستطيع التنبؤ بصفات أو تصرفات أو اتجاهات الأشياء ومنها الإنسان والحيوان. فإذا كانت القاعدة التالية صحيحة تماما:

قاعدة اولى:

كل أنواع الأسماك لا تعيش إلا في الماء.

نستطيع الاستنتاج. أن سمك السردين سيموت بعد رفعه من الماء.

قاعدة ثانية:

كل مجتمع، مهما كان بسيطا في ثقافته أو حضارته، فإن لديه أغان وأساطير وخرافات.

نستطيع أن نستنتج من هذه القاعدة، أن قبائل " النور المرتحلة " لديها أغان وأساطير وخرافات.

قاعدة ثالثة:

الأغنية الشعبية العريقة لا بد وأن تلتزم بتفعيلة أو بحر شعري.

نستنتج من القاعدة الثالثة أن الأغنية التي لم يتوفر فيها الوزن او البحر لا يجوز اعتبارها أغنية عريقة .

علم المناهج-Methodology:

كان الفيلسوف " كانت " قد قسم المنطق إلى قسمين: قسم يتناول شروط المعرفة الصحيحة، وقسم يحدد الشكل العام أو الطريقة التي يتكون بها أي علم. والقسم الثاني هو ما يشكل علم المناهج Methodology، ويعني النظر إلى علم المناهج على أنه فرع من المنطق يطبق مبادئه وعملياته على الموضوعات الخاصة بالعلوم المختلفة. ومن ثم يعد علم المناهج بمثابة الجنس الذي تندرج تحته المناهج النوعية للعلوم الخاصة.(٤)

فعلم المناهج يقوم بوظيفة حيوية جدا للمعرفة العلمية عموما، ولتقويم المناهج النوعية خصوصا، وهكذا تظل المعرفة العلمية حريصة على تقييم أدواتها وأساليبها، وهذا واحد من صفات العلم أو المعرفة العلمية.

فالمناهج إذن، تنقسم من حيث المستوى إلى قسمين، القسم العام الذي يحدد الأسس أو القواعد العريضة للعلوم كافة، وهذه المناهج العامة، ثم القسم النوعي، الذي ينفصل بدوره إلى قسمين: قسم العلوم الطبيعية، وقسم العلوم الانسانية والاجتماعية. وكل قسم من هذه الأقسام يتفرع بدوره إلى فروع أو أنواع جديدة، ففي العلوم الاجتماعية ثمة: علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجي والفولكلور.. إلخ.

وسيلحظ القارىء أن أسماء المناهج نفسها ستختلف من علم إلى آخر، وسوف تختلف بعض الطرائق أوالأساليب والتقنيات التي تستخدم في كل فرع من هذه الفروع، ولا يعود سبب ذلك إلى اختلاف وجهات النظر والخبرات بين الباحثين وحسب، بل إلى التنوع والتغير الكبيرين في العلوم، والعلوم الاجتماعية والانسانية تحديدا.

فمنهج المقابلة مثلا في علم النفس السلوكي غيرها في علم النفس التربوي أو في علم الاجتماع ، والملاحظة في المنهج التجريبي (العلوم الطبيعية) غيرها في العلوم الاجتماعية...

المنهجية - (إجراءات البحث):

بدأ استخدام " المنهجية" يأخذ شكل الاصطلاح في السنوات الأخيرة، وهي تشير إلى مجموعة من الطرائق والاجراءات الضرورية والمنطقية لتنظيم البحث أو الجهد العلمي.

والمنهجية تختلف عن المنهج، ذلك أن المنهجية وإن احتمكت إلى المنطق في تنظيمها، إلا أنها تعنى بالقضايا الشكلية أو الإجرائية في الجهد البحثي العلمي، ومن ذلك ترتيب الخطوات البحثية، كترتيب الأبواب والفصول، وطريقة الاقتباس، وعرض البيانات، والتهميش (الأقتباس) والهوامش والمراجع، واستخدام الرموز والمختصرات وما إلى ذلك. إذا فالمنهجية، تتناول الشكل أكثر من الجوهر، وتقسم المنهجية إلى خاصة وعامة.

والمنهجية العامة: هي مجموعة القواعد والتعليمات والإجراءات العامة التي يتوجب الألتزام بها في كل العلوم.

والمنهجية الخاصة: هي ما أختص به علم أو حقل من الحقول العلمية عن غيره من الحقول، فثمة منهجية لعلم النفس وأخرى للغة وثالثة لعلم التربية والتاريخ ..إلخ.

ويستخدم بعض الباحثين والدارسين والأساتذة، خصوصا في بلدان المغرب العربي، تعبير "التمشي المنهجي" ليشيروا إلى ما يعرف بالمنهجية. في حين يشير

آخرون للمعنى نفسه ب "مخطط البحث"، إلا أن هذا الأستخدام لمخطط البحث فيه بعض الاجتزاء، لأن "مخطط البحث" يعتبر جزءا من المنهجية العامة أو الخاصة للبحث أو الدراسة، فهو يســتعرض الخطوط العريضة للدراسة – البحث، وقد يشمل بعض العناوين الفرعية، لكنه لا يشمل العناصر الأساسية الأخرى كالأساليب المتبعة في البحث ولا المصادر...إلخ من عناصر المنهجية.

قضايا واشكالات في الأساليب والمناهج في الفولكلور:

إن أول القضايا التي لا تزال تثير التساؤل بشــأن الأساليب والمناهج والنظريات هو ما يتعلق بالمسميات أو المفاهيم والاصطلاحات ذات العلاقة، فلا زال البعض يخلط بين الأساليب والمناهج، فيقال الأسلوب التاريخي أو المقارن او الوصفي، والبعض الأخر يستخدم المنهج، أي المنهج الوصفي أو التجريبي أو منهج تحليل المضمون، وهذا ما اعتمدناه في كتابنا هذا...

والواقع أن بإمكان الباحث الحصول على بياناته في كثير من الأبحاث عن طريق عدد من الاساليب، وخصوصا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وقد يتوصل باحثان لنفس النتائج إذا تم إستخدام أسلوبين مختلفين، كأن يستخدم أحدهم أسلوب المقابلة للحصول على "حكايات وأهازيج " هذه القرية أو تلك، ويستخدم الآخر، أسلوب الاستبيان أو أسلوب الملاحظة ليتوصل إلى المادة نفسها.

غير أن المنهج مغاير تماما لهذه الصورة، فالمنهج المتبع سيقود البحث إلى نتائج فارقة عن المنهج الآخر، فإذا كان لدينا المادة نفسها، أي " الحكايات والأهازيج " لقرية " س " مثلا، فأن اتباع المنهج التاريخي من شــأنه أن يقودنا إلى الأصول التاريخية وربما الجغرافية لهذه النصوص من جانب، وسيبين لنا التطورات أو التعديلات التي طرأت على المادة خلال مسيرتها في الزمن. أما المنهج الأدبي الشكلي أو البنيوي مثلا، فهو لن يغوص في التاريخ وفي تطور النص، بقدر ما استعرض الأبعاد الشكلية – الفنية أو البلاغية لهذا النص، أي أنه سيركز على البناء في حالته الراهنة بخلاف المنهج الوصفي الذي سيحاول توفير كل المعطيات المتعلقة

بموضوعات النص أو المادة محل الدراسة، أي كل الحكايات وكل الأهازيج المعروفة في هذه القرية، ليس ضمن فترة زمنية محددة بقدر ما يعرفه الرواة والمؤدون والمصادر الأخرى إن وجدت كالسجلات.

على أن قضية الخلط بين مفهومي " الأسلوب " و " المنهج " تظل – في الواقع – قضية شكلية، يجب على الباحث نفسه إيجاد الصيغة المناسبة لما يناسب موضوعه أو اهتمامه.

القضية ألأخرى المتعلقة بالمناهج والأساليب هي مشكلة الشكلية في المنهج أو الأسلوب، فمعظم المراجع التي تتناول هذه الموضوعات، وهي غالبا ما تقع تحت عناوين " البحث العلمي " بزيادة كلمة أو كلمتين في أولها أو أخرها، هذه المراجع تحمل من العمومية والشكلية الكثير، لدرجة لا يســتطيع الباحث المبتدئ الإفادة منها، وخصوصا الباحث في حقل الفولكلور، فمن مظاهر هذه الشكلية ما تعلق منها بخطوات البحث، وغالبا ما يجري تعدادها بشكل آلي كما يلي: الشعور بالمشكلة، تحديد أبعاد المشكلة، تحديد أهداف البحث، صياغة فرضيات البحث، جمع البيانات، اختبار الفرضيات أو فحصها، عرض النتائج...

على أن هذا الترتيب، يختلف أحيانا من باحث إلى أخر، أو لنقل من استاذ أو مرجع لآخر، والمشكلة غالبا تتبدى في مسألة " مشكلة البحث " وفي " فروض أو فرضيات البحث "، فإن بعض الأساتذة يصرون على هذا الشكل من الصياغة، إذ يجب أن يكون – من وجهة نظرهم – مشكلة يحس بها الباحث، كأن تؤرقه فكرة أو مشكلة ما ، أما الفرضيات، فيجب صياغتها صياغة محكمة ومختصرة، كأن يقال " هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين مهنة الأب والتحصيل الدراسي للأبناء " أو على شكل تساؤل " هل هناك علاقة بين مهنة الأب والتحصيل الدراسي للأبناء ؟... إلخ.

بالنسبة لمشكلة البحث، فإنه من الأمانة القول إن الكثير من الأساتذة والباحثين والمراجع تجاوزوا هذه الشكلية منذ زمن بعيد، وأضحى الأمر أكثر مرونة ومعقولية ، إذ لا يشترط أن تكون ثمة مشكلة بالمعنى الحرفي او المعنى الشائع للمشكلة، بل يجب أن يكون لدينا فكرة أو قضية أو هدف أو إشكال بحثي إســتدعى

التساؤل والتفكير، وهذا بالطبع يشتمل على " المشكلة " إن وجدت، ولكنه أكثر شمولا من قضية المشكلة أو حتى التساؤل، والقضية أو الهدف هي المعرفة بحد ذاتها، حتى ولو كانت هذه من باب " المعرفة الصرفة " أو المعرفة لأجل المعرفة " وهذا الأمر معروف حتى في العلوم الطبيعية في الفيزياء والفلك والكيمياء... إلخ، وهذه المعرفة الصرفة، قد تصبح أساسا لأبحاث ومعارف أخرى في المستقبل، وهي أساسية لتكوين القواعد والنظريات والمفاهيم، وهذا بحد ذاته مبررا كاف ومهم للبحث، ويتبدى هذا الأمر في العلوم الاجتماعية أكثر من غيره من العلوم، وعلى مستوى العلوم الاجتماعية والإنسانية، يتبدى هذا الأمر في موضوع الفولكلور بشكل جلي، فالأبحاث في هذا الحقل لا تحتاج إلى الأبحاث الأمبيريقية (التجريبية) مثل تلك التي تحتاجها العلوم الطبيعية وحتى بعض علوم الإنسان والعلوم الاجتماعية والنفسية، التي لا تزال بحاجة ماسة لحشد البيانات وبلورة المفاهيم والاصطلاحات الضرورية لبناء النظريات والمبادىء العلمية ومن ثم القوانين ما أمكن. وهكذا فإن معظم المناهج في الفولكلور تتصف بالوصف وإن تنوع هذا الوصف بين المنهج المقارن أو المنهج التاريخي أو دراسة الحالة أو الدراسات المسحية أو منهج تحليل النظم.

اما بخصوص الفرضيات، فحالها حال " قضية المشكلة "، فاذا كانت الفرضية أو الفروض مسألة حيوية وأساسية في بعض الحقول العلمية، فإنها ليست أساسية في حقول أخرى، خصوصا إذا كان الوصف وتجميع البيانات هو الهدف أو الإطار للبحث، وهذه الخطوة لا بد منها في كل الحقول العلمية كخطوة إبتدائية أو تأسيسية، على أنه يجب التأكيد أن مســـألة الفروض باتت أمرا مفيدا وضروريا في معظم حقول العلوم الاجتماعية، وحتى الفولكلور منها، وهي أمر ضروري للباحث في كل مجالات العلم وحقوله، لأن صياغة الفرضية وفحصها أو اختبارها بحد ذاته يعتبر هدفا علميا بحتا، فهذا هو التفكير العلمي أو المنطقي الذي وجب على الباحث التمكن منه قبل غيره من الناس.

وهذا ليس عيبا مطلقا في المراجع، لأن معظم هذه المراجع وضع كمقدمة او كتعريف بالخطوط العريضة لأساليب البحث العلمي وأدواته ومناهجه، ولذلك فإن

الأمثلة الواردة فيها غالبا ما تكون متنوعة وعامة ومختصرة، وهذا لا يكفي لمن يرغب في التخصص في أحد حقول البحث العلمي عموما، ولكنه مع ذلك ضروري مثلما هي أساسات البناء ضرورية للبناء السليم، فوجب على الباحث الاستزادة الدائمة من هذه المراجع والانطلاق منها إلى المراجع المتخصصة في الحقل الذي يرغب فيه الباحث، وللأسف، فأن مثل هذه المراجع المتخصصة في حقول التراث لا تزال نادرة جدا مقابل الكثرة في المراجع العامة أو في العلوم الاجتماعية العامة أيضا، مع أن العلوم الاجتماعية، تفرقت إلى عشرات التخصصات منذ مدة طويلة.

يتضح لنا، أن عمل الجامع، ومن قبله الباحث بالطبع، لن يتأتى له النجاح التام ما لم يتمكن الجامع والباحث من المعارف الأساسية للعمل العلمي، سواء بالنسبة لأساليب جمع البيانات كالملاحظة أو المقابلة، وقواعد هذه الأساليب ومشكلاتها وشروطها وأدبياتها، أما بالنسبة للمهارات والأدوات الواجب على الباحث أو الجامع إتقانها، كاللغة أو كالتدوين المنظم أو التسجيل الإلكتروني، فلا يصح مثلا جهل الباحث بالفروق بين الخرافة والأسطورة، أو عدم إتقان إعداد الاستبانات أو بطاقات تسجيل المعلومات، وكذلك من المتوقع أن يكون لدى الباحث القدرة اللغوية لتسجيل المادة المحكية، وفق نظام سليم مناسب، فلا يجوز ان يكون هذا الباحث غير قادر على كتابة الألفاظ والمفردات حتى ولو لم يوجد لبعض حروفها معادلا في اللغة الرسمية التي يستخدمها، مثل حرف (g) بالانجليزية الذي كثيرا ما يلفظ باللهجات المحكية وهو ما يسميه بعضهم الجيم المعطشة أو الكاف التركية، أو بعض المقاطع الصوتية مثلما يجري لحرف الكاف مثلا حيث يجري تحويلها إلى مقطع صوتي من حرفين مدغمين (ت ش) وذلك في بعض لهجات فلسطين والأردن والشام، ومثال ذلك " يقول الراوي: تشان ياما تشان في قديم الزمان .. إلخ.

وفي المستوى الثاني، فإن معرفة النظرية الاجتماعية بوجه الإجمال أمر لا مفر منه، ثم التعمق والإلمام بالنظرية الخاصة بحقل التخصص شرط أساسي للباحث، فالنظرية هي الإطار المعرفي الذي سيساعد الباحث على تلمس خطواته خلال الطريق وصولا إلى الهدف، وبغير النظرية سيتخبط الباحث في الطريق مهما بدا له سهلا في

البداية، فقد يصل إلى مفترق طرق او منعطف في الطريق السهل، وسلوك احد تفرعات هذا المفترق فقط سيوصله للهدف.

وكثيرا من الناس، وبعضهم على درجة جيدة من التعليم، لا يزالون يحملون أفكارا مغلوطة حول النظرية وأهميتها في البحث العلمي وقبل ذلك أيضا للتفكير العلمي العادي علاوة على التفكير العلمي الراقي. فهم يصفون كثير الكلام " بالمنظر " أو " المتفلسف " ويصفون بعض الأفكار غير الواقعية بالنظريات، ظنا منهم ان النظريات ما هي إلا بناءات فكرية خيالية أو تصورية، وهذا بالطبع مخالف لحقيقة النظريات وأهميتها، وليس المجال هنا للتعريف بالنظرية وأهميتها العلمية وأهميتها كذلك في الحياة العادية. لكن على الباحث الجاد العودة إلى المراجع العلمية لدراسة النظريات في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وعدم الاكتفاء بمرجع واحد، أو الاكتفاء بمجال واحد من مجالات النظرية في العلوم الاجتماعية. إذ أن بعضها يتعلق بعلم النفس وأخر بعلم الاجتماع وعلوم الإنسان مثلما في الأدب والتاريخ والإدارة وغير ذلك، والنظريات المتعلقة في علم الفولكلور غالبا ما يتم دمجها مع علوم الإنسان عموما والأنثروبولوجي خصوصا، وكذلك علم الاجتماع العام وعلم الاجتماع النظري.

ومعرفة النظريات ذات العلاقة المباشرة بالموضوعات والقضايا الفولكلورية أمر إلزامي ليس للباحث وحسب، لكنه مستحب "للجامع" أيضا، غير أن المتطلب الأساسي للجامع هو معرفة القواعد والأصول العلمية لعملية النقل والتسجيل ، وكذلك إتقان المهارات الأساسية الفنية للنقل والتسجيل، والجامع، يشكل الحلقة الأولى في الجهد العلمي المتصل بهذا الحقل، والجامع بدوره هذا أشبه ما يكون بالحطاب الذي يجمع الأخشاب لصالح النجار، صحيح أن النجار هو الذي سيحول هذه الاخشاب إلى أثاث وأدوات للاستخدام، لكن خبرة الحطاب ومعرفته النظرية والعملية بأنواع الأخشاب المطلوبة وأشكالها مسألة في غاية الأهمية، فالنجار يرغب بأنواع محددة من الأشجار، ولا بد من مراعاة بعض الشروط للحصول على هذه الأخشاب لتكون صالحة للاستخدام، كأن يجري قصها بالمناشير الدقيقة لا أن يجري تحطيمها مثلا، ومعرفة

الحطاب لكيفية تعامل النجار مع هذه الأخشاب من شـــأنه تسهيل عمل كليهما، الحطاب والنجار، والعكس صحيح أيضا، فإن معرفة النجار بالظروف التي يعمل بها الحطاب، وبالأدوات المستخدمة في قطع الأشجار وفي نقلها من شأنه تزويد النجار بقاعدة معرفيه يستطيع من خلالها تحسين أعماله، وتوجيه الحطاب إلى ما يناسب هذه الأعمال.

إن أي عمل أو جهد بحثي لن يكون عملا علميا مكتملا ما لم يؤسس على قاعدة نظرية متكاملة.

وهذا هو الحال مع النظرية والمنهج وأساليب البحث في العلوم الاجتماعية عموما، وإن افتقاد بعض الجامعين للمعارف الأساسية في حقل التراث جعلهم يقعون في فخ الســطحية أو التبسيط او الاجتزاء أو التعميم.

فالسطحية هي ما يصوره بعضهم في جعل التراث ذلك الكم من الأدوات التراثية، أو تعدداهم للكلمات او المفردات التي تدور على ألسنة كبار السن فيما يعتبر نادرا في هذه الأيام.

والتبسيط، ما يقوم به بعضهم من تبسيط أساليب البحث، كأن يقوم بوصف جانب واحد فقط من الصورة، أي من الظاهرة او موضوع الأهتمام، ولنفترض أنه عادات الأعراس في مجتمع ما، فالتبسيط هو وصف العناصر الظاهرية للعادات فقط دون الاهتمام بالتنوع والتباين والتغير الذي تتصف به هذه الموضوعات أو خلفياتها، فإذا ما وصف يوم الزفاف، فقد يكتفي بالقول أن أهل العريس عادة ما يقدمون الولائم في هذا اليوم، وتقدم المناسف للمدعوين، ثم يغادر المدعوون بعد أن يقدموا ما استطاعوا من " نقوط أو هدايا ". والحقيقة أن مثل هذا الوصف يعتبر وصفا مبسطا لا يرسم صورة حقيقية للظاهرة او العادة التي نتحدث عنها، فقد غاب عنها التنوع المعروف في هذه الحالات، فإن بعض الناس لا يقيمون الولائم أصلا، بل يكتفون بالحفلة المسائية، والولائم نفسها تختلف من منطقة لأخرى ومن زمن لآخر، وكذلك النقوط الذي قد يكون من الأغنام أو من النقود أو من بعض المواد التموينية كالسكر والأرز أو القمح..إلخ. وكذلك الاجتزاء الذي لا يقدم مفاصل أساسية في الظاهرة، من

مثل أي يوم مثلا تقام الوليمة ؟، أهو يوم الزفاف كما يجري لدى قبائل القيسية عموما؟، أم في اليوم التالي للزفاف كما يجري لدى قبائل الحمايدة أو قبائل " بئر السبع " مثلا ؟، ومثل هذه العناصر ضرورية إذا ما كان الوصف علميا متخصصا، أما غير ذلك فإنه مناسب – ربما – للتقارير الصحفية المجتزأة. أما التعميم، فأنه ينحو إلى تعميم الظاهرة الجزئية على المجتمع بشكل عام، كأن يقول أحدهم أن من عادة الأردنيين نقل العروس من بيت أهلها على الجمال، والحقيقة أن بعضهم يستخدم الخيول أو السيارات في المجتمع نفسه، ومن ذلك مثلا ما يعممه بعضهم عن المجتمع الصيني والهندي من ناحية عادات الدفن، فكثيرا ما نقرأ أو نسمع أن الصينيين والهنود يتخلصون من الجثث بطريقة الحرق، والواقع أن أغلبية منهم تقوم بذلك، لكن قوميات أو مناطق أخرى كثيرة كالأرياف تختار الدفن أو الرمي في أحد الأنهار بدلا من الحرق.

تصنيفات المناهج:

وكما أسلفنا، فقد تنوعت تصنيفات الباحثين في الماضي والحاضر للمناهج والأساليب العلمية في البحث، ويبدو أن اختلاف هذه التصنيفات نابع من اختلاف اهتمامات الباحثين وخبراتهم، على أن أسس المناهج والأسايب العلمية هذه تظل محط اتفاق الأغلبية وإن اختلفوا في تســمياتها أو ترتيبها، وقد تقدم ماركيز (Marguis) بالتصنيف التالي:

- المنهج الأنثروبولوجي.
- المنهج الفلسفي.
- منهج دراسة الحالة.
- المنهج التاريخي.
- منهج الدراسات المسحية.
- المنهج التجريبي.

أما ويتني (Whiteney) فقد ميز بين سبعة مناهج للبحث العلمي كما يلي:

- المنهج الوصفي ويشمل (المسح، دراسة الحالة، تحليل الوظائف، تتبع النمو والتطور، البحث المكتبي).

- المنهج التاريخي.
- المنهج التجريبي.
- المنهج التنبئي.
- المنهج الفلسفي.
- المنهج الاجتماعي.
- المنهج الإبداعي.

وقد اعتمد (د.ربحي عليان ود. عثمان محمد غنيم) تصنيفا أكثر شهرة، وهو:

- المنهج التاريخي.
- المنهج الوصفي.
- أسلوب المسح.
- أسلوب دراسة الحالة.
- تحليل المحتوى.
- المنهج التجريبي.
- المنهج المقارن.
- أسلوب النظم.

وقد أوضح الباحثان أن تصنيف المناهج، يعتمد على معيارين هامين، معيار طبيعة الأسلوب أو المنهج، أي فيما إذا كان منهجا نظريا كالمنهج التاريخي والوصفي أو عمليا تطبيقيا كالمنهج التجريبي والإحصائي. والمعيار الثاني يتعلق بطبيعة المادة أو الظاهرة المدروسة، فبعضها يناسب العلوم الجتماعية والإنسانية كالمنهج التاريخي والوصفي، أو يناسب العلوم الطبيعية كالمنهج التجريبي.(٦)

من ناحية أخرى، فإن تصنيفات المناهج، ستظل في حالة انقسام وتفرع وتجدد مثلما تتنوع وتتجدد وتتفرع الحقول العلمية المختلفة، وعلى هذا الأساس، سنلاحظ أن بعض الحقول العلمية اتخذت لنفسها تصنيفا مغايرا أو خاصا، واختارت لنفسها ما يناسبها من المناهج.

خطوات البحث العلمي:

من الضروري للباحث قبل شروعه في إجراء بحثه أن يقوم بإعداد مخطط عام يسترشد به في مراحل البحث المختلفة والانتقال من مرحلة إلى أخرى فيه، ويقدم مخطط البحث تعريفا موجزا بمشكلة البحث والجهود السابقة المتصلة بتلك المشكلة، والضرورة التي دعت الباحث إلى معالجتها، ويشمل المخطط أيضا تعيين حدود مشكلة البحث وفروض البحث واجراءاته. (٦)

إن مخطط البحث ضروري لتوجيه الباحث أثناء مختلف مراحل إعداد البحث، وهو بالقدر نفسه مهما للقارىء لبناء تصور عام للبحث وأقسامه وأهدافه، ولذلك يكتسب مخطط البحث أهمية مضاعفة.

وتكاد تكون خطوات البحث موحدة أو متطابقة لدى معظم الباحثن والنظريات والمناهج العلمية، فهي تتكون من مرتكزات أساسية لا بد منها، وقد تختلف في جوانب إجرائية أخرى إما ثانوية وإما خاصة بهذا المنهج أو ذلك الموضوع، وسنشير إلى خصوصيات كل منهج بحثي في حينه، وخصوصا فيما يتعلق بمناهج البحث الفولكلوري.

والخطوات الأساسية للبحث العلمي، كما يلي:

أولا – تحديد المشكلة أو القضية وصياغتها صياغة دقيقة لا تحتمل اللبس.

ثانيا – وضع الفروض المنطقية المناسبة وتوضيح الأسس التي بنيت عليها.

ثالثا – تحديد المعلومات والبيانات التي يجب جمعها لأغراض البحث وكذلك تحديد طرائق وأساليب جمعها.

رابعا – جمع البيانات والمعلومات من المصادر المختلفة وبالأساليب التي تم تحديدها.

خامسا – تنظيم البيانات والمعلومات وتحليلها وتفسيرها.

سادسا – حصر النتائج والاستنتاجات وصياغتها.

وبعض الباحثين، يفضل تلخيص خطوات البحث فيجعلها ثلاث أو أربع مراحل رئيسية، ومنهم من يفضل الإشارة إلى خطوات أولية مفصلة مثل " تحديد

الموضوع وتحديد مجاله تحديدا مسبقا، كأن يقال "إن هذه الدراسة تحاول البحث في الغناء الشعبي الفلسطيني مثلا " وهذا لا يكفي، إذ أن الموضوع عام ، فوجب التحديد مثل: " الغناء الشعبي الفلسطيني في حدود الضفة الغربية "، ويظل ذلك عاما أيضا، فلا بد من تحديد جوانب الموضوع وبعده الزمني إضافة إلى بعده المكاني المحدد، فقد يصبح " الغناء الشعبي الفلسطيني في الضفة الغربية قبل وقوع الأحتلال الأسرائيلي عام ١٩٦٧، والغناء الشعبي هو ذلك الغناء الذي يؤدى في المناسبات (الأفراح والأتراح) من قبل الرجال والنساء، أما الأطفال (مثلا) فأنهم خارج اهتمام هذه الدراسة ".

فيصبح الموضوع: أغاني الرجال والنساء في الأفراح في الضفة الغربية قبل الاحتلال ١٩٦٧.

وبعض الباحثين، يضيف إلى خطوات البحث، أقسام ثانوية إجرائية إلى حد كبير، مثل: تحديد العنوان، تحديد المفاهيم والاصطلاحات المستخدمة، الخلوص إلى توصيات.

على أن معظم الباحثين اليوم، يشترطون لصحة البحث، البدء بصياغة الإطار النظري للبحث، ومع أن هذا الأمر يعتبر بديهيا في خطوات البحث المشار إليها، إلا ان البعض يميز بين الإطار النظري المطلوب، وبين ما يســمى " الدراسات السابقة " التي تنحو معظم الأبحاث العربية، وخصوصا الأكاديمية منها إلى اعتبارها بديلا للإطار النظري أو شكلا من أشكاله. وحول موضوع النظرية وصياغة التصور النظري، فهذا المؤلف لا يركز إلا على القضايا الأولية والأساليب والمنهج في علم الفولكلور، ويترك موضوع النظرية لأصحابه، وهذا موضوع ليس من اليسير ابتساره وإختزاله بقليل من المعالجات، ولا بد للباحث من العودة إلى الكثير من المراجع للإلمام به، ومن ثم تكوين إطاره النظري الخاص.

على أنه يجدر الإقرار بأن صياغة إطار نظري متماسك وعميق لا تتأتى لغير كبار الباحثين المتمرسين والعلماء، فالنظرية هي منتهى المعرفة العلمية، وليس من الواقعية مطالبة كل مستويات الطلبة والباحثين بتوفير مثل هذا الأمر، لكن ذلك لن

يعفيهم، وخصوصا ما بعد المرحلة الجامعية الأولى، من وضع تصوراتهم النظرية ما وسعهم ذلك.

ولأهمية هذا الأمر، وبما يتضمنه من أهمية وطموح، أعيد تقديم مراحل البحث وفق تصنيف (ماينتز وزملائه)، كما اعتمدته بعض المصادر، كما يلي(٧):

المرحلة الأولى – التجهيز النظري: صياغة التصور الخاص بموضوع البحث والذي يكون بمثابة الإطار النظري Theoritical Fram Work..

المرحلة الثانية – تحديد خطة البحث ومنهجه: حيث يتم في هذه المرحلة اختيار أسلوب البحث ومناهجه ووسائله، ويتضمن ذلك تحديد المفاهيم الرئيسية، وتحديد الافتراضات والتساؤلات الاساسية، والمؤشرات والمقاييس المتعلقة بذلك، وهذه هي منهجية البحث.

المرحلة الثالثة – جمع البيانات وتطبيق منهج البحث وأدواته وأسلوبه عمليا على موضوع الدراسة بجميع وحداته.

المرحلة الرابعة – الإعداد والتحليل للبيانات، ومحاولة الإجابة على أسئلة البحث.

المرحلة الخامسة – الإستخلاصات النظرية، وصياغة التعميمات الممكنة التي يتم التوصل إليها.

المناهج المستخدمة في الدراسات الفولكلورية

مقدمة:

ثمة خلط كبير في كثير من المراجع والمصادر المتعلقة بهذا الموضوع من حيث التسمية والتعريف للمناهج، فمنها ما قصد المعنى والمضمون الذي نستخدمه هنا المتلخص في كون المنهج طريقة أو مجموعة طرائع بحثية تحكمها قواعد ومحاذير معينة، والبعض الأخر قصد بالمناهج المنظورات البحثية والفكرية أو المنطلقات الأيدولوجية – الفكرية لزاوية وقواعد التحليل والبحث، وهذه هي المدارس المذهبية أو المنظورات النظرية للبحث، فمنها المنظور الماركسي مثلا والمنظور التطوري – الدارويني ومنها الوظيفي والأنثروبولوجي... إلخ.

ويكمن الفرق الكبير – بنظرنا – بين النوعين في ان الأولى تخضع لقواعد ومحاذير عامة متفق عليها وخاضعة للمراجعة والقياس، فيما أن الثانية غالبا ما تستند إلى مجموعة من المقولات والقواعد غير المتفق عليها والتي يخالطها القناعات الأيدولوجية والأفتراضية، مما يضعها في نطاق أقرب إلى الأيدولوجيا منها إلى النظريات والمناهج العلمية.

وفيما يلي استعراض لأهم المناهج المتبعة في البحوث الفولكلورية من وجهة نظرنا على الأقل.

أولا –لمنهج الوصفي

بدأ استخدام هذا الأسلوب أو المنهج الوصفي بطريقة علمية في نهاية القرن الثامن عشر حيث قامت دراسات لوصف حالة السجون الانجليزية ومقارنتها بالسجون الفرنسية والألمانية. (٨)

ولا يعني ذلك أن هذا كان أول استخدام للأسلوب الوصفي، فقد استخدم هذا الأسلوب من زمن بعيد من قبل الرحالة والمؤرخين وحتى في الدراسات الطبيعية التي تتناول الظواهر الطبيعية كالفلك والكيمياء والأحياء والفيزياء وغير ذلك.

وكان الأسلوب الوصفي مرتبطا منذ نشـــأته بدراسة المشكلات الإنسانية، وهو الأسلوب الوحيد الممكن لدراسة بعض الموضوعات الإنسانية حيث يصعب استخدام الأساليب الأخرى كالأسلوب التجريبي أو التاريخي.

ولكي يكون الوصف كافيا لاستنتاج تقديرات على قدر كبير من العلمية، لا بد من توفر شروط كثيرة في عملية الوصف، وهذا ما يحرص العلم على توفره في هذا المنهج.

وفي الحقيقة أن كل الناس يستخدمون الوصف في حياتهم اليومية لنقل الحقائق أو تقدير المشاعر والاتجاهات إلى غيرهم من الناس، فعندما يقول أحدهم " لقد رأيت أعدادا كبيرة من الناس تتظاهر أمام دار الحكومة "، فهو بذلك يصف واقعة، لكن هذا الوصف لا يعتبر مكتملا من الناحية المنهجية، أي انه لا يكفي لاستنتاج نتائج أو حقائق مؤكدة أخرى كأن نقول أن ذلك كان صدفة أو كان منظما أو أن عدد الناس المتظاهرين كان كبيرا أو قليلا.. إلخ.

والوصف بجميع مســتوياته، أو بجميع درجاته لا يقتصر على التسجيل أو الملاحظة الخارجية، فالظواهر الاجتماعية، مثل السلوك الاجتماعي ومثل النتاج اللفظي، لا يبدو مغزاها الكامل او الحقيقي بمجرد ملاحظتها من الخارج، وهذه الحقيقة التي لا مراء فيها جعلت من الوصف عملا أو مهارة علمية لا تبدو يسيرة في كل الأحوال، صحيح أن بعض أشكال السلوك أو الظواهر او الوقائع يسهل توصيف حقيقتها بالملاحظة البسيطة، وذلك مثل ملاحظة أشكال الرقص الشعبي أو تسجيل نصوص الحكايات والأغاني، لكن ذلك لن يكون يسيرا إذا ما تعلق الأمر بالمعتقدات أو القيم أو قضايا التغير أو فيما يتعلق بالوظائف المختلفة لعناصر التراث في الأنساق الاجتماعية، ومثل ذلك الكثير من القضايا التي تقع في صلب الدراسات الفولكلورية.

ولذلك فإن الوصف العلمي الدقيق يشكل القاعدة الأساسية للمناهج العلمية الأخرى الأكثر تعقيدا أو تطورا، فمن خلاله يتمكن الدارس من فهم مكونات الظاهرة الجزئية والكلية، الظاهرية والداخلية (إن أمكن)، ومن خلال ذلك يجري أيضا تشكيل

المفاهيم والاصطلاحات، فهو " القناة الأولى التي يتم استخدامها للتعامل مع الظواهر المختلفة، والحلقة الأساسية في تكوين التصورات المعرفية الوصفية " (٩).

فالوصف يجب أن يكون شاملا لأبعاد الظاهرة وعناصرها وديناميياتها إذا ما كانت في حالة الحركة أو التفاعل، وذلك مثل وصف الأعمال الفنية أو الاستعراضية في الفولكلور، إي أن لا نكتفي بتسجيل النص المجرد عن المناسبة، ذلك لأن التبصر في الظروف المحيطة بالنص من شـــأنه أن يضيف معان قد تكون جوهرية للنص، وهذه الملاحظة لا تزال ضرورية لنا نظرا لما نقرأه من النتاجات التراثية وخصوصا في مجال الغناء بعيدا عن الأجواء التي ينشـــأ ويسجل فيها هذا النص، أو بعيدا عن الرواة وخصوصياتهم أو خصوصيات مجتمعاتهم، او منفصلا عن النصوص الأخرى ذات العلاقة الواضحة أو المحتملة.

وإذا ما عدنا إلى مثال "حشد الناس المتجمهرين أمام دار الحكومة "، فمن المحتمل أن يكون ذلك الحشد من الناس يهدف إلى تقديم طلبات توظيف لكل واحد فيهم، أو أنهم جاؤوا لتهنئة المسؤولين الجدد في دار الحكومة، إذ لا يكفي القول أن واحدا من الجمهور صرح لنا بهذا، أو أن يقال أن ملامح الناس بدت ساخطة وغاضبة أو مثل ذلك من التقديرات التي لا تأخذ بعين الحسبان الاعتبارات الأخرى للحدث أو الظاهرة، وهذه الاعتبارات مختلفة – بالطبع – من ظاهرة إلى أخرى، ومن زمان إلى آخر، أو غير ذلك من الاحتمالات.

ولكي يكون الوصف صحيحا كان لا بد من التأكد من حقيقة الحدث بوسائل عديدة، وهذه الوسائل متعددة ومتنوعة مثلما أسلفنا، لكن المقياس العام لصحة الملاحظة يتلخص في أن الوصف كان واعيا لمختلف العناصر ذات العلاقة بالظاهرة الموصوفة.

ولكي يستطيع الباحث أو الدارس الخروج بنتائج ذات قيمة، كان لا بد من توفير المزيد من البيانات عن الحدث وعن الناس المشاركين به، عددهم، فئاتهم (العمرية والجنسية والمهنية... إلخ)، آرائهم أو اتجاهاتهم نحو الموضوع الذي دفعهم

للتجمع، وقبل ذلك توضيح للأساليب والأدوات التي حصل بها الملاحظ او الباحث على بياناته، أكان ذلك من خلال الملاحظة المباشرة أم من خلال النقل أم من خلال التصوير..إلخ، هذا علاوة على تحديد عنصري الزمان والمكان، وهكذا من العناصر المهمة الأخرى.

فإذا قال الوصف " إن ما يقرب من ألف من الرجال والنساء احتشدوا أمام دار الحكومة رافعين يافطات احتجاجية، وأنهم بدأوا تجمعهم منذ ساعات الصباح، احتجاجا على رفع الحكومة لأسعار الخبز... " فإن هذا الوصف لا بد وأن يعطينا فكرة جوهرية عن ظاهرة التجمع، بخلاف ما كان عليه الوصف السابق، وبالطبع يمكن للوصف أن يكون أكثر دقة مما وصفنا، خصوصا عندما نحاول وصف الظاهرة وصفا كميا (رياضيا) دقيقا، كأن نقول " ١١٠٠ من المحتجين، معظمهم من النساء (٦٥ %)، يحتجون على رفع أسعار الخبز بنسبة ٢٥ %... إلخ.

ولا يقتصر الأسلوب الوصفي على وصف الظاهرة وجمع المعلومات والبيانات عنها، بل لا بد من تصنيف هذه المعلومات وتنظيمها والتعبير عنها كميا وكيفيا، بحيث يؤدي ذلك إلى الوصول إلى فهم لعلاقات هذه الظاهرة مع غيرها من الظواهر، وذلك بعد تصنيف هذه البيانات تصنيفا وتنظيما علميا منهجيا يتجنب المزاجية أو العشوائية ولا يترك فيه الثغرات التي تخل من قيمة العمل.

وإن هدف تنظيم المعلومات وتصنيفها هو مساعدة الباحث على الوصول إلى استنتاجات وتعميمات تساعدنا في تطوير الواقع الذي ندرسه، فالأسلوب الوصفي لا يهدف إلى وصف الظواهر أو وصف الواقع كما هو بل إلى الوصول إلى استنتاجات تساهم في فهم هذا الواقع وتطويره. (١٠)..

١-١ - والأسلوب الوصفي على مستويات متعددة نتناولها بالتفصيل:

١-١- الوصف البسيط:

ويقصد به وصف ظاهرة أو واقعة أو نصوصا أو أفكارا أو معتقدات وصفا كيفيا أو نوعيا أو كليهما.

وهذا المستوى من الوصف، الهدف منه تقديم معطيات وبيانات دقيقة حول الموضوع بصورته الراهنة أو بصورة الحاضر، دون ربطه بغيره من المتغيرات أو بالزمن الماضي بهدف تفسيره. وهذا يجعل البعض يقلل من شـأن هذا الوصف ويغري الآخر على القيام بمشاريع وصفية " كتب أو كتيبات " في حقل التراث خصوصا.

ولنفترض أن باحثا قام بمعايشة إحدى القبائل او القرى أو الجماعات، ورغب في نقل صورة ما يعرفه عن تلك الجماعة من أجل الوصف فقط (مثل وصف تقاليد زيارة المزارات والأضرحة مثلا)، أي بهدف إطلاع الآخرين على ما اطلع هو عليه، فهو يصف الزمان والمكان الذي يتحدث عنه، ثم يصف أفراد الجماعة مجتمعين إذا كان عددهم كبيرا، وقد يصفهم بالفرد إذا كان عددهم قليلا، وقد يصف عينة ممثلة منهم (وفق الحالة والأهداف) وهو يبين فئاتهم المتنوعة مثل عدد الذكور من الأناث أو عدد المتعلمين من الأميين أو عدد الأطفال من الكبار، أو عدد الذين يعملون في الزراعة أو الرعي.. إلخ. وهو قبل ذلك أو بعده لا بد أن يتحدث عن المزارات لا كما رآها الباحث الملاحظ وحسب، بل وكما يراها أفراد المجتمع المحلي كذلك، ويفترض أن يكون الباحث الملاحظ دقيقا وأمينا في نسب ما ينسب له أو ما ينسب لغيره في الوصف كما في الاقتباس تماما، وسنلاحظ أن عدم دقة الوصف سيترتب عليها الكثير من النتائج أو الافكار المغلوطة، (فالمزارات هي عبارة عن قبور قديمة لبعض الرجال الصالحين أو الأنبياء..) وهذا الوصف سيكون مخالفا جدا للنص التالي (ويعتقد بعض الناس أن هذه المزارات هي عبارة عن قبور قديمة لبعض الرجال الصالحين أو صحابة الأنبياء)... إلخ.

ولو قدر للباحث أن يسـتند إلى توصيف رقمي في بعض الحالات الدراسية المناسبة، لكان ذلك أكثر دقة وعلمية ومصداقية، فإذا استطاع أن يصل إلى صياغة رقمية للوصف السابق عن المزارات، لكان من الصعب التشكيك في الوصف، مثال (واستنادا إلى نظام العينة العشوائية، فقد تبين أن ٦٦ % يعتقدون أن المزارات ما هي إلا قبور قديمة لبعض الصالحين من الرجال، وأن ٢٣ % فقط يعتقدون بأنها قبور للأنبياء أو صحابتهم ، فيما أن الباقين ١١ % منهم لا يؤمنون بهذه المزارات ويعتبرونها قبورا عادية.. إلخ).

وليس بالضرورة أن يترجم الوصف الكمي إلى أعداد محددة في كل الحالات، لكنه يشترط في بعض الحالات التي يحاول فيها الباحث الخروج باستنتاجات أو إذا ما حاول الباحث قياس علاقات بعض المتغيرات ببعض، كأن يحاول دراسة " علاقة الأمية بالجنس "، فإذا استنتج الباحث أن معظم الأميين من الأناث، وجب عليه التدليل على ذلك بالأرقام، كأن يستند إلى تعداد وأحصاء قام به، أو كأن يســتند إلى أعداد الطلبة من الجنسين في المدرسة، أو وفق نظم العينات الممثلة. فمســألة الأعداد والفئات وغير ذلك من المتغيرات الجزئية هي أمر يخضع لتقدير الباحث من حيث موضوع بحثه أو دراسته، فإذا كان الباحث مهتما مثلا بجمع الحكايات الشعبية في الجماعة، فمسألة الأرقام والفئات قد تصبح غير ذات قيمة، لكنها إن وجدت فأنها قد تلقي المزيد من التوضيح على الظروف أو البيئة التي جاءت منها الحكاية أو المادة. كأن يستخلص الباحث أنه اســتطاع الحصول على ٥٠ حكاية شعبية من مجتمعه، وأنه تاكد له أن هذا الرقم هو أقصى ما استطاع الحصول عليه، أو أنه يقدر (بناء على مؤشرات معقوله) أنه بالإمكان الحصول على المزيد من الحكايات لو استطاعت باحثة (أنثى – مثلا) الوصول إلى مجتمع البحث وضمان تعاون النساء في التصريح بما يعرفنه من حكايات.

ومن المعروف أن الدراسات الفولكلورية، هي من أكثر الدراسات الإنسانية عزوفا عن الأرقام والإحصاءات، ذلك أنها تهتم بالمعطيات الثقافية والسلوكية النمطية أكثر من أي شيء آخر، وذلك بخلاف الاتجاه العام المتنامي في العلوم الإنسانية الأخرى التي تركز على الوصف الكمي من خلال الأرقام والإحصاء والتصنيف. وأظن أن أحد أهم الأسباب لهذه الظاهرة هو قلة الدراسات الوصفية والمسحية خصوصا التي لا بد منها لتوفير قاعدة بيانات شاملة DataBase كشرط أولي لإجراء الدراسات الإحصائية والدراسات المقارنة التي تستند إلى الإحصاء والتحليل والتركيب الإحصائي. والسبب الثاني هو إستمرا النظرة الرومانسية – القومية للمادة التراثية، ولهذا فالتعاطي معها هو أقرب للتعاطي مع الأشعار العاطفية والوطنية والذكريات الوردية. صحيح أن هذا لا يعد عيبا بحد ذاته، لكنه لا يغني عن التعاطي العلمي البحت مع هذا التراث.

١-٢ - الوصف المتوسط (التحليل والتفسير):

وهو يختلف عن المستوى الأول البسيط من حيث إن هذا الوصف يحاول تفسير علاقات بعض المتغيرات ببعضها، فهو إذا لا يكتفي بالوصف الخارجي، لأن الوصف الخارجي غير كاف لوصف الظاهرة أو الحدث أو المادة موضع الاهتمام، وكما قلنا آنفا، فإن الاكتفاء بالوصف الخارجي قد يكون خادعا في الكثير من الحالات، ولا بد من الوصف الداخلي حتى تكتمل الصورة تماما، وهذا المستوى من الوصف أكثر صعوبة من المستوى الأول البسيط، ويحتاج إلى ما يكفي من التأهيل والمراس النظري والعملي في إجراء البحوث وفحص العلائق بين المتغيرات المختلفة.

ففي الوصف البسيط، كان الهدف هو وصف مكونات الظاهرة بالترتيب، أي بالتجزئة، والباحث هناك غير معني تماما بوصف " العلائق " بين هذه الأجزاء، اي تفسيرها، إذا فهو وصف (استاتيكي) أي أنه يصف أجزاء أو مكونات الظاهرة في حالة الثبات الراهنة. لكن الأمر لن يكون مقبولا في كل الحالات، فالمكونات الاجتماعية (والنفسية كذلك)، أجزاء او أنساق متفاعلة ومترابطة وتؤثر في بعضها بعضا باستمرار، وهذه القاعدة لا تنطبق على التفاعل بين الأفراد فقط، بل تنطبق إلى حد كبير على النظام الكلي للمجتمع، أي على علاقة الناس بالبيئة أيضا، وعلاقتهم بالثقافة أو المجتمع ككيان مستقل عنهم، لأن الثقافة - وإن كانت في شخصيات الناس - إلا أنها أيضا لها شخصيتها المستقلة عن الأفراد، وهذا ما بادر بالاشارة إليه دوركايهم Durkheim منذ زمن بعيد، عندما نبه إلى القهر الذي تمارسه ثقافة المجتمع على الأفراد من الخارج [١١]، وهذا ما يفسر لنا تجنب الفرد للكثير من أشكال السلوك التي يرغب الفرد في نفسه بإتيانها.

وهكذا يختلف التحليل عن التجزئة، فالتحليل هو الذي يحاول أن يصل إلى العناصر أو المتغيرات الأساسية التي تشكل بتفاعلها وترابطها الظاهرة المعنية، أو الحدث المعني، فهو يركز على الكيفية التي تتشكل بها الظواهر، أما التجزئة فتركز على الكمية غالبا، وتحاول تقسيم الظواهر إلى مقادير او أجزاء، وبغض النظر عن طبيعة ترابطاتها " [١٢].

ووصف العلاقات لا بد له من الإحصاء والأرقام، فإذا رغب أحدهم بأن يتعرف على الفئات العمرية أو الجنسية لمجتمع معين التي تحفظ أو تعرف بعض عناصر التراث كالحكاية مثلا أو المثل، فإنه سيعمد إلى الإحصاء الوصفي، كأن يصمم استمارة معينة للمستجيبين، ثم يوزعها عليهم وفق الأصول المرعية في العينات مما سيمكنه من الخروج باستنتاجات في هذه العلاقة، وقد يخرج بنتيجة أن معظم حفظة المثل الشعبي هم من النساء، ويدلل على ذلك بأن (٦٥ %) من الذين يحفظون المثل هن من النساء، وأن أغلبية من الرجال تحفظ الحكاية الخرافية (٧٣ %) من مجتمع البحث الذين يعرفون الحكاية الخرافية هم من الرجال. ومثل هذه العلاقة لا تحتم بالضرورة علاقة سببية، أي أن العامل الأول هو سبب للعامل الثاني (الناتج)، بل ربما تنحصر العلاقة في التلازم أو التزامن فقط، فعلاقة البرق والرعد هي علاقة تلازمية او تزامنية، وكلاهما نتاج لعامل آخر وأسبق هو تماس الشحنات الكهربائية في السحب، ومثل ذلك العلاقة بين الرقص والغناء، فهما – وإن تلازما أو تزامنا او تتابعا – لا يعني ذلك أن أحدهما سبب أو علة للأخر، لكنهما قد يكونان علة لفرح الأفراد الذين يقومون بهما، أو وظيفة يقومون بها أو طقسا سحريا أو غير ذلك.

وقد يتعدى فحص العلاقة بين المتغيرات لأكثر من متغيرين، كأن يجري فحص العلاقة بين الفئة العمرية والجنس والمستوى التعليمي من جانب وبين اعتماد اللباس التقليدي من جانب آخر، وقد يستنتج الباحث أنه كلما زاد عمر الفرد الأنثى، وقل مستواه التعليمي كلما تمسك باللباس التقليدي أو العكس من ذلك. وفي مثل هذه العلاقة يظل الوصف من النوع المتوسط أو التفسيري بما أنه يقيس أو يفحص علاقات بين عدد محدود من المتغيرات. وكنا قد استعرضنا دراسة وصفية حول المثل الشعبي للدكتور شريف كناعنة، استخدم فيها العديد من المتغيرات التابعة، وخرجت الدراسة بنتائج رقمية طريفة (أنظر الفصل الثاني،الاستبيان، ص ٩٨..).

ويجدر الإشارة إلى أن مثل هذا المستوى من الدراسات بات معروفا وشائعا في الدراسات الفولكلورية في الغرب، بعد أن توفرت في أرشيفاتهم العديد من الدراسات المسحية الرقمية عن مختلف ألوان التراث الشعبي، فالعلاقات بين المتغيرات لا تنحصر

في العلاقات بين الأفراد وبين النتاج التراثي كما في المثل السابق، بل فقد يكون من المفيد والممكن فحص مثل هذه العلاقات داخل النصوص نفسها، ولنضرب مثلا من خلال دراسة المضمون على أساليب الوصف الأحصائي الذي يقيس أو يفحص العلاقات بين متغيرين أو أكثر من النص نفسه:

لنفترض أننا نرغب بإجراء دراسة وصفية إحصائية على " معلمة التراث الأردني – جزء الأمثال والحكم – لمؤلفها روكس بن زائد العزيزي ".

فهذه الموسوعة تشتمل على ٢١٢٧ مثلا وقولا مأثورا، وقد رتبها المؤلف حسب الترتيب الهجائي مبتدءا بالهمزة ومنتهيا بالياء.

وبوسعنا الآن إعادة تصنيف هذه الأقوال ووصفها كميا بالإحصاء البسيط، فقد نجري مثل هذا التصنيف لنجد أن (مثلا) أن ٢٠٠ مثل وقول تتحدث عن الطبيعة كالشهور والشمس والمطر.. إلخ، وأن ٤٥٠ مثل تتحدث عن المرأة، منها ٢٠٠ مثل تمدح المرأة وتظهر خصالها الحميدة، ومنها ١٥٠ تذم المراة وطبيعتها الشريرة، فيما الأمثلة الباقية (١٠٠) تصف المرأة وصفا محايدا.... إلخ من مثل هذه الفئات.

وكذلك بوسعنا فحص العلاقات بين متغيرين أو أكثر في الأقوال والأمثال، ليصبح الوصف متوسط التعمق، ومن ذلك (مثلا):

إذا كانت مفردات اللفظ من اصل بدوي فإن القول يبدأ بفعل الأمر أو بفعل ماضي أو باسم، فإذا كان فعل امر كان معناه الحث على مكارم الأخلاق، وإذا ابتدأ بفعل ماض فأنه يشير إلى تجارب الحياة، وإذا ابتدأ بالاسم فإنه يحتمل المدح أو الذم.. لخ، وهكذا من العلاقات المركبة التي من خلال دراستها يمكن الخلوص إلى بعض النتائج أو التعميمات أو القواعد.

١- ٣ - المســـــتوى التجريدي (الدلالي) :

يبدو لنا حتى الآن، أن الهدف النهائي لدراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية والطبيعية كذلك، هو الخلوص إلى نتائج تعميمية لتفسير الظواهر والتنبؤ بها ثم محاولة ضبطها كذلك، وهذا ما يعرف بالقوانين العلمية. وقد نجحت العلوم الطبيعية نجاحا

كبيرا في ذلك إلى الدرجة التي تم فيها مثلا وصف عمليات سقوط المطر وصفا علميا ثم تفسيرها علميا ثم إنتقل العلم بعدها لمرحلة إستمطارها بالوسائل الصناعية.

إن الدراسات الوصفية (والمسحية خصوصا) تقدم البيانات اللازمة للباحثين والعلماء لإجراء ما يمكن من الدراسات المتعمقة، فبعض الدراسات الوصفية تقدم هذه البيانات البسيطة أو المتوسطة، وقد يكون بوسع آخرين التعمق اكثر في الإحصاء والوصف كأن يجد علاقات أخرى أكثر تركيبا أو تعقيدا كأن يفحص علاقة بعض المفردات أو العناصر بالبيئة الاجتماعية التي ينتج فيها النص أو المادة وعلاقة ذلك بعناصر المادة، مثل فيما إذا تعلق بالأخلاق أو بالقيم أو بالعادات أو بغير ذلك ليجري استخلاص بعض التعميمات أو القواعد التي تنظم هذه العناصر او تفسرها أو تنطبق على ما يشبهها من العناصر. أو من خلال التحليل اللغوي للأقوال فأنه يمكن الخروج بقواعد اللهجة التي قيلت بها، ويمكن بعد ذلك التدليل على سلامة هذه القواعد بتطبيق الأمثلة من الواقع، وهذا ما قام به اللغويون الأوائل الذين اســتخلصوا قواعد اللغة وبحور الشعر من خلال دراسة النصوص الموجودة بين أيديهم من النثر والشعر، وقد فعل مثل ذلك أيضا بعض علماء الأنثروبولوجي والفولكلور واللغة عندما اســتخلصوا قواعد بعض اللغات المحكية (سيبويه وقواعد اللغة العربية، الفراهيدي وبحور الشعر العربي، عبداللطيف البرغوثي وبحور الشعر الشعبي في فلسطين والأردن).

إن الانتقال بالوصف من المستوى البسيط (الوصف الدقيق) والمستوى المتوسط (التفسيري) إلى مستوى آخر أكثر تقدما سيفضي بنا الى المستوى الثالث والأخير من الدراسات الوصفية التحليلية، ألا وهو المستوى التجريدي.

فإذا ما تم التثبت من صحة بعض الفروض والنظريات من خلال الأساليب والمناهج العلمية المتبعة، فإن هذه الفروض والنظريات ستتحول إلى قواعد، وسيصبح بوسعنا تفسير الظاهرات الطبيعية والاجتماعية وفق هذه القواعد، بل والتنبؤ بالمستقبل في الحالات التي تشترطها هذه القواعد. فمقولة " لكل فعل رد فعل مساو في القوة ومعاكس في الاتجاه " هي قاعدة علمية أثبتت من خلال التجارب والملاحظة المنهجية التجريبية. واستنادا إلى هذه القاعدة، يمكننا التنبؤ بالنتائج المترتبة على إصطدام سيارة

تسير بسرعة ١٠٠ كم في الساعة ووزنها ٣ أطنان بجدار ثابت أو متحرك. ووفقا لهذ القاعد يمكننا حساب الاتجاه الذي جاءت منه السيارة بعد اصطدامها بالجدار... إلخ.

من المعروف أن العلوم الإنسانية لم تنجح حتى الآن في الوصول إلى قواعد علمية بمثل ما وصلت إليه العلوم الطبيعية، وهذه الحقيقة لم تثن العلماء والناس عموما عن البحث عن القواعد المؤكدة للسلوك، وما الأمثال والحكم إلا شكل من أشكال القواعد التي استخلصها الإنسان خلال حيواته الطويلة المتعاقبة(*)، ولكنها تختلف عن القواعد العلمية في أن القواعد العلمية تتوقع نتائج محددة ودقيقة إذا توفرت لها الشروط المطلوبة في كل زمان ومكان، وهذا الأمر لا يصدق تماما ودائما في الظواهر الاجتماعية، بسبب التداخل والتعقيد والتغير الدائم الذي تتصف به الظاهرات الاجتماعية.

٢ – أساليب المنهج الوصفي:

والمنهج الوصفي بحد ذاته، يتضمن عددا من الأساليب العلمية أو (الأنماط) التي يستخدمها الباحثون وفق الحالات والظواهر محل الدراسة، ومن الملاحظ أن الباحثين يختلفون أيضا حول هذه الأنماط، او يتمايزون في تسـميانها أحيانا، وهذه الأساليب هي:

٢-١ – **اسلوب المسح.Survey** وهو المعتمد على أداة الاستبانات بالدرجة الأولى، ثم الأدوات الأخرى كالمقابلة. وهدفه هو جمع البيانات الشاملة المتعلقة بالظاهرة أو مجموعة من الحالات. ويكثر اسـتخدام هذا الأسلوب في العلوم الاجتماعية والطبيعية، وخصوصا دراسات الاتجاهات Attitudes في التعليم والإعلام.. إلخ. ويندر اسـتخدامه في حقول الدراسات الفولكلورية.

---

* – من أمثلة ذلك المثل الشائع " طب الجرة على ثمها، تطلع البنت لأمها "، اي ان الفتاة تحمل الكثير من صفات والدتها، وهذا مبدأ أو قاعدة سلوكية وتربوية وربما بيولوجية أيضا، ذلك أن السلوك والاتجاهات عموما، هي نتاج العاملين الاجتماعي والوراثي، والأم مصدر أساسي لهذين العاملين.

٢- ٢ - **أسلوب دراسة الحالة (التتبعية).** Case Study وهو الأسلوب المعتمد على العديد من الأدوات وخصوصا الملاحظة والاستبيان والمقابلة، وهدفه هو متابعة التطور والتغير في الحالة، وله اتجاهان عرضي وطولي. ويكثر استخدامه في العلوم الاجتماعية وعلوم النفس وكذلك في بعض المجالات الطبيعية كدراسة نمو الأحياء والظاهرات الفلكية.. إلخ. ويندر استخدامه في حقول الدراسات الفولكلورية.

أما أهمية دراسة الحالة، فتتمثل في أنها تمكن الباحث من النفاذ إلى أعماق الظواهر أو المواقف التي يقوم بدراستها، بدلا من الاكتفاء بالجوانب السطحية العابرة التي قد لا تكون ذات دلالة حقيقية، وإذا كنا نعتقد أن كل فعل اجتماعي له معنى ذاتي، كما ذهب إلى ذلك ماكس فيبر، وأنه يتعين على عالم الاجتماع أن يستكشف هذه المعاني الذاتية التي يضفيها الأفراد على سلوكهم، وأن يدرس ايضا كل الدوافع، والمقاصد، والرغبات، والمشاعر التي تكمن خلف السلوك الاجتماعي كموجهات له..، ومثل هذه الاهداف والوظائف تحققها دراسة الحالة بأعلى درجة من الكفاءة. (١٣)

٢ - ٣ - **تحليل المحتوى.** Content Analysis ويقوم على أساس تحليل أو تجزيء النص إلى عناصره الأساسية وعوامله المرتبطه. وقد أفردنا له مناقشة مستقلة نظرا لأهميته في

الدراسات الفولكلورية، ونظرا لوجود بعض الفوارق بينه وبين التحليل المستخدم في المناهج الوصفية عموما.

٢-٤ - **الدراسات العلائقية:** وهي الدراسات التي تسعى للكشف عن العلاقات بين الظواهر والعوامل وتحاول تقديرها أو قياسها.. وقد أفردنا لها مناقشة مستقلة نظرا لأهميتها في العلوم الاجتماعية والإنسانية عموما، ونظرا لكثرة المحاذير والمهارات والمعارف اللازمة لاستخدام هذا المنهج في البحث.

ثانيا - المنهج التاريخي Historical Method

يمكن اختصار تعريف المنهج التاريخي بأنه " طريقة لإعادة بناء أحداث الماضي وتوضيح العوامل والعناصر الفاعلة فيها ". وبالإمكان أيضا الاطلاع على

المزيد من التعريفات التي لن تخرج عن هذا المضمون كثيرا، لأن الماضي هو في الحقيقة سلسلة من الاحداث التي تم وقوعها، ولكنها تركت بعض الآثار أو البصمات في هذا الحاضر، وهي ايضا وقعت في زمان ومكان محددين، والبحث العلمي، وفق المنهج التاريخي، سيكون قادرا على إعادة بناء صورة تقريبية لهذه الأحداث والوقائع بالقدر الذي تسمح به الآثار والبصمات المتخلفة.

والمؤرخ لا يقف عند حد وصف الحوارات والوقائع الماضية وتنسيقها، بل يهدف إلى الكشف عن العلاقات السببية التي توجد بينها لتفسيرها وتعليلها، وكان ابن خلدون قد فطن لهذه الوظيفة للتاريخ، إذ يقول " إذ هو – التاريخ – في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظرة وتحقيق وتعديل للكائنات ومبادئها دقيق، " وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وحقيق ". (١٤)

ووصف الكسندار كراب الفولكلور بأنه علم تاريخي من حيث أنه يلقي الضوء على ماضي الأنسان، وإذا كان التاريخ يدرس العصور المختلفة كما تمثله فئة قليلة هم طبقات الحكام ورجال الفكر والأدب بشكل خاص، فإن على الفولكلور أن يعيد بناء التاريخ الروحي للإنسان كما تمثله أصوات العامة من الناس. (١٥)

فالتاريخ يقوم بدراسة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والمظاهر الفكرية والمؤسسات والقيادات السياسية وغيرها مما يتمثل في الحضارة، وعلم الفولكلور يدرس إنعكاس هذه العلاقات المتشابكة في الفولكلور بعامة والأدب بخاصة، وهذا يؤكد الحاجة للتعاون بينهما. (١٦)

والمنهج التاريخي أثناء محاولته إعادة بناء وتصوير الماضي إنما يستخدم أسلوب الوصف أولا كمرحلة أولى، ولكنه لن يستغني عن الأساليب الأخرى خلال عملية التثبت والتيقن من مصادر البيانات أو خلال مرحلة التحليل والتركيب الضروريتين لكفاءة المنهج التاريخي، وقد يضطر المنهج التاريخي إلى استخدام وسائل أخرى كالمقابلات أو الأسلوب المقارن أو تحليل المحتوى الذي لا بد منه في نقد وتقييم الوثائق والسجلات والشهادات (الإفادات) التي كثيرا ما يرتكز عليها المنهج التاريخي.

مصادر البحث التاريخي:

عادة ما يجري تلخيص مصادر المعلومات في البحث التاريخي كما يلي:

١ – السجلات والوثائق.

٢ – الآثار بمختلف أنواعها من الحجر إلى النقود إلى الاواني... إلخ. .

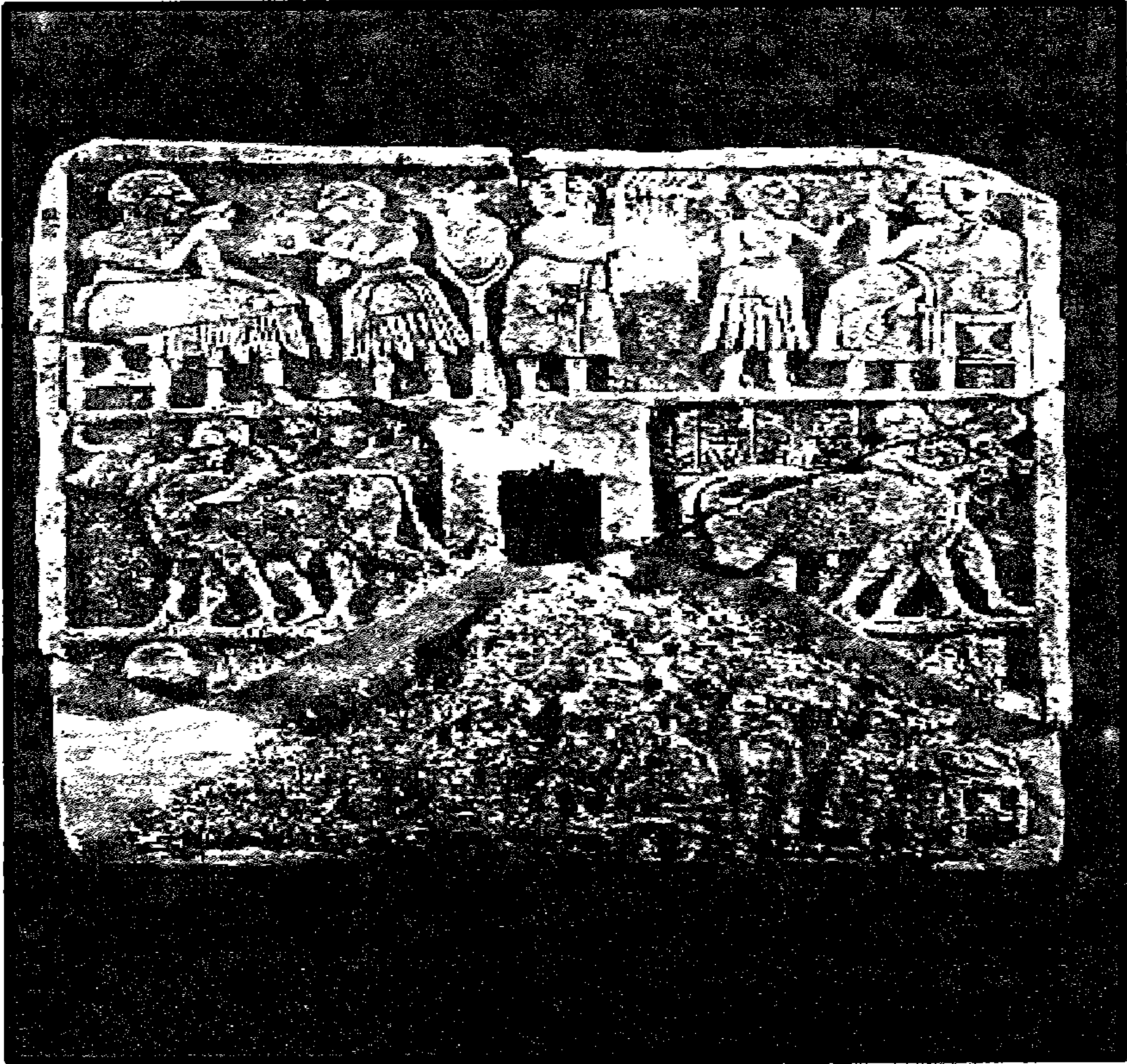
٣ – المشاركون وشهود العيان.

٤ – الصحف والمجلات والمنشورات المطبوعة والمصورة.

٥ – المذكرات والسير والرسائل .

٦ – الأعمال الفنية والأدبية.

٧ – الدراسات السابقة.



لوح حجر منقوش نفّر ٢٦٠٠ ق م

وإذا ما انتقلنا للتخصيص في ميدان الفولكلور، فانه يمكن اعتبار النصوص التراثية على إختلافها شكلا من اشكال الوثائق الشفوية، لكن هذه الوثائق لا يمكن أن تؤخذ على علاتها، وبعضها يعتبر نوعا من الأعمال الأدبية والفنية، أما الآثار المادية الفولكلورية، فبعضها قادم من التاريخ السحيق مثلما تشير بعض الشواهد، مثلا المحراث الخشبي والمزمار المصنوع من البوص أو العظم أو الثوب والعمامة للرجل.. والكثير من هذه الآثار لا يزال حيا في الاستخدام، لكن بعض الآثار يعتبر آثارا حديثة نسبيا أو حية نسبيا مثل بعض الأواني أو الالات الموسيقية او الملابس.. إلخ(*) مما يستلزم معه البحث الجدي في الفترة التاريخية

التي وجدت فيها، بمعنى أنه يجب الأنتباه كي لا تخدعنا بعض هذه الأثار الفولكلورية المادية في تاريخها وتاريخ نشوءها مهما بدت عليه من تقادم.

على أنه في التعامل مع النص التراثي، ثمة بعض الاعتبارات التي يجب دراستها لاعتماد النص كوثيقة تاريخية لذلك المجتمع او الزمن محل الدراسة، واهم تلك الاعتبارات التأكد من ان النص يعود إلى الفترة الزمانية والوحدة المكانية أو الاجتماعية التي ندرسها، ثم بعد ذلك التاكد من أن النص كان نتاجا جماعيا، وليس نتاجا فرديا، وهذا لا يعني ان النتاجات الفردية هي خارج نطاق الدراسات الفولكلورية التاريخية، غير ان المقصود هو عدم الخلط بين النتاجات الفردية وتلك الجماعية. وفي كل الأحوال، فإنه ليس من السهل الركون إلى النصوص الشفوية كمصادر تاريخية، نظرا لخصائص النصوص التراثية التي يقبل التعديل والتغير والتشويه عبر حياتها بين الأجيال المتلاحقة او عبر انتقالها من مكان إلى آخر.

---

* - من ذلك مثلا الآلة الموسيقية القربة، وهي مصنوعة من جلود الأغنام بالأساس، ويتم التعامل معها حاليا بإعتبارها تراثا عربيا أو فولكلورا يحتفى به، ومن المؤكد أن هذه الآلة دخلت مجتمعاتنا حديثا مع الغزاة وربما الأستعمار البريطاني، إذ أنها آلة أجنبية تماما لم تكن معروفة لدينا في العصور السحيقة. وقد شاهدنا مثلها في تراث قومية المغول في الصين، وهذا أميل لأعتبارها آلة شرقية مع أن التراث البريطاني يحتفي بها جيدا، وكان هؤلاء قد اجتاحوا العالم العربي في القرن الثاني عشر ميلادي، قبل ان يدخلوا الاسلام وينكص بعضهم من حيث أتى.

وكان ابن خلدون قد أشار الى اهم العوائق التي توقع الباحث في الاخطاء نوجزها فيما يلي:

١ – تحيز الباحث لميوله وأهوائه وميول واهواء من ينقل عنهم.

٢ – جهل الباحث بالقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية وعدم معرفة طبيعتها، فمعرفة طبائع العمران وأحواله من الأمور المهمة في معرفة حقيقة الحوادث والوقائع (١٧).

والحقيقة ان مثل هذه الاخطاء تبدو جلية في الكثير من الدراسات الفولكلورية، ومن السهل تفسير ذلك، فان كثيرا من تلك الدراسات جاء بدوافع عاطفية – وطنية، ومن هنا راح بعض الباحثين يتغاضون عن (السلبيات) التي قد تسيء إلى صورة تراثهم (المجيد) من وجهة نظرهم، وبعضهم يعتقد ان التعامل مع التراث والأحتفاء به يجب أن ينحصر في الجانب الإيجابي منه، مقابل تجاهل الجوانب السلبية التي لا تنسجم وروبانا في العصر الحديث. بل فإن بعض الباحثين تعدوا هذا المنطق، ليحاولوا لي أعناق الحقائق وتزييفها او تزيينها، وكثيرا ما يبرز مثل ذلك في الأبحاث المتعلقة بالأنساب العشائرية او الإقليمية، فهذا الباحث جعل في شجرة عائلته جذورا تعود بها الى أشرف الأنساب وأبعدها، وآخر جعل من قريته أو مدينته مركزا للمدنية والحضارة والأخلاق والفنون والكرم.. إلخ.

أما في العامل الآخر الذي ينتج عن عدم معرفة الباحث بقوانين الظواهر الاجتماعية، فهو أيضا أوجد لنا الكثير من الدراسات السطحية أو الشكلية التي لم تتمكن من سبر غور الحقيقة، واكتفت مثل تلك الدراسات بتقليد غيرها من الأبحاث السابقة أو بالوصف الذي يغلب عليه الانتقائية التجميلية، وثمة دراسات أخرى حاولت تفسير بعض الظاهرات بإرجاعها إلى هذا العامل أو ذاك، مما يمكن اعتباره نوعا من الحتمية، كأن يستند الباحث إلى تفسير الظواهر بالعامل الاقتصادي مثلما ينحو

الماركسيون، او بالعامل الديني والأخلاقي مثلما ينحو الفكر المتدين او المحافظ، وغير ذلك من العوامل المتنوعة من باحث إلى آخر.

أهمية البحث التاريخي: (١٨)

لم يكن هدف الدراسات التاريخية الاطلاع على أحداث الماضي لذاتها بقدر ما يكون لفهم ذلك الماضي بقوانينه وآلياته، ومن شـــأن ذلك فهم الحاضر، وبناء توقعات للمستقبل، وتتضح أهمية الدراسات التاريخية فيما يلي:

١ - تساعد الدراسات التاريخية في الكشف عن الأصول الحقيقية للنظريات والمبادىء العلمية، وظروف نشـــأة هذه النظريات، وهذا يساعد في إيجاد الروابط بين الظواهر الحالية والظواهر الماضية.

٢ - تساعد الدراسات التاريخية في الكشف عن المشكلات التي واجهها الإنسان في الماضي وأساليبه في التغلب عليها والعوائق التي حالت دون إيجاد حلول لها.

٣ - تساعد الدراسات والأبحاث التاريخية على تحديد العلاقة بين الظواهر أو المشكلات وبين البيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الي أدت إلى نشوئها.

النقد والتقييم للوثائق التاريخية والفولكلورية:

النقد والتقييم للوثائق والنصوص التي تصل للباحث عملية مهمة قبل اعتماد الوثيقة أو النصوص وما جاء فيها من معلومات قد تكون مغلوطة، وعادة ما يتم تقسيم النقد إلى نقد داخلي وخارجي:

أولا - **النقد الداخلي**: ويتلخص في طرح مجموعة من الأسئلة أوالتساؤلات كما يلي:

١ - هل محتويات الوثيقة منسجمة مع نفسها أم أنها متناقضة ؟

٢ - هل ثمة وثائق أخرى تناقض او تعزز هذه الوثيقة ؟

٣ - هل كتبت الوثيقة بعد حدوث الواقعة أو الظاهرة أم أثناء ذلك ؟

٤ - هل هناك ما يشير إلى عدم موضوعية الكاتب أثناء كتابة الوثيقة ؟

٥- هل كاتب الوثيقة محل للثقة والمصداقية أم أنه مطعون في مصداقيته لسبب أو أخر، كأن يكون صاحب مصلحة واضحة في ذلك، أو كأن يكون متعصبا لمذهب أو فرقة، (وهذا بخلاف الانتماء القومي أو السياسي) أو أنه مطعون في صدقه، أو أنه غير سوي عقلياً أو نفسيا أو شكليا، وشكليا قد تعني أن الكاتب عرف عنه عدم إجادة الكتابة مثلا، والوثيقة تزعم أنها بخط يده، وقد يعني أيضا أن الورق الذي كتبت عليه الوثيقة أو الحبر لم يكن معروفا في حينه... إلخ من الاحتمالات.

٦- هل كتبت الوثيقة في أجواء حرة بعيدا عن الترغيب أو الترهيب.

ونضيف إلى ذلك بنود خاصة بالمادة الفولكلورية منها:

- هل تعتبر هذه الوثيقة نتاجا جماعيا أم إبداعا فرديا لم ينتقل إلى مرحلة الجماعية؟
- إذا كانت مادة التراث لا شك فيها داخليا، فالسؤال هل تنتمي إلى المجال المكاني أو الزماني الذي نبحث فيه؟ بمعنى أن النص قد يكون سليما لكنه ينتمي إلى مجتمع آخر أو زمان آخر غير الذي نتحدث عنه؟ ويبرز مثل هذا الخلط كثيرا في الدراسات الفولكلورية إذ يسجل بعضهم كل ما يعرفه من أمثال أو قصص وينسبها إلى المجتمع الذي يتحدث عنه دون أن يفصل ما كان ينتمي حقيقة إلى هذا المجتمع أو ما كان من نتاج ثقافته ومعارفه العامة، كما في حالة الأمثال والأقوال المأثورة والحكايات والأغاني وغيرها، وقد خرج منها الكثير عن نطاق المحلية إلى نطاقات أوسع بفضل التقدم الكبير في وسائل الاتصالات والمواصلات.

ثانيا – النقد الخارجي للوثيقة: ويتلخص في طرح التساؤلات التالية:

١- في أي عصر أو أي سنة ظهرت الوثيقة أو المصدر؟

٢- من هو الكاتب او المؤلف ؟ هل هو الذي كتب النسخة الأصلية أم صورة عنها؟

٣- متى ظهرت الوثيقة لأول مرة، وأين ؟

٤- هل كتبت الوثيقة بلغة العصر التي نسبت إليه أم أنها لغة مختلفة ؟

٥- هل كتبت الوثيقة باستخدام المواد المعروفة في ذلك العصر من ورق وحبر ؟

ويضاف إلى خصوصيات المادة التراثية أيضا:

٦- هل الوثيقة المدروسة أصيلة في المجتمع ام دخيلة أم عابرة ؟ ومن أمثلة ذلك نمط بناء عمراني مثلا، أو ثوب مطرز وجد في هذه القرية غير أنه ربما قدم من خارجها ولم يصبح تراثا عاما فيها ؟ ومثل ذلك يقال عن التقاليد والمعتقدات والنتاج اللفظي عموما.

المنهج التاريخي والدراسات الفولكلورية:

يستخدم المنهج التاريخي أكثر ما يستخدم في الدراسات الفولكلورية إلى جانب المنهج الوصفي، وذلك نظرا لما تتصف به موضوعات الفولكلور من تقادم يحتم إستخدام هذا المنهج وأساليبه وأدواته، وقد تعاظمت اهمية المنهج التاريخي لموضوعات الفولكلور نظرا لأن الدراسات الوصفية في الفولكلور لم تقم في الوقت المناسب في المجتمعات العربية، وكان سبب ذلك قلة الوعي بأهمية تسجيل الفولكلور ودراسته في وقت مبكر، وأعتقد أن هذا الوعي بأهمية هذا الموضوع لا زال دون الطموح ودون الحاجة الماسة اليه بكثير، وهذا الأمر كان دافعا رئيسيا لنا للقيام بهذا المشروع المتواضع، الموجه أساسا للباحثين المبتدئين والجامعين الهواة الذين يهتمون بقضايا تراث مجتمعاتهم.

تبدو أهمية المنهج التاريخي أول ما تبدو في حقل التاريخ الشعبي، الذي يعد حقلا رئيسيا مستقلا من حقول الدراسات الفولكلورية، فلكل مجتمع تاريخه الخاص أو تاريخه الفرعي، والتاريخ الرسمي نادرا ما يهتم بالتاريخ الخاص أو الفرعي لهذه المدينة أو تلك القرية أو هذه الجماعة أو تلك الفئة من الناس، وهذا ما يحاول فرع التاريخ الشعبي القيام به، والتاريخ الخاص، قد يتناول مراحل نشوء أو تنقل هذه الجماعة أو تلك القرية دارسا لأبنية القوة والسلطات فيها، متعرضا للصراعات والتحالفات والاقتصاد والعمران.. إلخ وذلك ما يجري في التأريخ الرسمي تماما.

ولا يشترط في المنهج التاريخي اقتصاره على دراسة أنظمة القوة السياسية والاقتصادية وعلاقاتها، بل إنه مخول بدراسة وتتبع أي ظاهرة اجتماعية في هذه الجماعة أو تلك، بدءا من تأريخ الحرف والمهن مثلا أو تطور اللهجات أو تطور الأنماط العمرانية أو وصف المجتمع بكافة أبعاده المادية وغير المادية وتتبع الهجرات والتنقلات التي قامت بها الجماعة عبر الأقاليم، وقد وجدنا الكثير من الدراسات التاريخية التي تناولت مجتمعا متكاملا بجميع أبعاده، من ذلك مثلا بعض الدراسات حول مدن القدس، الخليل، عمان، نابلس، يافا، السلط، بغداد، دمشق.. إلخ. أو سلسلة دراسات رابطة الجامعيين في الخليل حول " قرى محافظة الخليل ".. إلخ. وقدم العديد من طلبة الدراسات العليا في الجامعات العربية والأجنبية رسائل وأطروحات جامعية عن تاريخ مناطق او محافظات محددة خلال فترة زمنية محددة.

وبعض الدراسات الفولكلورية التأريخية، راحت تتناول قطاعا أو فئة محددة دون الأمتداد لما حولها من مجالات – ومن ذلك مثلا " أغاني العمل والعمال في فلسطين " "الملابس الشعبية " أو " عكا أثناء الحملة الفرنجية – الصليبية الثالثة "...إلخ.

والمؤرخ الفولكلوري لا يمكنه الاستغناء عن مساعدة عدد من العلوم المساعدة وعلى رأسها الآثار والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وقبل ذلك عليه دراسة لغة المجتمع وثقافته دراسة وافية وهذه مسألة بديهية، فمن خلال الأنثروبولوجيا الأجتماعية، يجب عليه القيام بدراسة دقيقة للنظام الاجتماعي والملامح الثقافية الرئيسية قبل أن يوجه اهتمامه إلى الدراسات التاريخية، والا فإنه لن يكون قادرا على أن يدرك كيف ولماذا توجد المأثورات..

والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن بعض الباحثين المبتدئين، هو كيف يمكن تطبيق خطوات البحث العلمي في المنهج التاريخي ؟ كيف نتعامل مع مرحلة الفروض وفحصها خصوصا أو مسألة النتائج ونحن بإزاء عملية وصف تاريخية ليس إلا ؟

سبق أن أشرنا، ونحن نتحدث عن خطوات البحث إلى خصوصيات كل منهج وكل موضوع يتم تناوله، وهذه مسـألة طبيعية تماما، فخطوات البحث ليست مرسوما

مقدسا بقدر ما هي خطة مرنة لمساعدة الباحث وضبط إجراءاته، وعليه فإن قضية مشكلة البحث والفروض وفحصها وكذلك الخروج بنتائج يمكن إعادة صياغتها بطرق عديدة. أمر قد لا يناسب كل الدراسات التاريخية وخصوصا تلك المهتمة بالوصف.

فإذا كان هدف الدراسة الإحاطة بعناصر ظاهرة معينة أو حادثة او واقعة أو الإحاطة بفترة زمنية أو مكانية بمختلف عناصرها القائمة في حينه، فإن ذلك بحد ذاته يعتبر تحديدا للموضوع، وضمنيا تحديدا للفروض، إذ ليس وضع الفروض أمرا مقدسا، بل إن بعض كبارالباحثين والمفكرين، يرفضون التقيد بالفروض لما لذلك من تقييد لحرية الفكر والبحث.

وأصبح من المهم أن يكون الباحث مدركا لأهدافه من الدراسة حتى وإن خلت من الافتراضات التقليدية التي عادة ما تصاغ على شكل نفي أو إثبات: لا يوجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين كذا وكذا من العوامل، أو العكس.

وبدل ذلك يمكن للباحث صياغة قضية أو هدف كما يلي:

تطور المهن والحرف الشعبية في مدينة (ص) في الفترة العثمانية.

أو: تغير تقاليد الزواج والوفاة في قرية (س) حتى قبيل سنة ١٩٢١.

أو: وقائع حرب البسوس اعتمادا على قصائد شعرية.

أو: حقيقة الصراع بين عشائر القيسية واليمنية في الجزيرة العربية.

وقضية الوصف في المنهج التاريخي، تعد – بحد ذاتها – هدفا مثلما أوضحنا أكثر من مرة، وفي هذه الحالة يقوم الباحث بتحديد موضوعه تحديدا واضحا ودقيقا، وضبط خطته بناء على هذا التحديد بلا نقص أو زيادة، والنقص أو الزيادة جائز لكن مع إعادة صياغة حدود الموضوع وأهدافه، لكن على الباحث ان يلم بعناصر موضوعه كاملة، فإذا رغب بالتخلي عن بعضها، وجب عليه توضيح ذلك وتبريره ، ولناخذ مثلا واحدا:

وإجمالا، فإن وضع الفروض ضروري إذا كان هدف الباحث تفسير الحقائق والكشف عن الأسباب، والتعرف على العوامل وتحليل الظاهرة المراد دراستها، لذا نجد أن البحث ذا المستوى المتعمق لا بد أن يعتمد على الفروض.

يمر البحث التاريخي بالخطوات التالية:

١ – تحديد مشكلة البحث أو الدراسة.

٢ – تحديد فرضية البحث أو الدراسة.

٣ – تصنيف الحقائق وتحليلها ومحاولة الربط بينها.

٤ – عرض النتائج. [١٩]

من المهم أن يدرك الباحث جوهر المنهج التاريخي، أو روحه. إن روح المنهج التاريخي تتمركز في الحراك والتغير بالدرجة الأولى، أما ما عدا ذلك فهو أيضا مهم كأهمية الجسد للروح، أنه الوسائل أو الأدوات التي نبحث بواسطتها عن الروح أو آثار الروح، هكذا أفهم هذا المنهج، لا أن نجعل منه تسجيلا جامدا لوقائع صارت في ذمة الماضي.

نكتفي بهذا القدر من مناقشة المنهج التاريخي في موضوعات الفولكلور، مع اليقين أنه ما زال هناك الكثير من المحاور والعناصر التي يمكن أن تناقش، وحسبنا أن بعضها مما سنتناوله في المناهج التالية، وبعضها الآخر مما يستزاد منه في المراجع التفصيلية الأخرى.

ثالثا – منهج أو أسلوب تحليل المضمون Content Analysis

سيجد القارئ أن الكثير من الباحثين جعلوا من منهج تحليل المضمون عنوانا فرعيا أو أسلوبا من أساليب المنهج الوثائقي، وبعضهم صنفه ضمن أنماط المنهج الوصفي، فيما عمد آخرون لتصنيفه ضمن المنهج التاريخي، وبعضهم جعله مستقلا بذاته مثلما اخترنا في هذه الدراسة.

ومنهج تحليل المضمون هو الطريقة التي نقوم من خلالها بتحليل مضمون النصوص لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من بيانات أو اتجاهات في ظاهر النص أو باطنه، داخل إطار النص أو خارجه.

وثمة الكثير من التعريفات لهذا المنهج من قبل المختصين والعلماء الاجتماعيين، نختار منها ما وجدناه أكثر قربا من حقل الفولكلور، حيث يعرفه هولستي Holsti ,Ole بأنه " الاسلوب العلمي الذي يستخدمه الاجتماعيون في تحليل الأبحاث والمؤلفات الاجتماعية عن طريق استخدام الفنون الإحصائية والرياضية في تحديد الأفكار والسياقات والاتجاهات التي تنطوي عليها هذه الأبحاث والمؤلفات مع تحديد عدد المرات التي تكررت فيها الأفكار والاتجاهات.(٢٠)

والبيانات من داخل النص متعددة الحقول ووفق طبيعة النص وأهداف الباحث من دراسته، وأول تلك البيانات الاتجاهات Attitudes(*) لمؤلف النص فردا أو جماعة مثلما جرى في دراسة الحكايات الشعبية والأمثال الشعبية، وقد تكون البيانات في مجال العادات أو التقاليد أو المعتقدات أو الدلالات عموما، وقد تكون في مجال القيم الجمالية أو في مجال مفردات اللهجة الشعبية أو من أجل معرفة تأثيرات الحضارات أو الثقافات الأخرى، وغير ذلك الكثير مما تنبيء به النصوص، باعتبارها نتاجا اجتماعيا غنيا بمختلف العناصر الثقافية.

ونحن نتحدث عن النص الفولكلوري، فإن هذا النص عادة ينتمي إلى الآداب التراثية أو الشعبية، لأن مثل هذه النصوص فقط عادة ما تصلنا متكاملة أو صالحة للتحليل والدراسة وإن كانت غير كاملة تماما، مثل القصائد الشعرية والحكايات والخرافات والأساطير.. إلخ

وتعكس أعمال الأدب واللغة الفنية على الدوام في داخلها تلك المرحلة التاريخية للحياة القومية التي كتبت فيها (٢١).

---

* - الاتجاهات Attitudes: توجيه نحو موضوعات معينة، أو مواقف ذات صبغة انفعالية واضحة، وذات دوام نسبي، وقد يشير إلى الاستعداد أو الميل المكتسب الذي يظهر في سلوك الفرد او الجماعة. وقد ينظر إليه على أنه تعبير محدد عن قيمة أو معتقد. وإذا إستخدم استخداما اجتماعيا صرفا، فإنه يشير إلى مدى الإستجابة عن طريق العلاقات والواجبات، والآراء الاجتماعية. (المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ٣٠).

وليس ذلك وحسب، فبعض النصوص تحمل في طياتها وصفا للأحوال الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية للمجتمع، وباستطاعة الباحث الإفادة من قراءة هذه النصوص وتحليلها واستخلاص ما فيها من إشارات أو معطيات.

والبيانات التي يبحث عنها الباحث قد لا تبدو في ظاهر النص، وإنما في ثناياه أو في باطنه، واللغة العربية، من أكثر اللغات التي تبطن المعاني والدلالات، خصوصا إذا ما رغب الكاتب في ذلك، وبعض النصوص تتضمن بيانات واتجاهات لم يكن الكاتب او الناص قد تقصد وضعها أصلا، مثل الحال الاقتصادي أو الاجتماعي علاوة على الاتجاهات.

ومثلما يمكن استخدام النص ذاته في استخلاص بعض البيانات المطلوبة من بين ثناياه ومن داخل إطاره، فكذلك يمكن استخدام النص بكامله أو ببعض اجزائه لتأكيد فروض أو قضايا خارج هذا النص أو لنفيها، ولنضرب مثلا على هذه الجزئية لغموضها نوعا ما:

لنفترض أن باحثا ما وضع فرضا بأن التراث العربي يخلو من الأسطورة، وجاء باحث آخر ووجد هذه الأسطورة وثبتها كذلك. فهو بذلك يكون قد دحض الفرضية من خلال النص كاملا، وليس من خلال أجزائه.

أما إذا كانت الفرضية لأحد الباحثين تنفي معرفة هذه القيمة او تلك العادة، فإن الباحث قد يجد صدى لها في أكثر من أغنية شعبية أو مثل أو في الآثار الفولكلورية أيضا. على أن القضايا البحثية في تحليل المضمون غالبا لا ترد ببساطة الأمثلة التي أشرنا إليها، وقد فعل مثل ذلك إلى حد ما الدكتور طه حسين في دراسته للأدب الجاهلي، وقام بعض الدارسين بتحليل مضامين الحكايات الشعبية، وكان الكساندر كراب رائدا في ذلك، واستخدم هذا الأسلوب فيلهام جريم رائد الفولكلور الالماني، وفي الدراسات العربية قام العديد من الباحثين بتحليل لمضامين الأمثال الشعبية واستخلصوا منها الكثير من القيم والاتجاهات كاتجاه المجتمع نحو المرأة او العمل أو الكرم.. إلخ، وقام بعضهم بتحليل لمضمون القصائد النبطية او الأغاني الشعبية على اختلاف اشكالها.. إلخ، والصعوبة غالبا لا تتأتى من عدم قدرة

الباحث الكشف عن محتوى النص ظاهره أو باطنه، بل من عدم قدرته على إستشفاف "المسكوت عنه في النص" وهذه القدرة لن تتأتى للباحث إذا لم يكن محيطا في العصر الذي يبحث فيه بجميع أبعاده، وأسباب "غياب العناصر من النص" غالبا ما تكون متعددة ومختلفة من حالة إلى أخرى، فهناك الاسباب السياسية وأخرى المذهبية وغيرها من الاسباب، ومن أمثلة ذلك ما قام به بعض الدارسين من إستشفاف للمسكوت عنه أو المرمز إليه في نصوص "كليلة ودمنه"، فهذه النصوص لم تش بشيء عن الوضع السياسي المباشر، غير أن الكثيرين استشفوا المناخ السياسي الذي ضاقت فيه الحريات للدرجة التي جعلت "بيدبا الفيلسوف" يتحث بلسان الحيوانات.

والحقيقة أن هذا المنهج هو من أصعب المناهج لأنه يحتاج إلى ســعة وتعمق في المعرفة العامة، وتعمق في المجال البحثي يطال الأساليب الإحصائية ويفيد منها، وهو أشبه بعملية النقد الأدبي والتاريخي معا، فالباحث الذي يستخدم هذا المنهج يمثل أدوارا مختلفة كناقد أدبي وناقد تاريخي وباحث اجتماعي أيضا، ولا بد أن يكون لديه ما يكفي من معارف علم النفس أيضا ما دام يتعامل مع أشكال من الإبداع، وهو فوق ذلك يحتاج إلى مراس ودربة كبيرين في البحث، وهذا ما لا يتأتى إلا للباحثين الكبار المتمرسين. على أن أكبر خدمة علمية يؤديها منهج تحليل المضمون تتمثل في ان النص يشكل ميدان الاستقراء المهم لاستخراج القواعد أو العموميات المجردة، هذه القواعد القابلة للتعميم، وقد أشرنا في المنهج الوصفي تفصيلا إلى هذه الوظيفة المهمة لتحليل المضمون، وضربنا أمثلة في إنجازات بعض العلماء الأولين والمحدثين الذين توصلوا إلى تقعيد اللغات واللهجات وبحور الشعر الفصيح والشعبي، ومنهم سيبويه في اللغة العربية، والخليل بن أحمد الفراهيدي في علم العروض، ود. عبد اللطيف البرغوثي في استخلاصه بحورا للشعر الشعبي الفلسطيني والأردني مثل العتابا والميجانا وظريف الطول... إلخ. ومن المحدثين عدد كبير من الباحثين المستشرقين الذين سبقوا البحاثة العرب في دراسة لهجاتهم وتبيان ظواهرها وقواعدها.....

محاذير هذا المنهج وعيوبه:

يبقى لهذا الأسلوب من المحاذير والعيوب ما يتوجب على الباحث التنبه له باستمرار، ومن هذه العيوب والمحاذير ما يلي:

١ - إن تحليل المضمون ينحصر في إطار نصوص حاضرة أو جاهزة، ومن الصعب رؤية "المسكوت عنه من النصوص" التي قد تكون أكثر اهمية في الموضوع أو القضية التي ندرسها.

٢ - إن تحليل النصوص، ظاهرها وباطنها، فيه قدر كبير من التعسف أحيانا، إذ أن المحلل مثله مثل الناقد الأدبي، قد يضع في النص ما ليس فيه، ولذلك وجب على الباحث المحلل الحذر والتحلي بالاتزان، فلا يبالغ في التأويل زيادة أو نقصا.

٣ - إن بعض النصوص المسـجلة أو الموثقة عادة لا تطابق النص الأول الملفوظ، هذا في حقل التراث اللفظي، فإذا كان الراوي قد نقلها إلى جامع أو باحث، فقد يكون قد أسقط منها بعض العناصر او الدلالات قصدا أو بغير قصد، وقد يحدث للجامع ما حدث للراوي أثناء التسجيل والتوثيق، وقد يكون الباحث او الكاتب الأخير للنص قد أسقط بعض العناصر قصدا أو بغير قصد، وهكذا يحدث أحيانا أن أجزاء لا بأس بها من النص قد سقطت أو عدلت.

٤ - إن بعض الجامعين وبعض الباحثين كانوا قد تصرفوا عمدا في صياغة النصوص وفي مضامينها أيضا، وذلك لتتناسب وأهدافهم التربوية أو التعليمية أو الفنية، ومن ذلك ما جرى في تسجيل الكثير من القصص والحكايات الشعبية التي تصرف الكاتب في صياغة بعض عناصرها زيادة أو تنقيصا " الحكايات الشعبية الفلسطينية - إعداد علي الغول) وبعض الكتاب والباحثين عمد إلى صياغة الآداب الشعبية دون ان يغير من عناصرها لكنه صاغها بلغته الأدبية الفصيحة (الحكايات الشعبية في منطقة الخليل - رشدي الأشهب) مثالا، مما يخشى معه تآكل بعض المعاني والدلالات في بنائهما الدلالي واللغوي.

٥ - إن بعض النصوص قد تكون فردية، وذلك مثل بعض القصائد الشعرية التي يبتدعها بعض الشعراء الشعبيين، فيحفظها البعض ويرويها على اعتبارها تراثا

عموميا، والإبداع الفردي قد لا يصل إلى مرحلة الشعبية أو التراث الجمعي، وقد يصعب تبيان ذلك ما لم تتوفر دلائل كافية، وهذه القضية يمكن التغلب عليها بتوسيع دائرة البحث الميداني او الوثائقي.

أخيرا، فليس من المبالغة القول إن مناهج تفسيرالقرآن الكريم، فيها منفعة كبيرة لمثل هذا المنهج، وكيف لا وهذا القرآن اشتمل على الكثير من مناهج العلوم وبذورها من اللغة إلى التاريخ إلى علم النفس إلى الاجتماع إلى الفلك...، إذ إن مناهج التفسير القرآني إزدهرت وأجادت في أساليبها، وصارت تعد مدرسة في التحليل، ووجب على الباحث الإفادة منها ما أستطاع إلى ذلك سبيلا، وخصوصا أن المفسرين المسلمين والعرب، اعتمدوا على الثقافة العربية والإسلامية، ووعائها اللغة العربية في تفسير النص القرآني، وإجلاء معانيه، وتوضيح دلالاتها، الباطنة منها والظاهرة، ثم أنهم وضعوا معايير ومقاييس للتفسير مما يضبط عملية التفسير ضبطا دقيقا ويضع لها شروطا محددة.

رابعا – المنهج الارتباطي- العلائقي:

وهو المنهج الذي يحاول من خلاله الباحث فحص العلائق الاقترانية او العلية (السببية) بين متغيرين أو أكثر مع محاولة تقدير درجاتها أو قوتها أواتجاهاتها.

وقد تطور هذا المنهج بفضل ما وصلت إليه المناهج التجريبية من تقدم في العلوم الطبيعية، وقد حاول علماء العلوم الاجتماعية والإنسانية تطبيق مبادئه في مجالاتهم، فحققوا جراء ذلك تقدما منهجيا كبيرا، ولكنه لا يرقى بالطبع إلى ما وصل إليه المنهج التجريبي من إنجازات، ومع ذلك فقد إرتقى البحث الاجتماعي نتيجة لذلك ارتقاء كبيرا، وكان من نتيجة ذلك التوسع في استخدام الطرائق الرياضية والإحصائية في البحوث الاجتماعية والإنسانية، وأستحدثت معادلات رياضية خاصه بها، ومنها مقاييس الارتباط Correlation ومقاييس الانحدار والتشتت والنزعة المركزية ونظريات الاحتمالات والمصفوفات.. إلخ. وراحت هذه المناهج تستفيد من التقدم التكنزلوجي أيضا وخصوصا من وسائل الاتصال وتكنولوجيا المعلومات، وقامت بعض الشركات بتوفير برامج عملية للتحليل الإحصائي لمختلف العلوم، مثل برنامج تحليل

البيانات لعلم الاجتماع والتربية SPSS، وكان من شـــأن هذا البرنامج وأمثاله تحليل كميات كبيرة من البيانات الرقمية واستخلاصها في علاقات رياضية مبسطة مثل علاقة الارتباط أو الاقتران أو التباين أو التشتت.. إلخ.

ومن البديهي أن معالجة البيانات الإحصائية لن تكون مفيدة أو معبرة ما لم تكن محكومة بمنهج أكبر أو إطار عام ينظم هذه البيانات ويعيد صياغتها صياغة حيوية بقليل من الصيغ الرياضية أو بدونها، وهذا ما يجب على الباحث القيام به لكي لا يتحول بحثه إلى أرقام مجردة أو صماء.

وبما أن المنهج الارتباطي – العلائقي يتعامل مع أنواع من المتغيرات Variables، فإنه يجدر التعريف بمصطلح المتغيرات وبأنواعها كما يلي:

١ – **المتغير المســتقل. Independent Variable** ويفترض أن يكون هو المسؤول عن التغير الملاحظ في الظاهرة (العامل التابع).

٢ – **المتغير التابع. Dependent Variable** ويفترض فيه أن يكون نتيجة للعامل المستقل، أي أنه الظاهرة مدار الأهتمام، فهو يتبع المتغير المستقل في حركته.

٣ – **المتغير الوسيط. Intervening Variable**. وقليلا من الباحثين من يتنبه إلى أهميته، ومعظم المراجع في المكتبات العربية تتجاهل هذا المتغير وما يرتبط به من مفاهيم، مع انه عامل حقيقي فاعل في الظاهرات الاجتماعية، وربما الطبيعية، وسبق أن أدركت أهمية هذا العامل في بحث مرحلة الماجستير في التربية، وقد وجدت الدراسة أن بعض العوامل التي يعتبرها بعضهم عاملا تابعا أو مستقلا لا تتمتع بالصفات التامة لتسمى تابعة أو مستقلة، ومن ذلك عامل موقف الأسرة مثلا من اتجاهات الأبناء نحو مستقبلهم التعليمي والمهني، فقد وجدت الدراسة، أن موقف الأسرة ما هو إلا نتاج عوامل أخرى مستقلة أو سابقة عليها مثل المستوى التعليمي والوضع الاقتصادي والوضع الاجتماعي للأسرة، ومع ذلك، فقد كشفت التحليلات الإحصائية أن موقف الأسرة هذا لا يرتبط تلقائيا بالعوامل المستقلة في كل الحالات أو في كل الظروف المماثلة، بل

إنه يكتسب فاعليته المستقلة بعد حين من الزمن، أو نتيجة لبعض العوامل الأخرى، فهذا العامل كمن يقوم بدور وسيط أو متوسط بين المتغيرات المستقلة والتابعة، وهذا المتغير أو العامل كثيرا ما نجده في دراسة الظواهر الاجتماعية، ومن أمثلة ذلك: المسجد في مثال القرية التي إرتفع فيها عدد المصلين بعد بناء المسجد، إن البيانات التي تجمعت لدينا جراء الفحص والبحث لا تحسم لنا في الدور الحقيقي لهذا المتغير، ما دام ثمة متغيرات أخرى ذات علاقة، الا وهي عاملا زيادة التعليم وتحسن الوضع الاقتصادي للناس، آليس من الممكن أن يكون (متغير) بناء المسجد بحد ذاته متأثرا بعوامل أسبق (عوامل مستقلة) عليه أو مصاحبة له ألا وهي عوامل التعليم والاقتصاد، ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن ننفي بشكل مطلق ما لهذا المتغير (بناء المسجد) من أثر مباشر أيضا في زيادة عدد المصلين، فإذا ما ثبت لنا أن هذا العامل كان عاملا تابعا لغيره من المتغيرات، لكنه راح يملك من الفاعلية ما للمتغير المستقل في الوقت نفسه، أي خلال إجراء الدراسة والقياس. فانه من الصعب اعتباره متغيرا تابعا كما ليس لدينا الحق الكامل لاعتباره مستقلا. ونتيجة لهذا الوضع الوسيط بين المستقل والتابع، سميت بعض المتغيرات بمتغيرات وسيطة.

أنماط العلاقات بين المتغيرات:

وإذا نظرنا إلى أنماط العلاقات بين المتغيرات، فإننا لا بد أن نجدها تأخذ واحدا من الأنماط التالية:

١- علاقة سببية إيجابية – عامل مستقل أو أكثر سبب أو سـببت تغيرا في العامل التابع (الظاهرة)، وتوصف هذه العلاقة بعلاقة "العلة والمعلول" أو "السبب والمسبب " ، وهي علاقة إيجابية.

٢ – علاقة نسبية (عكسية وطردية): فإذا كانت العلاقة إيجابية، فقد تتخذ نمطين أو إتجاهين: علاقة طردية، فكلما إزداد أو قوي العامل المستقل يرتفع أو يشتد أو يزداد العامل التابع. ومن أمثلة الاتجاه الأول: ازدياد التبخر في الماء كلما ازدادت أو ارتفعت درجة الحرارة.

والاتجاه الثاني: علاقة عكسية، فكلما تناقص أو ضعف العامل المستقل كلما إزداد أو قوي العامل التابع.. من أمثلة الأتجاه الثاني: كلما تناقص عدد السكان أو عدد أفراد المجموعة كلما إزداد التماسك والتضامن الداخلي بينهم. أو كلما تناقص التنافس بين الأصدقاء كلما زاد التعاون بينم.

٣ – علاقة سلبية – فإذا وجد عاملان أو أكثر في الوحدة الزمانية أو المكانية نفسها، وتبين أن ليس ثمة علاقة بينهما، فان هذه العلاقة علاقة سلبية أو علاقة صفرية، مثل ذلك غياب الشمس وسقوط المطر، فإذا كان المطر سقط بعد غياب الشمس، فإن ذلك لا يعني أن غياب الشمس هي السبب . أو تسرب طلبة المدارس وارتفاع كلفة التعليم. أو بين زيادة لإقبال على الغناء الشعبي وزيادة مستويات التعليم الجامعي... إلخ.

٤ – علاقة اقتران – إقترن عاملان أو أكثر معا في الوقت نفسه، لكن هذه العلاقة ليست سببية بالضرورة، وذلك مثل البرق والرعد، فبالرغم من أن البرق يسبق الرعد بلحظات إلا انه لا يجوز الحكم بأن الرعد كان نتيجة للبرق، إذ أن السبب الحقيقي غير الظاهر في المعادلة هو عامل أخر الا وهو تماس الشحنات الكهربائية في السحب. وتوصف هذه العلاقة بأنها "علاقة تلازمية" او "علاقة إقترانية".

وقد قام جون ستيوارت مل بتصنيف خمس علاقات للروابط العلية، فيها تفصيل للعلاقات السببية بين العوامل، وبالرغم من أنها لاقت نقدا كبيرا إلا أن الاطلاع عليها فيه فوائد كبيرة. (*)(٢٢)

وعلى الرغم من أن استخدام المنهج العلائقي في الدراسات الاجتماعية قطع شوطا كبيرا منذ زمن بعيد، إلا أنه لا يزال في وضع متواضع في الفولكلور، والسبب أن العلوم الاجتماعية والإنسانية تحاول قياس الاتجاهات للجماعات والأفراد في راهن الوقت، وذلك لمحاولة التعرف على أسباب الظواهر واتجاهات التغير ودرجات هذا التغير، وهي تحقق في ذلك نجاحا، بينما يندر ان يحاول الفولكلور قياس الاتجاهات أو التغير في راهن الأيام، ولا يزال إهتمامه يتركز على ماضي الأيام وبقاياه من الآثار الشفوية أو المادية، فإذا رغب في الانتقال إلى حاضر الأيام وشؤونها، فهو على

الأرجح يكون قد انتقل إلى حقل آخر من حقول العلم، ربما علم الأجتماع أو الإعلام واستطلاعات الرأي أو علم النفس الاجتماعي.. إلخ. وربما يكون قد انتقل إلى منهج آخر من مناهج البحث وخصوصا أساليب المنهج الوصفي، أو المقارن.

ومع كل هذه الملاحظات حول هذا المنهج واستخداماته في قضايا الفولكلور، فإنه يحسن التأكيد على أهمية معرفة الباحث الفولكلوري بطرائق هذا المنهج وبفوائده، نظرا لما في ذلك من أهمية فكرية وأهمية عملية في التمرس على البحث العلمي العميق والجاد. ولذلك ينصح الباحث بالعودة إلى المزيد من المراجع للاستزادة حول هذا المنهج وطرائقه، وخصوصا الإحصائية منها التي لا يجوز لأي باحث كان عدم الإلمام الجيد بها.

صعوبات الدراسات السببية ومحاذيرها: (٢٣)

يمكن حصر الصعوبات والمحاذير التي تواجه الدراسات السببية فيما يلي:

١ – صعوبة تحديد العوامل المتصلة بعضها ببعض وذات العلاقة المتبادلة.

٢ – تسهل هذه العملية في حالة كون الظاهرة نتاجا لعامل او متغير واحد، وهذا الافتراض نادر جدا في الظواهر الإنسانية، وعادة تتعدد هذه المتغيرات. وهذه المســألة تعرضنا لها أكثر من مرة في هذا الكتاب.

٣ – قد تنتج الظاهرة عن سبب ما في حالة وعن سبب آخر في حالة أخرى. فمن الصعب تعميم النتائج في الظواهر الإنسانية، حتى وإن تشابهت الظروف، فإن الاضطهاد لن يولد الثورة بالضرورة، وكذلك الشعور بالاضطهاد لن يكون كافيا لذلك مثلما قالت النظرية الماركسية، فكم من الشعوب لديها مثل هذه الظروف ولكن لم تقم لديها الثورة، وعادة ما تتنوع وتختلف أسباب (عوامل) قيام الثورة وأسباب اللاثورة، وهذا مثال عام أضحى معروفا لكل متبصر.

٤ – إن كشف العلاقات لا يحل المشكلة بالضرورة، ولا يفضي إلى تفسير كامل في كل الأحوال.

٥ – إن التصنيفات التي تستخدم هنا للفئات أو الوحدات الزمانية والمكانية والمفردات المدروسة غالبا يتضمن قدرا من التعسف. فمن ذلك أن الدراسة قد

تعتبر الأسرة ذات الدخل الواقع في الفئة ما دون ٤٩٩ دولارا أسرة فقيرة، بينما تلك الواقعة بين ٥٠٠ فما فوق أسرة ميسورة، وهنا الفرق قد يكون بضعة دولارات فقط تفصل بين هذه وتلك، وهذا مخالف للمنطق في الواقع.

خامسا – الدراسات المقارنة:

المنهج المقارن هو الوسيلة العلمية التي يستخدمها الباحث الاجتماعي في دراسة الظواهر والعمليات والتفاعلات والمؤسسات الاجتماعية دراسة مقارنة تتخصص بدراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر والمؤسسات في مجتمعات مختلفة وبيئات متباينة جغرافيا واقليميا وفي مجتمع واحد عبر فترات زمنية مختلفة [٢٤] .

في هذا النمط من الدراسات يحاول الباحث المقارنة بين وحدتين متقابلتين، والوحدة الواحدة قد تتضمن متغيرا واحدا أو أكثر من المتغيرات، ومهما يكن هدف البحث والباحث في هذا النمط من أنماط الدراسات، فهو غالبا يستخدم الوصف كمنهج للدراسة، حتى وإن اعتمد المنهج التاريخي أو التجريبي، فهو يصف كل وحدة على حدة ويقابل بينهما لاستخلاص ما يرغب في استخلاصه من متغيرات فارقة أو مطابقة، ومن المحتمل أن يستخلص من وراء أنماط المقارنة تلك علائق أو ارتباطات يمكن التعبير عنها كميا أو كيفيا بالأرقام الرياضية وباستخدام الأساليب الإحصائية، وقد يكتفي بالوصف الذي يوفر فهما أو تفسيرا لأوجه الشبه والاختلاف بين الوحدتين المقارنتين أو بين بعض عناصرها.

وقد استعمل ابن خلدون هذا المنهج وأجاد فيه وكان فيه رائدا في المجال الاجتماعي والتاريخي، وقد قام ابن خلدون بتصنيف المجتمعات الى أنماط متنوعة وفقا لحياتها الاقتصادية، فهناك المجتمعات الزراعية البدائية ثم مجتمعات الرعي ثم مجتمع الزراعة المتقدمة، ثم مجتمعات الصناعة والتجارة، وهو يقارن صفات كل من هذه المجتمعات وطبائعها ودرجة التماسك (العصبية) فيها، وهو يقارن بين الحضارة والبداوة ويلقي الأضواء الساطعة على أثر كل نظام اجتماعي في النظام الآخر.

وقد استخدم ابن بطوطة والفارابي قبله هذا المنهج في دراسة الظواهر الاجتماعية، سواء أكانت في الواقع القائم على الملاحظة مثلما فعل ابن بطوطة، ام في الخيال " المدينة الفاضلة – المدينة الجاهلة " مثلما فعل الفارابي.

خطوات المنهج المقارن:

على أن الأوروبيين أيضا توسعوا وطوروا في هذا المنهج، إلى أن استخدمه عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم (١٨٥٨ – ١٩١٧) في دراسته الشهيرة عن الانتحار، حيث وضع دوركهايم عددا من الخطوات لاستخدام هذا المنهج كما يلي:[٢٥]

١ – دراسة مكونات الظاهرة وتحديد عناصرها الأساسية لكي يتمكن الباحث من فهمها.

٢ – دراسة اشكال الظاهرة في كل مرحلة من مراحل تطورها لربط ماضي الظاهرة بحاضرها ومن ثم المقارنة بين ماضيها وحاضرها.

٣ – دراسة علاقة الظاهرة بالظواهر الأخرى المشابهة لها وغير المشابهه.

٤ – الاستفادة من منطق المقارنة بين الظاهرة والظاهرة الأخرى.

٥ – التعرف على الوظيفة التي تؤديها الظاهرة الاجتماعية.

٦ – تحديد القوانين التي يتم استخلاصها من الدراسة بصورة دقيقة باعتبارها الهدف الرئيس للعلم.

تطبيقات المنهج المقارن:

كان جيمس فريزر قد درس دراسة مقارنة العديد من العبادات والطقوس والتقاليد للكثير من الأمم البدائية والقديمة، وأخرج عملا شهيرا " الغصن الذهبي " الذي جاء في إثني عشر جزءا، ولا يزال يعتبر من أهم الأعمال في الدراسات الأنثروبولوجية، وقد استخدم الكساندر كراب أيضا وغيره الكثير من الدارسين المنهج المقارن في دراساتهم.

من المؤكد أن الدراسات المقارنة منهج ضروري في الدراسات الفولكلورية الراقية والمتقدمة، وفي هذا الصعيد فإن المقارنة ستوفر لنا فضاء واسعا لطرح الأسئلة العقلية اللازمة لصياغة الفروض وفحصها، فمثلما أن المرء لا يستطيع تقدير طوله بدون وجود أطوال أخرى، فإن الدراسات المقارنة توفر مقاييس غنية لمقابلة العناصر الثقافية بعضها ببعض، ليس بهدف المفاضلة كما قد يتبادر إلى الذهن، بل بهدف فحص العلاقات بين المتغيرات بالدرجة الأولى، وهذه الخطوة ضرورية قبل محاولة البحث في التعميمات أو النظريات. إذا فإن مجالات الدراسة المقارنة قد تكون أرقى أنماط البحث، لأنها تفترض مسبقا قدرة الباحث على التعامل مع كل السياقات أو الأنظمة التي بين يديه ومن حوله، وهو في هذا المجال الواسع، لا بد له أن يتقن التعامل مع كافة مناهج البحث وأدواته وأساليبه، وقبل ذلك التسلح برؤيا نظرية أو إطار نظري متكامل يمكنه من احتواء الموضوعات التي يعالجها، فلا يفقد بوصلته أثناء التشعب في المعالجات التفصيلية التحليلية والتركيبية.

اعتبارات المنهج المقارن:

إلا أن عملية البحث المقارن لها ترتيباتها واعتباراتها الأساسية أيضا التي يجب مراعاتها، وأهمها: (٢٦)

١ – على الباحث مراجعة جميع الدراسات السابقة المتصلة كليا أو جزئيا بموضوع دراسته.

٢ – تحديد المتغيرات بصورة محددة، مع الاهتمام بالمتغيرات المركبة، وإعداد الترتيبات الذهنية المناسبة، لفصل أي متغيرات لا يكون لها علاقة مباشرة بموضوع الدراسة وعزلها.

٣ – الالتزام بالموضوعية في رصد حركة المتغيرات وعلاقاتها، وعدم التدخل في المعلومات زيادة أو نقصا. وغني عن البيان ضرورة التزام الدقة والموضوعية في عمليات التحليل الاستنباطي أو الاستقرائي المصاحبة.

٤ - تحديد المفردات التي تمثل السلسلة الزمانية أو المكانية أو الموضوعية التي تتم المقارنة على أساسها.

والمفردات أو الوحدات الزمانية هي بالطبع وحدات الشهور او السنوات أو العقود أو القرون الزمانية، وبعض الدراسات تحاول - مثلا - قياس التغير في بعض العناصر التراثية في نطاق وحدة زمانية محددة بهدف المقارنة بوحدة زمانية أخرى لنفس عناصر الموضوع، وقد يجري العكس، قد تجري الدراسة داخل نطاق وحدات مكانية متقابلة لنفس الوحدة الزمانية. ولنهبط إلى ميدان التراث بالامثلة الواقعية:

يرغب باحث بمقارنة سمات الشخصية المركزية في الحكاية الشعبية المصرية بسمات الشخصية المركزية في الحكاية الشعبية السودانية. فما هي الخيارات أو الأنماط الممكنة ؟

الخيار الاول: المقارنة الزمانية، كأن ينحصر البحث في الحكاية المنسوبة إلى القرن التاسع عشر مثلا، او الفترة الاستعمارية حتى الربع الأول من القرن العشرين.

الخيار الثاني: المقارنة التاريخية أو النمائية: حيث تجري المقارنة بين زمن وآخر للنص التراثي نفسه بما فيه من شخصيات او اتجاهات او قيم او عادات او تقنيات فنية.. إلخ، كأن نجري مقارنة لشخصيات الحكاية المصرية قبل الاستقلال وبعده.

الخيار الثالث: المقارنة الموضوعية: كأن تكون بين سمات الشخصية في الحكاية المصرية وتلك في الحكاية السودانية.

ومما ينبغي لفت الأنتباه إليه في هذا السياق هو أن يحرص الباحث وهو يقوم بتحديد مفرداته الزمانية أن تكون مفردات منتظمة بحيث تفصل بين كل مفردة سنة أو سنتين أو خمس او أكثر او أقل... (٢٧).

واخيرا، يجدر الاشارة الى ان الكثير من الدراسات التي تعتقد انها استخدمت المنهج المقارن، فشلت في الحقيقة في تحقيق اهداف هذا المنهج ووظائفه العلمية، وأخصها التفسير والتعليل والوصول الى مبادىء وتعميمات. بل ان مثل تلك الدراسات ما هي إلا دراسات وصفية لم ترتق إلى المنهج المقارن، فان مجرد وصف وحدتين او ظاهرتن او مجتمعين لا يكفي لاعتباره منهجا مقارنا، وقد يصح اعتباره اسلوبا يقابل

بين الوحدات او الظواهر، لانه اكتفي بذلك، فهو لم يفسر لنا عوامل التشابه او الاختلاف او أسبابهما ولم يتعمق في شرح عناصره وظروفه، وهو - بالتالي - غير قادر على استنتاج المبادىء او التعميمات الممكنة التي يسـعى لها هذا المنهج العلمي.

ويجدر التنويه ايضا، إلى انه كلما اتسعت وحدات المقارنة وكلما تعددت، كلما كانت النتائج التي يستخلصها الباحث اكثر علمية، اي اكثر مصداقية وموثوقية وثباتا.

سادسا - مناهج البحث الأدبي:

ويسميه البعض المنهج الشكلي أو البنائي أو غير ذلك، وهو من أقدم المناهج الفولكلورية في البلاد العربية، وذلك عندما اضطلع بعض الأدباء والمثقفين في تناول بعض القضايا الأدبية في التراث الشعبي العربي جريا على أساليب دراسة الأدب الخاص. ومن هذا المنطلق حاول هؤلاء - في بداية عملهم - قصر اهتمام الفولكلور بالقضايا الأدبية، لذلك فقد عرف الفولكلور أول ما عرف " بالأدب الشعبي " وخصوصا في مصر، وكنا قد ذكرنا جهود بعض الرواد الأوائل من أمثال أحمد رشدي صالح في مصر، والدكتورة نبيلة إبراهيم التي استخدمت المنهج الأدبي " المورفولوجي ". وعبد اللطيف البرغوثي ورشدي الأشهب في فلسطين، وروكس بن زائد العزيزي في الأردن.... وهؤلاء جميعا كانوا قد أجادوا في البحث الأدبي نظرا لتخصصهم في الأدب العربي أولا، ثم لريادتهم في تناول القضايا التراثية خلافا للتيار السائد آنذاك.

والمنهج الادبي هو " الطريقة التي يسير عليها الباحث ليصل إلى حقيقة في موضوع من موضوعات الأدب أو قضاياه منذ العزم على الدراسة وتحديد الموضوع.. حتى تقديمه ثمرة عمله إلى المشرفين أو الناقدين والقراء. [٢٨]

وإذا كنا بإزاء تعريف إجرائي، فأنه يصعب تقديم تعريف متفق عليه شامل لكل الاتجاهات الأدبية في البحث، فقضايا الأدب ومدارسه كثيرة ومتنوعة شـأنها شـان الأيدولوجيا، مع ذلك يمكن تقديم تعريف مختصر وعام جدا للبحث الأدبي في مجال القضايا الفولكلورية كما يلي:

هو المنهج الذي يتعامل مع القضايا والنصوص التراثية الأدبية بمعايير الأدب الرسمي أو بمعايير تراثية.

المشكلة الحقيقية في تعريف الأدب، أي أدب، أي في الاتفاق على معايير عامة وثابتة للأدب شكلا ونوعا، وهذه القضية كما لاحظ و. و روبنسون W.W. Robonsen لا يمكن إختصارها بتعريف واحد شامل ومقبول، وربما من المستحسن اعتماد وجهة نظر محددة بشأن الأدب وعدم إدارة الظهر لكل الاتجاهات في هذا الشأن، وقد أشار ويلك و ورن Welleck & Warren في نظرية الأدب إلى تعريف سهل وعملي جدا لتصنيف الكلام الأدبي عن غيره من أنواع الكلام أو مستوياته، وهذا – من وجهة نظرنا – يصلح أساسا لتمييز الأدب الشعبي اللفظي، إذ قسم ويلك و ورن استعمالات اللغة إلى ثلاثة أقسام: كلام اعتيادي، وكلام أدبي، وكلام علمي. (٢٩)

ومع ذلك، لا يبدو أن المســألة صارت أكثر سهولة لتعريف العمل الأدبي عن غيره من الأعمال، فما هو العمل الأدبي التراثي ؟

هل هو الشعر الشعبي المقابل للشعر الفصيح، هل الحكاية أو الخرافة هي المعادل للقصة القصيرة، هل الملحمة والأسطورة هما المعادل للرواية المعاصرة، هل المشاهد المسرحية المرتجلة في الميادين الشعبية هي المعادل الحقيقي للمسرحيات التي نعرفها اليوم ؟ ثم أين هي التقنيات الفنية واللغوية التي تســتخدم في هذه الأشكال التي تعتبر أدبا ؟

مسلمات المناهج الأدبية:

كانت مثل هذه التساؤلات وغيرها مدار للبحث والخلاف في بداية الاهتمام العلمي بالتراث في منتصف القرن الماضي، ولكن الكثير منها أضحى مسلمات لا يختلف فيها، ومن أهم هذه المسلمات:

أولا – مبدأ النسبية: إن الأشكال والصيغ الأدبية هي ما اعتبرها الناس كذلك لا ما نعتبره نحن في عصرنا هذا، فإذا كنا نحن اليوم نعتبر القصيدة النثرية أدبا، فمن سيضمن لنا أن الأجيال اللاحقة ستقر مثل هذه الحقيقة، أو ليس هذا الامر بحد ذاته لا

يزال محط خلاف حتى في أيامنا هذه ؟ وهذه المسلمة تســتند إلى المسلمة العلمية الأعم منها، وهي نســبية العلم، والعلوم الأنسانية خصوصا.

ثانيا – مبدأ التباين: يتباين المستوى الأدبي للأعمال الأدبية في الزمن الواحد، بل في الأديب الواحد، فمنه الجيد ومنه الردىء الذي لا يخرج من رفوف المكتبات، فإذا كانت معظم الأعمال ألادبية في أيامنا هذه رديئة وقليلا منها حسن وممتاز، ألا ينطبق هذا على التراث الشعبي أيضا. ومع ذلك فإن الدراسات المسحية والأدبية بحاجة ماسة لقراءة المستويات كافة.

ثالثا – مبدأ المضمون والشكل: إن بعض الأعمال الأدبية اعتبرت كذلك لأسباب شكلية، وبعضها أعتبر كذلك لأسباب موضوعية. وبعض الأعمال المميزة والخالدة جمعت كلا الشرطين، وينطبق هذا على الآداب الشعبية كذلك.

بالطبع، ليس على الباحث الالتزام بالتعريف السابق وغيره من المفاهيم، لكنه يبقى ملزما باعتماد معايير واضحة ومبررة للأصناف الأدبية التي يعالجها ويصنفها تحت هذا الأسم.

وكنا قد وضعنا تصنيفا للأشكال الأدبية التراثية في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ونحن على يقين بأن هذا التصنيف إنما هو تصنيف دارج أو ســائد وفيه قدر كبير من الثغرات، لأنه لا يقيم معايير محددة للأشكال والأنواع الأدبية، وهذا مما يتيح فرصا أكبر للباحثين الجادين للفصل في هذا الجانب بأبحاث وافية.

ونعيد هنا التذكير بأهم الأشكال والأنواع الأدبية في التراث، وهي: الحكاية، الشعر بأنواعه، الملحمة الشعرية أو النثرية، الخرافة والأسطورة باعتبارهما شكلا من أشكال السرد الفني، الأقوال المأثورة والحكم والأمثال الشعبية باعتبارها سبكا لغويا محكما وبليغا، النوادر والطرف "الأسمار" باعتبارها شكلا من أشكال القص الفني ذي مضمون، الزغاريد والأغاني النسائية باعتبارها شكلا من البناء اللغوي غير الاعتيادي، وبعضه يقارب البحور الشعرية الشعبية، ويقيني أن غيري يســتطيع الإضافة من تراثنا العربي أو من غيره. فتراث الشعوب يحوي أنماطا أخرى من الأدب.

غير أن مناهج البحث الأدبي تنوعت وتطورت بدورها مع تنوع وتطور العلوم والمناهج البحثية، فلم يقتصر البحث الأدبي على المنهج الشكلي المشار اليه، بل واجه هذا المنهج نقدا كبيرا لأنه لا يقيم الاهتمام للظروف والاحوال التاريخية والاجتماعية التي ينشأ فيها النص، وجاءت المدرسة التاريخية - الاجتماعية للتفادى هذا النقص الذي يعكسه المنهج الشكلي في الأدب، وظهر اتجاه نظري آخر مع ظهور المدرسة البنيوية في العلوم الاجتماعية، وراح هذا المنهج يركز على البناء الداخلي للنصوص مستخدما الأساليب الإحصائية مواكبا ما يجري في الدراسات الطبيعية والاجتماعية لمحاولة استخلاص بعض التعميمات والنظريات، واختار آخرون القيام بدراسات مقارنة للأعمال الأدبية وحققوا الكثير من الإنجازات العلمية، ومن ذلك الكثير من الدراسات حول الحكايات الشعبية في العالم، ومن ذلك الألعاب الشعبية وغيرها.

لكن يبقى السؤال قائما: ما هي القضايا الأدبية التي على الباحث وقبل ذلك الجامع الاهتمام بها ؟

بالنسبة للجامع أولا، فأنه بمجرد أن اعتمد لنفسه تصنيفا للأشكال أوالأنماط الأدبية، فإنه يصبح من السهل عليه العمل وفق هذا التصنيف ، وهذه الإشارة مفيدة للتذكير بأهمية النظرية للجامع مثلما هي ضرورية - طبعا - للباحث ؟

أما بخصوص عمل الباحث، فإن القضية تصبح أكثر تعقيدا وتشابكا، فالباحث الذي يتعامل مع الأدب عموما يفترض فيه الإلمام بالآداب عموما والتخصص في حقل منه على الأقل. غير أنه قد يكون من المفيد التذكير بأن النصوص الأدبية، لا يسهل عكس مضمونها بدون الإحاطة بالمجال الاجتماعي او التاريخي الذي ولدت فيه وتوجهت إليه أيضا، وهذه الملاحظة أكثر صدقا ومنطقية في مجال الأدب التراثي، باعتباره إبداعا جماعيا يتوجه إلى جمهور حاضر فيزيقيا Face to Face بخلاف الأدب الخاص الذي لا يشترط حضور الجمهور الفيزيقي، وفي بعض الحالات فإنه لا يأخذ الجمهور بعين الاعتبار نهائيا، إذ كان الهدف الأساسي هو التعبير ليس إلا. وبالمقابل فإن الجمهور الشعبي غالبا ما يكون حاضرا لحظة توليد النص الأدبي وإعادة تثبيته وتعميده وصيانته باستمرار، والأغاني الشعبية التي تغنيها الفرق الشعبية خير

مثال على ذلك، وهذا يلزم الباحث بدراسة الأجواء الآنية التي يبزغ فيها النص أو ينثر أو يسرد. مما يعني ان الباحث الأدبي لن يستغني أبدا عن دراسة المجالات الأخرى لنصه، وخصوصا المجال الاجتماعي والثقافي واللغوي قبل ذلك.

ومهما يكن من أمر قدرات الباحث على الغوص أو الاستقصاء فيما وراء النص وحوله من ظروف تاريخية واجتماعية، فإن المنهج الأدبي أيضا بوسعه تقديم الفوائد الجمة للدراسين الذين بوسعهم الإسهام في جوانب البحث الأخرى، بعد أن يوفر لهم ما يمكن من دلالات لغوية وأسلوبية وبنائية. وهذا هو حال المناهج في تكاملها وتعاونها على كشف الحقيقة العلمية من جوانبها المتعددة.

الصعوبات والمحاذير التي تواجه البحث الأدبي:

قد يكون من المفيد إيراد بعض الملاحظات في موضوع البحث الأدبي الفولكلوري للباحث والجامع على حد سواء كما يلي:

١- في حالة الحصول على نصوص من خلال الملاحظة، يجب تسجيلها بلغة الراوي المحكية، حتى وإن كانت غير مفهومة، ويتوجب على الباحث ترجمة بعض المفردات والدلالات وفق تفسير الراوي، ولا يجوز كذلك التصرف بعناصر أو أجزاء النص تقديما أو تأخيرا أو تعديلا. لأن النص في هذه الحالات قد يفقد جزءا من معناه ودلالاته.

٢- على الباحث التمييز بين ما يقدمه من تفسيرات وتأويلات، وبين ما يقدمه الراوي أو النص، وهذا من باب الأمانة العلمية.

٣ - إن ما لا يعتبره الباحث أدبا، قد يكون من وجهة نظر المجتمع - ولو في حينه - أدبا بدون تردد، وعليه يجب على الباحث أخذ هذا المعيار بالحسبان.

٤ - إن بعض النصوص التراثية المحكية تتأثر بلغة راويها، ويجدر التبصر جيدا في اختيار الراوي الذي يستطيع تقديم أفضل الصيغ للنص، فثمة راو ركيك وآخر بليغ وثالث متوسط. والراوي الجيد عادة ما يتمتع بذاكرة ممتازة وثراء لغوي وصوت حسن ممايميزه عن العامة من متلقي وحاملي التراث، وشاعر الربابة المعروف في المجتمعات العربية خير نموذج لراوي التراث المميز.

٥ – من المفيد الحصول على روايات متنوعة للنص الواحد، ليساعد الباحث على معرفة مستويات "الحكي" أو السرد للراوي أو المؤدي، وهذه المســألة يمكن ملاحظتها في تعدد صيغ الأغاني والحكايات الشعبية والأساطير والخرافات والسير الشعبية كسيرة بني هلال. وأعتقد أن من حق الباحث اعتماد أحسن الصيغ – إن وجد أكثر من صيغة – سبكا وبلاغة.

٦ – لم يعد مقبولا في عصرنا هذا دراسة النص دون قراءة البناء الاجتماعي والبعد التاريخي الذي أنتج هذا النص، ويصدق هذا القول أكثر ما يصدق على النتاجات التراثية باعتبارها نتاجا جماعيا بأبعاد تاريخية أكثر من الأدب الخاص الذي يمثل إبداعات فردية أكثر منها جماعية.

٧ – كثيرا من النصوص التراثية تكتسب جزءا من دلالاتها من خلال عملية التفاعل بين المؤدي والمتلقي، وعادة ما يسهم الجمهور المتلقي بآثار واضحة في النص. وبعض النصوص تتأثر أيضا في الأجواء المصطنعة لســماع النص، من ذلك مثلا تمثيل العرس الشعبي، او الغناء في الغرف المغلقة بدون مناسبة حقيقية.. إلخ.

منهجية المنهج الأدبي:

ليس في نيتنا الإشارة إلى القضايا الواجب على الباحث الأدبي دراستها، فالقاعدة هي أن المتخصص أقدر من غيره على طرق القضايا الملائمة، ولكن مناقشة بعض القضايا المنهجية أمر مفيد، ومن ذلك خطوات البحث الأدبي ومحاذيره.

بالنسبة إلى القضايا المنهجية، فإنه من المؤكد أن الباحث لا بد من أن يستعين بوسائل جمع البيانات التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الثاني، ومنها الاستبيان والملاحظة والمقابلة والاستقصاء والبحث المكتبي والتحقيق، ومن المؤكد أن الباحث سيحتاج بعض هذه الوسائل أكثر من غيرها، ونخص بالذكر أساليب البحث المكتبي والتحقيق والمقابلة، والباحث الأدبي غالبا ما يحتاج إلى كميات كبيرة من النصوص ليستطيع التقدم في دراسته، فغالبا يكون همه التعريف بقضايا عامة في هذا الحقل، أو الوصول إلى قواعد أو نظريات أو حصر لعناصر النصوص الأدبية المختلفة.

إذا فإن الباحث الأدبي هو من يستطيع تحديد المنهج المناسب عدا عن الأساليب البحثية المناسبة لعمله، والمناهج جميعا وكذلك الأساليب ستكون مفيدة في البحث الأدبي بما فيها الأساليب الإحصائية أحيانا. وبما في ذلك المنهاج " العلائقي – الارتباطي "الذي يبحث في العلاقة بين المتغيرات المختلفة في النص أو في بيئته أو بينهما.

تبقى الإشارة إلى ضرورة الملاحق الضرورية في العمل الأدبي، وهذه الملاحق يجب ان تتضمن النصوص الأدبية بلغة الرواة، أو ربما العكس، أي النص الأدبي بلغة الباحث أو بلغة متخصص أو موهوب يستطيع نسـخ النص بلغة مهذبة ومعاصرة، مما سيسهل على القراء تفهم مضامين النص على الأقل. وقد يكون من المفيد أيضا إشـتمال الملاحق على قوائم معجمية بالمفردات والاصطلاحات الغريبة أو المحلية في النص الأدبي، ليكون بوسع القارئ العودة إليها عند الحاجة.

سابعا – منهج النظم System Approach

كان العالم البيولوجي لودفينج بيرتلفنلي Bertalanfly أول من اقترح استخدام أسلوب النظم كطريقة بحث علمية جديدة، وكان ذلك عام ١٩٥٢. وأسلوب النظم أسلوب متكامل للبحث والدراسة وله أهمية كبيرة واستخدامات كثيرة خصوصا في حقول المعرفة العلمية التي تتعقد فيها الظواهر والمتغيرات وتتشابك العلاقات وتتداخل مع بعضها البعض بطريقة يصعب معها تشـخيص هذه العلاقات ودراسة تأثيرها المتبادل. وهذا الأسلوب أضحى مفهوما وإطارا ثابتا لا يتغير بتغير استخداماته في العلوم المختلفة بخلاف محتواه بالطبع. [٣٠] لكن قبل الخوض في تعريف منهج النظم ، لا بد من مناقشة موجزة لمفهوم النظام.

تعريف النظام [٣١]

النظام هو كل مركب لمجموعة من العناصر لها وظائف وبينها علاقات منظمة، يؤدي هذا الكل نشاطا هادفا وله سـمات تميزه عن غيره، وأن هذا النظام يقيم علاقات مع البيئة التي تحيط به، فالنظام يوجد في زمان معين ومكان معين. وهذا التعريف يعني ما يلي:

١- لكل نظام كيان خاص وله حدود معينة تميزه عن البيئة التي يعيش فيها. وأن كل عناصر النظام واجزاءه تقع داخل هذه الحدود، بينما يسمى كل ما هو خارج هذه الحدود بيئة النظام.

٢- ان بيئة النظام هي كل ما يؤثر على هذا النظام ويتأثر به، فالنظام يأخذ من بيئته الموارد والمدخلات الاساسية، ويزودها بالمخرجات.

٣ - ان عناصر النظام مترابطة ومتكاملة وتقوم بوظائفها من خلال هذا الترابط والتكامل، فكل عنصر من عناصر النظام يؤدي وظيفة ما، ولكنه لا يؤديها بشكل منفصل عن الأجزاء الأخرى بل ان قدرة العنصر على اداء وظيفته ترتبط بعلاقاته المنظمة مع العناصر الأخرى.

٤ - يستمد النظام مدخلاته من البيئة، والمدخلات هي الطاقة والموارد والمعلومات، وهذه المدخلات هي أساس عمل النظام واستمرارية وجوده، فلولا هذه المدخلات لاندثر النظام بعد فترة من الزمن.

٥ - للنظام أهداف ووظائف، فهو مســؤول عن انتاج مخرجات محددة يزود بها الأنظمة الأخرى في البيئة، وتكون مخرجات كل نظام مدخلات للنظم الأخرى الموجودة في البيئة، كما قد تكون مخرجات نظام ما مدخلات لنفس هذا النظام.

٦ - إن عمل النظام عمل تحويلي، فالنظام هو محول يحول المدخلات الى مخرجات أو يحول الموارد الأولية إلى مخرجات منظمة حسب معايير معينة.

عناصر النظام (هيكل النظام):

١- **مدخلات النظام:** Inputs وهي جميع العناصر الضرورية لبقاء النظام واستمراره في القيام بوظائفه، وهذه المدخلات تدخل النظام من البيئة المحيطة، ولذلك تسمى مدخلات..

٢ - **مخرجات النظام:** Outputs وهي جميع العناصر التي يخرجها النظام إلى البيئة المحيطة، وهي على نوعين: مخرجات نهائية لا تعود للنظام، ومخرجات راجعة Feedback وهي التي تعود لتدخل مرة أخرى للنظام.

٣ – العمليات (التفاعل): Processing وهي التفاعلات والعمليات المختلفة التي تتم بين عناصر النظام (المدخلات والمخرجات) وذلك بهدف تحول المدخلات إلى مخرجات.

ومن الجدير القول أن مفهوم النظم والنظام لم يكن ابتكارا لهذا الشخص أو ذاك العصر، إنه قبل أن يكون منهجا علميا مكتوبا لا بد أن الكثيرين من البشر قد عملوا به أثناء تفكيرهم في الكون وظواهره، لقد فعل ذلك اليونانيون أمثال سقراط والمسلمين أمثال إبن الهيثم وإبن سينا وكذلك حاولت بعض النظريات والايدولوجيات طرح مفهوم النظام الكلي للأشياء أو الظواهر أو المجتمعات.. إلخ.

والفكرة الأساسية في المنهج التفكيرى وفق هذا المفهوم تتلخص في أنه يجب التفكير في مستويين: مستوى الجزء (نسق فرعي) ومستوى الكل (نسق كلي). وقد يبدأ التفكير بالكل ثم ينحدر أو ينتقل للجزء، وقد يجري العكس وفق الموضوع او الهدف من العملية ذاتها.

في المستوى البحثي والإجرائي فإن الأمر لا يختلف عما هو في المستوى التفكيرى أو التصوري، غير أن المستوى الإجرائي لن يكون بتلك السهولة التي يتم فيها هنا رصف الكلمات والجمل، فهذا الأسلوب أو المنهج من البحث لم يوجد أصلا إلا لسد الثغرات أو تلافي القصور الذي تتصف به المناهج الأخرى التي تعتبر أنساقا فرعية في هذا المنهج، منهج النظم. فمنهج النظم قد يستعين بكل الأساليب والمناهج التي إستعرضنا عددا منها، وليس المهم عدد المناهج والأساليب التي سوف يستخدمها هذا النظام، بل المهم هو أن يجري تحديد الأنساق ذات العلاقة تحديدا واضحا، ومن ثم تحديد عناصر هذه الأنساق من مدخلات ومخرجات وعمليات، وعليه تحديد وظائف هذه الأنساق وعلاقاتها بعضها ببعض، من المحتمل أن بعض تلك العناصر أو العلاقات كان معروفا للباحث، وهدفه قد ينحصر في كشف أوتقدير بعضها أو تحديد وظائفها.. إلخ.

لنأخذ مثالين من الواقع:

المثال الأول - السيارة كنظام:

السيارة كنظام متكامل مســألة لا خلاف عليها، يمكننا تحليل نظام السيارة صعودا أو نزولا، فصعودا، نجد السيارة جزءا من نظام أكبر هو نظام المواصلات الذي يتكون من أنواع المركبات والشوارع والادارات الرسمية والقوى البشرية ومراكزالصيانة.. إلخ. وهذا النظام بدوره جزء من نظام آخر أكبر منه ألا وهو النظام الاقتصادي في المجتمع أو الدولة، والنظام الاقتصادي هو واحد من الأبنية أو الأنساق الأخرى المكونة للمجتمع والدولة، اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي وعسكري... إلخ. ويمكن الاستمرار في تركيب الأنساق إلى أن نصل إلى مستوى المجتمع العالمي، دون أن نتجاهل ما بين هذه الأنساق من عمليات مختلفة ومنوعة ومتغيرة.

أما تحليل نظام السيارة، فأنه لن يختلف إجرائيا عن التحليل المتصاعد: في السيارة مجموعة من الأنظمة أو الأنساق الفرعية، النظام الميكانيكي، والنظام الكهربائي والنظام المائي والأحتراقي. لناخذ النظام الكهربائي مثلا بحيث نحلله تنازلا إلى أصغر أجزائه، البطارية ــ المولد – الاسلاك – اللامبات.. إلخ. وبوسع آخرين أيضا الاستمرار في تحليل هذه العناصر وحتى أصغر مكونات البطارية، البطارية (أقطاب كهربائية وسائل حامضي وإطار خارجي وخلايا معدنية ... إلخ).

يبقى الأمر الذي قد يفوق التحليل صعوبة وأهمية في تحديد العمليات Processing بين أنساق وعناصر الأنظمة كاملة، ثنائية وثلاثية وما فوقهما، ما هي علاقة البطارية بالنظام المائي ؟ الميكانيكي أو المهندس الحاذق يســتطيع أن يجيب على هذا السؤال بقليل من الجهد، لكن المشكلة ستكون أكبر عندما سيواجه الباحث ســؤالا لم يكن قد درسه مسبقا كما في مثال البطارية والنظام المائي في السيارة، ثم أن هذه العلاقة لم تكن نفسها في كل الحالات المشابهة، وهذا ما يجري دائما وبافراط في الظواهر الإنسانية.

وهكذا يتضح أن الأمر الأكثر أهمية من تحليل عناصر النظام، في السيارة وغيرها من الأنظمة، هو معرفة العلاقات المتبادلة والمتفاعلة بين هذه الأنظمة في جانب، وكذلك بين مكوناتها ونظمها الفرعية في الجانب الآخر.

المثال الثاني – القول المأثور كنظام:

لنلاحظ أولا كم هي قليلة مفردات الأمثال، وخصوصا ذات الشهرة الأوسع، " على بخت الحزينة سكرت المدينة " " بره رخام وجوه سـخام ".. إلخ.

لو بدأنا بالتحليل الصاعد لنسق المثل، لقلنا أنه نسق أصغر من نسق الأقوال الحكمية أو التمثيلية أو الأدبية، وهذه بدورها نسقا أصغر من النسق الأكبر، نسق التربية أو النسق الثقافي العام، وهذا بدوره جزء من النظام الاجتماعي العام الذي يهدف إلى تماسك وتوازن المجتمع والاستمرار في نقل ثقافته للأجيال الجديدة.

في التحليل التنازلي، فالمثل مجموعة من المفردات، هدفها التدليل أو الترميز أو الشرح، والكلمات او المفردات هي عدد من الحروف الصوتية ذات المدلول المحدد.. أما عن العمليات بين هذه الأنساق المحدودة، فهي مجال واسع للبحث والدرس والتكهن للعديد من الاختصاصات العلمية منها اللغة والفولكلور ومنها علم الاجتماع والأنسان وعلم النفس وتاريخ الأدب... ألخ. والقصد الإشارة إلي التشابك والثراء الذي يستدعي كل هذه العلوم للظواهر الإنسانية التي قد تبدو أحيانا محدودة.

نخلص من المناقشة الموجزة للأمثال السابقة إلى أن منهج النظم، منهج يعود بالبحث العلمي إلى الشمولية التي بدا وكأنه راح يفتقدها تحت وطأة التخصص المتزايد، إذ أضحى الفهم الكلي للظواهر يتناقص يوما بعد يوم، فثبت قصور التخصص " الميكروبي" الذي غالبا ما يأتي على حساب الفهم الكلي أو النظامي للظواهر، ولا غرو أن يكون أول من نبه إلى ضرورة إعتماد منهج النظام أسلوبا للبحث هو عالم الأحياء بيرتلنفلي Bertalanfly بعد أن لمس التشابه الكبير في كافة الأنظمة خارج نظام الكائن الحي وداخله، فالنظام العام للكائن الحي لا يجوز تقسيمه إلى جهاز عصبي وآخر هضمي وآخر تنفسي وتناسلي وعضلي وعظمي.. ألخ، حتى لو رغبنا في فهم

صحيح للأجزاء (الأنساق الفرعية) فلا بد من فهم الأنساق الأخرى وصولا للنسق العام، كيف يمكن فهم نظام الدوره الدموية إذا لم نعرف العلاقة بينه وبين الجهاز العصبي، وإذ تبين للطب أن الجهاز العصبي يتأثر ويؤثر في باقي الأجهزة الأخرى، ليس ذلك وحسب، بل إنه يتأثر بالبيئة المحيطة خارج النظام للكائن الحي، أي الأنساق والانظمة الخارجية بما فيها الصور والكلام... أوليس سبب بعض الأمراض النفسية والعصبية أسبابا في المجتمع المحيط كمشاهدة كوارث الحروب ؟ أوليس بعض المشكلات الحاصلة في المعدة تؤدي إلى أعراض مرضية في الأعضاء الأخرى ومنها الرأس مثلا ؟

والاتجاه الحديث يؤكد على "حقيقة أن الكل ليس مجرد مجموع أجزائه، وأن فهم هذا الكل لا يتم من خلال الفهم التفصيلي لكل جزء من أجزائه على حده، وإنما هو نتاج التفاعل المستمر بين هذه الأجزاء المختلفة. هذا التفاعل الذي يؤكد وحدة الكل، وأساس وجوده، وبدون الفهم الفعلي لقواعد ودقائق هذا التفاعل لا يمكن فهم الظاهرة المعنية فهما سليما وكليا "[٣٢]

من هنا يشكي الكثير من الناس قصور بعض الأطباء او من أخطاءهم الطبية وكثيرا ما يعزون ذلك إلى الإغراق في التخصص والتجزىء، صحيح أن كليات الطب، لم تكن لتتجاهل هذه الحقيقة، وهي بالتأكيد تقدم الكثير من المواد الدراسية العامة لطلبة الطب على اختلاف تخصصاتهم، غير أن الاتجاه الحديث بدأ يدرك أكثر قيمة المعارف الكلية وأهميتها، والبحث الكلي وطريقة التفكير الكلي أيضا بعد ان سادت مناهج التفكير والبحث الجزئية ردحا طويلا من الزمن.

صفات العملية النظمية: [٣٣]

١ - التفاعل والتغير المستمر، وهذا المبدأ يعني ان النظم ليس لها بداية او نهاية محددة تماما. وأنه لا يمكن الفصل بين النظم وعملياتها. (ويفيد هذا المبدأ أيضا أن الحقائق تبقى نسبية وإن طالت في ثباتها).

٢ – إن أي عملية نظمية، تبقى محكومة باســتمرار بمختلف المقومات والمتغيرات التي تدخل في إطار النظام المعني وتشارك فيه.

٣ – إن عملية التفاعل والتداخل في إطار أي نظام تعتبر عملية ذاتية وحتمية ومستمرة نحو تحقيق هدف نهائي، وهو تحقيق التوازن العام الديناميكي داخليا وخارجيا.(وهذا هو المبدأ الأساسي الذي تتبناه النظرية الوظيفية في الأنثروبولوجي وعلم الاجتماع منذ الربع الأول من القرن العشرين، ولا تزال هذه النظرية الأكثر قبولا في هذين الحقلين من العلم).

٤ – إن عملية التداخل والتفاعل ليست بالضرورة عملية سلمية أو تلقائية (مثلما يؤمن الوظيفيون)، بل بالعكس، فقد تكون ذات طابع عنفي أو ثوري (مثلما تؤمن بذلك مدارس الصراع كالماركسية)، وقد تكون ذات طابع إرادي، وخاصة في ظل التخطيط الشامل، وبالذات في مجال الظواهر الإنسانية.

علاقة منهج النظم بالمناهج الأخرى:

هل يعني ذلك أن هذا المنهج جاء بديلا للمناهج الأخرى ؟

يفترض المنطق الذاتي لهذا المنهج الكلي القدرة على استيعاب المناهج الفرعية الأخرى باعتباره نظاما كليا، وكما أوضحنا فإن النظام لا بد وأن يتضمن أنظمة فرعية (أنساق) تتألف وتتكامل لتحقيق الوظيفة النهائية، والوظيفه النهائية لمنهج النظم هي الحقيقية القصوى الممكنة، فيما ســتسهم المناهج الفرعية الأخرى في تحديد هذه الحقيقة في أبعادها المختلفة والمتنوعة.

فالعلاقة إذا مع المناهج الأخرى هي علاقة إئتلاف وتكامل في النسق الكلي، أي في المنهج الكلي، وقد ســبق أن أشرنا أو ناقشنا كثيرا من حالات التشارك والتساند أو التعاون بين مناهج البحث التي إستعرضناها في هذا الفصل، ولا بد أن القارئ لاحظ ما يبدو تعسفا في الفصل بين المناهج وحتى الأدوات البحثية عندما يتعلق الأمر بالقضايا الاجتماعية والإنسانية وحتى الظواهر الطبيعية، غير أنه يجب الأشارة إلى أن

قدرا كبيرا من هذا التقدير ينبع أساسا من الحاجة الدراسية أو المنهجية للقضية، وهذا لن ينفي حقيقة التداخل الكبير في القضايا الطبيعية والاجتماعية على حد ســواء. وانطلاقا من هذه الحقيقة فإن هذا المنهج يســتخدم طرائق تحليل تأخذ هذه الحقائق وغيرها بعين الاعتبار، وهذه الطرائق لا بد وأن تتناول الظاهرة بالتحليل على مستويات متدرجة، نزولا أو صعودا، عموديا أو أفقيا، ففي المستوى الأول يجري تحليل النظم الأصغر (الأنساق الفرعية) بتحليل عناصرها وتفسير العلاقات والوظائف المتبادلة بينها، ثم تحليل العلاقات والتفاعلات المتبادلة بين الأنساق الفرعية، وفي المستوى الثاني يجري تحليل أو تركيب النظام العام الذي يتألف من كافة الأنساق الفرعية، إنه الإطار العام الذي يحتوي كل الأنساق الفرعية وأنظمتها وعلاقاتها وتفاعلاتها ووظائفها. أما المستوى الثالث والأخير، فقد يجري الباحث فحصا بهذا القدر أو ذاك لعلاقة الإطار الكلي للنظام ببيئته الخارجية، وذلك على قاعدة أن النظم تتأثر ببيئتها وهي تبقى جزءا او نسقا من نظام أكبر.

إن هذا التحليل قد يرتكز على المنهجيين الاستقرائي والاستنباطي، وهذا يعود لتقدير الباحث ولموضوع دراسته وأهدافها. والتعاون مع المناهج الأخرى يقرره الباحث وطبيعة بحثه، وهو حر في اســتخدام ما يراه مناسبا من مناهج، بل ومداخل نظرية، ما دام قادرا على تبرير ذلك علميا ومنهجيا.

منهج النظم والدراسات الفولكلورية:

من الصعب على الباحث ربط العلاقة أو اقتراحها بين دراسة الفولكلور والدراسات الأخرى قبل أن يتبين له الاتجاهات النظرية الرئيسية في العلوم الاجتماعية التي أشادت بناءات كبيرة من المفاهيم لمختلف العلوم الاجتماعية، فقد باتت تلك البناءات ومفاهيمها تتحكم في المناهج التي يتوجب على الباحث سلوكها، وبالطبع فإن هذا القول ينسحب على الفولكلور كغيره من العلوم الاجتماعية. إن تبيان المفاهيم النظرية وأطرها التصورية أمر لا مفر منه للباحث ولن يماري أحد في ذلك، ويبدو أن هذه القضية لا تزال العقبة الصعبة ليس امام الدراسات الفولكلورية العربية وحسب، بل

وأمام الدراسات في العلوم الاجتماعية الأخرى أيضا، غير أن القضايا الفولكلورية أكثر ما تعاني من هذه العقبة في ضوء سيادة النظرة الشكلية أو السطحية – التبجيلية لموضوعات التراث، التي لا يرى فيها بعضهم شيئا سوى ديكورات وأيقونات نشتم منها رائحة الماضي المجيد.

وفي المعالجة المختزلة والمجزوءة التالية، نود مجرد الإشارة وحسب الى الاختلاف في المفاهيم والنظريات التي تتناول الفعل الاجتماعي، ومن البديهي أنه من الصعب المفاضلة بين هذه النظريات والدعوة لإحداها على حساب الأخرى. وبالعادة فإن الباحثين يستعرضون هذه النظريات والمناقشات التي تدور حول مفاهيمها، منتهين إلى " نقاط الضعف ونقاط القوة " فيها، وعلى الباحث بعد ذلك – إن قدر له – أن يكون مفاهيمه الخاصة، أن يتبنى نسقا نظريا مبررا ومقنعا بهدف التسلح بالموجه والهادي الذي سيسهل عليه سلوك الدروب الشائكة وصولا للهدف الذي ينشده.

يرى هيرسكوفيتز Herskovits أن الوظيفية تحاول أن تدرس العلاقات المتبادلة بين مختلف العناصر، الصغرى والكبرى، في الثقافة، وهدفه هو التعبير عن وحدة الثقافة من خلال تتبع التداخل بين السمات والأنماط الثقافية، أما رادكليف براون، فإنه يقرر أن الوظيفة هي الإسهام الجزئي الذي يقدمه النشاط الجزئي للنشاط العام، فوظيفة العادة الاجتماعية الجزئية هي إسهامها في الحياة الاجتماعية ككل. (٣٤)

وتزعم البنائية الوظيفية أن أفعالنا وتصرفاتنا ليست عشوائية، وإنما هي خاضعة لتنظيم بنائي محدد وتؤدي أدوارا معينة في الحياة الاجتماعية على نحو يعكس تأثير البيئة الاجتماعية، ويستهدف استمرار المجتمع الإنساني محافظا على توازنه (٣٥).

وبهذا الموقف من طبيعة الحياة الاجتماعية، ترى الوظيفية أن التفاعل الاجتماعي بمختلف أشكاله لا ينطلق أو يكون إلا من أجل الهدف النهائي، الحفاظ على التوازن والإتساق الداخلي للبناء الاجتماعي، وما وظيفة الباحث في الظواهر الاجتماعية سوى فحص تلك الانساق التي تكون البناء الاجتماعي وفحص ودراسة عمليات التفاعل والتساند في ضوء " تحقيق التوازن "، وحتى الاختلالات أو الانحرافات التي قد تظهر

بين الحين والآخر، فهي اختلالات من أجل إعادة التوازن لهذا النظام بعد أن بدأ يعاني من خطر التخلف عن التطورات الضرورية لأستمراره.

غير أن بعض العلماء وفلاسفة العلم الذين حاولوا التفريق والتمييز بين العلوم الطبيعية من جهة، والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى، يرون أنه إذا كانت الأولى تهدف إلى التفسير السببي، فإن الثانية تستهدف النفاذ إلى المعنى ومن ثم يصبح علم الاجتماع دراسة إنسانية تاريخية تهتم بالتقويم، والنقد، والفهم الذاتي التعاطفي....

وتقوم هذه الدعوى ضد العلوم الاجتماعية على أساس أن الظواهر الاجتماعية لا تخضع لقوانين مشابهة أو مطابقة لقوانين الظواهر الطبيعية، وبالتالي فإن محاولة تطبيق المناهج العلمية على الظواهر الاجتماعية عادة ما يشوه " المعنى " الذي تنطوي عليه هذه الأحداث. (٣٦)

في حين أن اتجاها قويا آخر كان قد تبلور في اتجاه فلسفي ووضعي هو ما عرف بالرمزية التفاعلية، وهذا الاتجاه لم يكن ليتجاهل الميزة الفريدة التي تجعل من الظاهرة الاجتماعية شـيئا مختلفا عن الظاهرة الطبيعية التي يمكن ملاحظتها من الخارج واستقراء القوانين التي تحكمها، في حين أن الظاهرة – الفعل الأجتماعي لا يمكن النفاذ إلى قوانينه بالملاحظة الخارجية وحسب، بل لا بد من النفاذ إلى داخل الفعل، أي تفهم المعاني التي أرادها او خطط لها الفاعل الاجتماعي، وما ذلك إلا نوعا من الشعور أو الخيال او كلاهما للنفاذ إلى المعنى الداخلي للظاهرة – الفعل الاجتماعي ، وكان ماكس فيبر قد أسس لهذا الاتجاه من خلال بعض أعماله التي تعد من كلاسيكيات علم الاجتماع، وقد عبر عن هذا الاتجاه بالقول " إن علم الاجتماع هو دراسة تبحث عن الأسباب، وفي نفس الوقت تهتم بالمعاني " (٣٧)

وإذا حاولنا ترجمة هذا الموقف النظري لماكس فيبر في مسألة القضايا الفولكلورية، فأنه قد يصح القول النظر في تلك القضايا باعتبارها أفعالا وليس تاريخا جامدا ــ اي أنها ليست آثارا جامدة أو متحجرة ألقى بها المجتمع القديم، أو حتى وإن كان يحتفظ بها، إنها بإيجاز سلوك إنساني واجتماعي تضمن روحا نابضة، بمعنى أنه من العسير فهم هذا السلوك في مجتمع أو جماعة أو علاقة أو تنظيم، منفصلا عن

بطانته النفسية المتمثلة في القيم، والمشاعر، والرغبات والمقاصد، والغايات. والدارس لمثل هذا اللون من السلوك لا يقف عند مجرد فحص الأسباب المنطقية له، بعد تجريب بالغ الدقة والإحكام، وإنما عليه أن يتعاطف وينفعل، وأن يضع نفسه موضع الآخرين على نحو يمكنه من ربط المعنى بالمعنى، لكي يفهم هذا السلوك فهما ذاتيا تعاطفيا " (٣٨)

في المقابل كانت فلسفات الصراع قد بدأت تاخذ مكانها في الدراسات الفلسفية والاجتماعية والأنثروبولوجية، وليس بقصدنا استعراض لهذه التيارات بقدر ما نود الإشارة إلى أن مدرسة الصراع، رأت في كل أنواع التفاعل الاجتماعي صراعا بشكل او بأخر، والتفاعل في حقيقته لا بد أن يكون جانبا من جوانب هذا الصراع من اجل السلطة أو النفوذ او الموارد الطبيعية.

لم يكن لمنهج النظم أن يرفض ما تقدمه النظريات المختلفة من مفاهيم حول طبيعة التفاعل الاجتماعي، بل إن هذا المنهج لا بد أن يكون قادرا على استيعاب هذه المفاهيم في تعاطيه مع الأنساق المختلفة في البناء الاجتماعي، وبالعادة فإن هذه الأنساق وتفاعلاتها وقوانينها تاخذ أنماطا وأشكالا متنوعة ومختلفة بما يستدعي معه الاستعانة بما يتوفر من أدوات ومفاهيم وأطر نظرية صالحة لتفسير الموقف او الظاهرة. وبهذا المعنى، فان منهج النظم منهج مفتوح لكل المفاهيم والأدوات التي يختارها الباحث، لكنه ايضا يشترط عليه الاتساق الكلي في مفاهيمه وأطره النظرية أكثر من أي منهج أخر، إذ من الأيسر أن يختار الباحث – مثلا – مفاهيم الصراع فقط، ويجعلها إطاره النظري من الخطوة الأولى وحتى الأخيرة، المشكلة الأساسية في هذا الاختيار ستظل قائمة، وستظل محلا للشكوك والطعن، من أن الباحث إنما يتبنى أيدولوجية محددة، ولا بد أن بعض الوقائع والظاهرات ستظل عصية على التفسير أو التعليل ما دام الباحث قد قيد نفسه سلفا بهذا الاتجاه أو ذاك.

وليس بواردي ولا باستطاعتي تقديم وصفة جاهزة للباحثين في هذا الشأن، كل ما يمكن قوله إن على الباحث اشتقاق طريقه الصعب بيديه، وأن لا يرهن فكره

لهذا الإطار التصوري أو ذاك إلا بعد أن يعطي نفسه القدر الكافي من فرص الاطلاع على الآخر اطلاعا وافيا محايدا.

قد يستغرب بعضهم، أن العنوان الذي توج هذه المعالجة جاء بعيدا عما تطرقنا إليه، فهو ينبئ بتوضيح العلاقة بين منهج النظم والفولكلور، ولكننا رحنا نخوض في النظرية وبنزر يسير جدا من قضاياها الكثيرة والشائكة، فما هو المبرر وراء ذلك ؟

ليس من السهل، صرف النصائح على الرغم من أن هذا العمل قيمة رفيعة، لكن المطلوب الأن توضيح العقبات التي قد تعترض الباحث في الدروب التي سيختارها، وقد حاولت أن أشير إلى أن منهج النظم لا ينضوي على الأساليب السحرية لقضايا التشابك والاختلاف والتناقض في النظريات والمفاهيم والحقول العلمية المختلفة. ولا بد أن نؤكد ان منهج النظم يقدم للباحث " خطة " أولية، وتصورا نظريا شكليا أو إجرائيا، والباحث نفسه هو الذي سـيقرر كيف سـيستغل هذا التصور النظري الشكلي ويبث فيه روحا ونبضا وجسدا حيويا.

والخلاصة، ان منهج النظم يتعامل مع قضايا الفولكلور تعامله مع الحقول الأخرى، لا يفرق بين هذا وذاك. بل إن الفولكلور بحاجة فعلية وماسة إلى رؤيا كلية، ترى العناصر والنظم والتفاعلات والوظائف الجزئية والكلية، ولا تقتصر على القشور ولا تغرق في الجزئيات وتتجاهل نظمها الأكبر ووظائفها العاجلة والآجلة، الظاهرة والكامنة، رؤيا لا تتجاهل البعد التاريخي ولكن دون أن تتحجر فيه، أي أن لا تنظر للتراث باعتباره متحجرات واكسسوارت تعلق على الجدران وتوضع في المتاحف.

والباحث المتسلح ببعد نظري مطالب بنحت منهجه المناسب والكفؤ لخصوصية مجتمعه وقضاياه، ولن يتأتى له ذلك قبل التبصر في موضوعه وقضاياه بمستويين متوازيين:

الأول: المستوى النظري: الذي توفره الدراسات الجادة السابقة له، وخصوصا الأعمال الأساسية والكلاسيكية منها التي تطرح مفاهيم نظرية متعمقة، وعدم الاكتفاء بالدراسات الاعتيادية من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراة الجامعية على اهميتها.

الثاني: المستوى الميداني: إن انتزاع فهم الخصوصية التي يمتاز بها حقل الدراسة، لا يمكن أن يتأتى عن طريق الهروب إلى الدراسات الأخرى، مهما أوتيت هذه الدراسات من عمق وسحر وتجديد، إن التبصر الميداني، مسألة أكبر من الملاحظة وجمع البيانات، إنها أرقى من ذلك، فعندما يحاول الباحث التبصر العقلي الهادىء " التأمل " في النظام الكلي الذي يوجه هذه القضايا أو الظواهر او الأشياء، فقد يرى الباحث المتبصر ما لم يكن مكتوبا في الكتب، او ما لم يدركه العلماء الكبار البعيدون عن هذا الميدان ...

ثامنا- منهج التحقيق في الحديث النبوي الشريف:

سيتبين للمطلع على منهج التحقيق في الحديث النبوي الشريف فوائد جمة، ومنافع كثيرة يمكن تطبيقها في مناهج الفولكلور والتاريخ والعلوم الأجتماعية عموما، ولهذا السبب فقد آلينا أن نضع هذا المختصر عن هذا المنهج ليطلع عليه الباحث والجامع والمهتم بالتراث عموما، على أنه وجب على المتخصص العودة إلى المراجع الوافية في هذا المجال ليستزيد مما لم نتمكن من عرضه هنا في هذه المعالجة القصيرة.

أن الميزات المنهجية في هذا المنهج كثيرة جدا، وعلى رأسها الدقة العلمية في الأخذ بالحديث أو رفضه، ومنها كذلك مجموعة الشروط والمعايير التي اعتمدها جامعوا الحديث ومحققوه، ومن هذه المعايير ما يتعلق بالرواة ومنها ما يتعلق بالأساليب والمعايير المطبقة على (النص) الحديث المروي نفسه. وهذه المعايير بمجموعها تشكل جوهر هذا المنهج.

وقد كان النبي ﷺ قد آذن لبعض الصحابة بتسجيل الحديث في سنواته الاخيرة، ومن هؤلاء عبدالله بن عمرو المشهور برواياته الكثيرة في الحديث، وكانت له صحيفة تسمى " الصحيفة الصادقة " يدون ما يسمعه مباشرة من أحاديث الرسول، واشتملت على ألف حديث ، ومن أولئك أيضا عبدالله بن عباس (توفي ٦٩ هجري)، فقد كان يكتب سنن الرسول على ألواح يحملها معه في المجالس،(اي أنه كان فطنا لأهمية

دفتر أو بطاقة الملاحظات التي يحملها الباحثون الجادون)، ولقد تواتر انه ترك حمل بعير من كتبه. (٣٩)

وبالرغم من قلة حماس النبي ومن بعده الخلفاء الراشدون لكتابة الحديث في البداية، تخوفا من الألتهاء به عن القرآن الكريم، إلا أن هذا التخوف سرعان ما زال وانتهى باتمام تسجيل القرآن وتمكنه في الصدور وفي الصحف، وإذ ذاك، انطلقت حركة بحث وتحقيق قوية وشاملة أستهدفت الوصول إلى كل الرواة من الصحابة أو التابعين وحتى تابعي التابعين، أي أن الأمر أستغرق نحو أربعة أجيال قبل أن يكتمل التحقيق في مرحلته الأساسية.

ولقد إنصب الجهد الأساسي لرواة الحديث النبوي على محورين أساسيين: الرجال الذين يروون الحديث، والأحاديث المروية ذاتها.

شروط الرواية في الحديث:

وضع علماء السنة المطهرة – لقبول – الرواية – شروطا صارمة جعلتها تتميز عن الرواية عند غيرهم من الأمم، وأن أميز ما تتميز به الرواية في الإسلام:

١ – التحري في النقل، فلم تكن الأمم السابقة على الإسلام تتحرى في نقلها لمروياتها وأخبارها بحيث لا تروي منها إلا الصحيح، فداخلت أخبارها الزيادة والنقص والتحريف والتبديل، فلما جاء الإسلام حث على التحري وأوجب التثقيف في قبول الأخبار، وحذر النبي (صلعم) من الكذب عنه وتوعد من لا يلتزم بالصدق بالنار.

٢ – اتصال السند إلى النبي ﷺ بالعدول الضابطين، وقد أنشأ علماء الإسلام علما كاملا يعني بالرواية والنقل وأطلقوا عليه أسم علم " مصطلح الحديث " أو " علم الحديث " أو " علم أصول الحديث " (٤٠)

ولما كان الناس على اختلاف في طبائعهم وأخلاقهم وقدراتهم الذهنية، فقد تشكك رواة الحديث في الكثير من الرجال من رواته، وراحوا يدققون في الشروط الواجب توافرها في رواة الحديث الموثوقين الذين جعلوا لهم مراتب عديدة.

وقد وضعوا له علما سمي ب "علم الرجال" وهو مصنفات وضعت بالرجال من رواة الحديث وكل ما يتصل بسيرتهم وبأحوالهم وبأشخاصهم ووفياتهم، ومن أقدم ما ترجم لرواة الحديث "ابن سعد في طبقاته" ، والبخاري في "تاريخ الرجال" والذهبي في "ميزان الاعتدال" وابن حجر في "لسان الميزان". وكان التجريح لرواة القرن الأول الهجري قليل، وذلك قبل أن تتكاثر الأهواء وتتعدد النحل، فلا يوجد بينهم ضعيف إلا الواحد بعد الواحد، مثل الحارث بن عبد الله الاعور (٦٥ هجري) والمختار الثقفي الكذاب.[٤١]

دقة المنهج في كتابة الحديث:

وسعيا من علماء السنة النبوية لابلاغ النصوص على الوجه المطلوب، فإنهم وضعوا جملة من القواعد دعوا فيها كتبة الحديث إلى إلتزامها حتى تكون الأحاديث وأسانيدها في غاية الوضوح والضبط، ومن هذه القواعد:

١ – ضبط الملتبس من الأسماء في طرة الكتابة.

٢ – توضيح الخط وضبطه ضبطا تاما.

٣ – تجنب اتخاذ رموزا شخصية في الكتابة والاختصارات، ووضع مفاتيح لأي رموز مستخدمة.

٤ – إذا كان للكتاب عدة روايات، فإنه يجعل إحدى تلك الروايات أصلا، ثم ما كان في غيرها من زيادات ألحقها في الهامش.

٥ – ومن أهم ما اشترطوه في هذا المضمار وجوب مقابلة الراوي لكتابه بأصل شيخه الذي درس عليه.

٦ – وضعوا حلولا وشروطا لما يعرف ب (اللحق) وهو ما سقط من الكتابة أو الرواية. [٤٢]

وقد تنبه العلماء المسلمون المشتغلون بالحديث وجمعه ودراسته إلى الكثير من الاعتبارات والمحاذير والأساليب الواجب التنبه لها، ومن ذلك مثلا ضرورة التحقيق أو الاستقصاء بهدف التيقن من مدى صحة الخبر والمخبر، فقد أجمع أهل العلم على أنه لا

يقبل إلا خبر العدل، كما أنه لا تقبل إلا شهادة العدل، ولما ثبت ذلك وجب إذا لم تعرف عدالة المخبر والشاهد أن يسأل عنهما أو يستخبر عن أحوالهما أهل المعرفة بهما إذ لا سبيل إلى العلم بما عليه من الرجوع إلى قول من كان بهما عارفا في تزكيتهما، فدل على أنه لا بد منه. (٤٣)

ومن خلال ما سبق من استعراض موجز لأساليب ومناهج المسلمين الأوائل في تتبع الحديث والرواة، يتبين لنا مدى الدقة المنهجية التي ألزموا بها أنفسهم أولئك المشتغلون بالحديث النبوي من جمع وتدقيق وقياس ودراسة للرواة وأحوالهم الاخلاقية والنفسية وربما الجسدية. إن في مثل هذا المنهج الكثير مما يستفاد به للباحث الفولكلوري الجاد، وخصوصا خلال مراحل التوثيق والتسجيل الميداني، فإن الكثير من الملاحظات والبيانات الميدانية لا يجوز فيها التعميم والإجمال نظرا لما سيترتب على ذلك من نتائج، ويمكن الاشارة إلى البحوث الميدانية اللسانية في اللهجات المحكية وما تحتاجه إلى أقصى درجات الضبط في التسجيل والتوثيق بمختلف أشكاله. فإنه سيترتب على التهاون في دقة التوثيق دلالات مغايرة لما قصده القول في الواقع، وهاك مثلا بسيطا في المثل الشعبي:

سجل باحث ميداني هذا المثل كما يلي:

يا ميخذ القرد ع ماله، بكرة بخلص المال وبظل القرد ع حاله

يلاحظ أن المفردات خالية من التشكيل الذي يضبطها، وبعض المفردات سيختلف معناها وفق إعرابه وتشكيلات احرفها، ولو لم يكن لدينا فكرة مسبقة عن هذا القول، لشق علينا معرفة معناه أو بعض كلماته على الأقل. مثل " بظل " فلو كانت الباء بالكسر لدل ذلك على الظل والظلال، وسيكون معنى ذلك أن القرد سيجلب لنفسه الظل أو أنه سيأوي إلى الظل. وبالطبع فإن المثل يعني غير ذلك، فهو يشير إلى أهمية الجمال أو الخير وبقاءه مقابل فناء المال ونفاذه.

ولن تكون الأمور في التوثيق بمثل هذه البساطة التي يمثلها المثل المشار إليه، فسيجد الباحث أن الكثير من المفردات في اللهجات المحكية تحتمل الكثير من

المعاني مثلها مثل اللغة الفصيحة بل ربما أكثر منها. والضبط لا ينحصر في ضبط المفردات، بل يتعدى ذلك إلى ضبط الوقائع ومكانها وزمانها وعناصر تكوينها، وضبط النصوص مثلما كانت في الأصل.

ومثلما أشرنا، فإن مثل هذه الدقة في الضبط وفي رسم الحروف، ستبرز أكثر في الدراسات اللسانية التي تتداخل كثيرا مع الدراسات الفولكلورية. ومن ذلك ايضا ما يحدث في البحوث التاريخية من تحديد وضبط المفردات أكانت للأعلام أو للأمكنة أو الأسماء والصفات والتواريخ، إذ أن مثل هذا الضبط لا بد وان يظل ضروريا في كل انواع البحوث وفي كل المراحل.

هوامش الفصل الرابع

١ – د. سمير نعيم احمد، النظرية في علم الاجتماع : دراسة نقدية ، ص ١٩ – ٢٣.
٢ – د. ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي ص ٣٣.
٣ – مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، مادة : منهج، ص ١٩٥
٤ – د. عبود عبد الله العسكري، نفس المصدر، ص ٢ – ٣.
٥ – ربحي عليان وعثمان غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي ، ص ٣٦.
٦ – محمد شتية، وعلي خليل حمد، دليل الباحث العربي في كتابة البحث ونشره، ص ٨.
٧ – د. عبد المعطي عساف وزملاءه، مصدر سابق، ص ١٠٠.
نقلا عن : *Myntz R. S others, Introduction To Emperical Sociology Britain,Penguin, ١٩٧٦) P. ٢٥.*
٨ – ذوقان عبيدات وزملاءه، البحث العلمي، مفهومه – أدواته – اساليبه، مرجع سابق،. ص ١٨٧.
٩ – الدكتور عبد المعطي وأخرون، التطورات المنهجية وعملية البحث العلمي، ص ٨٩.
١٠ – المصدر السابق. ص ١٨٨
١١ – محمدعلي محمد، تاريخ علم الاجتماع، ص ١٩٩.
١٢ – دكتور عبد المعطي محمد عساف ورفاقه، مصدر سابق، ص ٩٠.
١٣ – علياء شكري وزملائها، قراءات معاصرة في علم الجتماع، ص ٢٦٥.
١٤ – علياء شكري وزملائها، المصدر السابق، ص ٢٦٩.
١٥ – الكسندار كراب، علم الفولكلور، ترجمة أحمد رشدي صالح، ص ١٢١.
١٦ – نبيل علقم، المصدر نفسه، ص ١٢٢.
١٧ – د. احسان محمد الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، ص ٧٨.
١٨ – د.ذوقان الهنداوي ورفاقه، البحث العلمي، ص ١٨٠.
١٩ – أ. د. خير الدين أحمد عويس، دليل البحث العلمي، ص ٨٣.

٢٠ - د. احسان محمد الحسن، مناهج البحث الأجتماعي، ص ١٦٢. نقلا عن Holsti ., Ole Content Analysis for Social Science and Humanities Tools.P.١٤٢

٢١ - مجموعة من الكتاب الروس، المدخل إلى علم الأدب، ص ٢٦.

٢٢ - أنظر د. ذوقان عبيدات وزملاءه، المرجع السابق، ص ٢٢١.

٢٣ - فاخر عاقل، اسس البحث في العلوم السلوكية، ص ١٢٤.

٢٤ - احسان محمد الحسن، المصدر السابق، ص ١٠١، نقلا عن Mitchell , D.A Dictionary of Sociology , Routledge and Kegan Paul , London , ١٩٧٣ , p:٣٣.

٢٥ - المصدر السابق، ص ١٠٩.

٢٦ - د. عبد المعطي محمد عساف وزملاءه، التطورات المنهجية..، ص ١٩٣

٢٧ - المرجع السابق، ص ١٩٣

٢٨ - د. جواد علي الطاهر، منهج البحث الأدبي، ١٦٠ ص.

٢٩ - دبليو دبليو روبنسون، تعريف الأدب : ومقالات أخرى، ١١١.

٣٠ - ربحي عليان وعثمان غنيم، ص ٥٩.

٣١ - د. ذوقان عبيدات وزملاءه، البحث العلمي، ص ٢٦٧.

٣٢ - د. عبد المعطي عساف وزملاءه، م س ٥٨.

٣٣ - د. عبد المعطي عساف وزملاءه، ص ٦٧.

٣٤ - المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ١٩٥ .

٣٥ - محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع..، ص ٤٤٣

٣٦ - علياء شكري وزملاءها، قراءات معاصرة في علم الاجتماع، ص ٢١٩.

٣٧ - المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٥.

٣٨ - محمد علي محمد، م س، ص ٣٤٦.

٣٩ - د. عبود العسكري، منهجية البحث العلمي في العلوم الأنسانية، ص٢١١.

٤٠ - د. أبولبابة حسين، أصول علم الحديث : بين المنهج والمصطلح، ص ٣٢.

٤١ - أ. د عبود العسكري، منهجية البحث..، ص ٢١٥.

٤٢ - د. ابو لبابة حسين، المصدرالسابق، ص ٣٦ - ٣٨.

٤٣ - الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ص ٣٤.

مراجع الدراسة

١- د.ابراهيم عثمان، الأصول في علم الاجتماع، (مؤسسة الكميل - الكويت، دار الشباب - قبرص، ١٩٨٩).

٢ - د.ابو لبابة حسين، أصول علم الحديث: بين المنهج والمصطلح، ط١ (بيروت - دار الغرب الأسلامي ١٩٩٧).

٣ - احسان محمد الحسن، مناهج البحث الأجتماعي، ط١ (عمان - دار وائل للنشر والتوزيع ٢٠٠٥).

٤ - أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، (القاهرة - دار المعرفة ١٩٥٤).

٦ - احمد مرسي، مقدمة في الفولكلور، ط١ (القاهرة - دار الثقافة، ١٩٨١).

٧ - الكسندار كراب، علم الفولكلور، ترجمة أحمد رشدي صالح .

٨ - أنطون جوسان، العادات والتقاليد في بلاد مؤاب، ١٩٠٨ ترجمة: د. سامي النحاس ١٩٩٧.

٩- بيرسي كوهين، النظرية الأجتماعية الحديثة، ترجمة د.عادل مختار الهواري، (دار المعرفة الجامعية - الأسكندرية، ١٩٨٥).

١٠- تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة ثائر أيوب (دمشق - دار الحوار ٢٠٠).

١١ - جاك لومبار، مدخل إلى الأثنولوجيا، ط١، ترجمة: حسن قبيسي،(الدار البيضاء - المركز الثقافي العربي ١٩٩٧).

١٢ - د. جواد علي الطاهر، منهج البحث الأدبي، ط ٥ (بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣).

١٣ - الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، (بيروت - دار الكتب، ١٩٨٨).

١٤- د.خليل حسونة، الفولكلور الفلسطيني - دلالات وملامح، (المؤسسة الفلسطينية للأرشاد القومي، ٢٠٠٣).

١٥ – ا.د. خير الدين أحمد عويس، دليل البحث العلمي، ط ١ (القاهرة – دار الفكر العربي، ١٩٩٧).

١٦ – و. و. روبنسون، تعريف الأدب: ومقالات أخرى، ترجمة: د. كمال قاسم نادر، ط ١ (بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة " أفاق عربية "، ١٩٩٠).

١٧ – د. ذوقان عبيدات، د. عبد الرحمن عدس، د. كايد عبد الحق. البحث العلمي: مفهومه – ادواته – أساليبه.(عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٨).

١٨ – د. ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي: \النظرية والتطبيق، ط ١، (عمان – دار الصفاء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠).

١٩– د. رشدي الأشهب، الحكايات والساطير الشعبية في منطقة الخليل، ط ١. (فلسطين – الخليل، ١٩٨٣).

٢٠ – روكس بن زائد العزيزي، معلمة التراث الأردني، الجزء الاول، (عمان، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ١٩٨١).

٢١ – د. سمير نعيم احمد، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية ، ط ٥، (القاهرة – دار المعارف، ١٩٨٥).

٢٢ – د.شريف كناعنة، من نسي قديمه.. تاه، دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية، (عكا – مؤسسة الاسوار ٢٠٠٠).

٢٣ – عامر قندلجي، البحث العلمي " وأستخدام مظاهر المعلومات " ط ١، (عمان – دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩).

٢٤ – د. عبد المعطي وأخرون، التطورات المنهجية وعملية البحث العلمي، ط ١، (فلسطين – رام الله: وائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).

٢٥– ١.د.عبود عبد الله العسكري، منهجية البحث العلمي في العلوم الأنسانية، ط ٢ (دمشق – دار النمير) ٢٠٠٤ .

٢٦ - د.عمر عبد الرحمن الساريسي، حكايات شعبية من فلسطين والأردن، الجزء الثالث (عمان - دار الينابيع للنشر والتوزيع والأعلان، ١٩٩٢).
٢٧ - د. عمر الساريسي، كلمات في المأثورات الشعبية، (لا ط) (عمان - ١٩٨٢).
٢٨ - د.علياء شكري ومحمد علي ومحمد الجوهري، قراءات معاصرة في علم الأجتماع، ط ٢ (القاهرة - دار الكتاب للتوزيع، ١٩٧٩).
٢٩ - د.غريب محمد سيد احمد، عبد الباسط عبد المعطي، علم الأجتماع، لآ ط. (الأسكندرية - دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥).
٣٠ - فاخر عاقل، اسس البحث في العلوم السلوكية، (بيروت -: دار العلم للملايين، ١٩٧٩).
٣١ - فوزي العنتيلي، الفولكلور ما هو (دار المسيرة، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٧).
٣٢ - فيليب فرانك، فلسفة العلم: الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة د.علي علي ناصيف، ط ١، (بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣).
٣٣ - مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، مادة: منهج، ص ١٩٥
٣٤ - مجموعة من الكتاب الروس، المدخل إلى علم الأدب، ترجمة أ. د. احمد على ، ط١ (عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥).
٣٥ - د. محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا: أسس وتطبيقات عملية، ط١، (القاهرة - جامعة القاهرة، ١٩٨٠).
٣٦ - محمد سليمان شعث، العادات والتقاليد الفلسطينية، (غزة : دار النمير، لا تاريخ ولا مكان للنشر) .
٣٧ - د. محمد شتية، وعلي خليل حمد، دليل الباحث العربي في كتابة البحث ونشره، ط١ (القدس - الرام - مطبعة القدس الأسلامية ١٩٩٠) .
٣٨ - د.محمد علي محمد، تاريخ علم الأجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، (السكندرية - دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧).

٣٩ – مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول ، ط ١ (فلسطين – رابطة الجامعيين – الخليل، ١٩٧٥ – بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣).

٤٠ – د. منعم حداد، " الأسـشراق والصهيونية والتراث الشعبي الفلسطيني "، عن التراث الفلسطيني: جذور وتحديات، إعداد: عبد العزيز أبو هدبا.محاضرات من مؤتمر يوم القدس العالمي للتراث الفلسطيني. ط١. الطيبة: مركز إحياء التراث العربي، ١٩٩١.

٤١ – نبيل علقم، مدخل لدراسة الفولكلور، لا ط، (فلسطين – البيرة – جمعية أنعاش الأسرة، ١٩٧٦).

٤٢ – نبيل علقم، الثقافة العربية والتجديد الاسلامي، ط ٢ (كاليفورنيا – المركز الاسلامي المستقل للدراسات والنشر، فلسطين – رام الله – مركز فلسطين للدراسات والنشر) ٢٠٠٢.

٤٢ – نخبة من اساتذة قسم الأجتماع (جامعة الأسكندرية)، المرجع في مصطلحات العلوم الأجتماعية، (الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، لا تاريخ).

٤٣ – د.هاني العمد، الأدب الشعبي في الأردن، ط ١ (عمان – لجنة تاريخ الأردن – المجمع الملكي لبحوث الحضارة، ١٩٩٦).

٤٤ – د.هدسن علم اللغة الأجتماعي،: ترجمة: د. محمود عبد الغني عياد (بغداد – وزارة الثقافة – دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧).

٤٥ – وليم تومز، الفولكلور، ترجمة وتعليق: كاظم سعد الدين،" مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والاعلام " (جمهورية العراق، عدد أول – السنة الثامنة والعشرون – ١٩٩٧).

٤٦ – ا.د وجيه محجوب، أصول البحث العلمي ومناهجه، ط ١ (عمان – دار المناهج للنشر والتوزيع، ٢٠٠١).

٤٧ – يان فانسينا، المأثورات الشفاهية، ترجمة د.احمد مرسي. (القاهرة – دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١).

فهرس

الإهداء ---------- ٣

المقدمة ---------- ٥

الفصل الأول (ماهو الفولكلور)................٩

تمهيد ---------- ٩

فرصة أخيرة وفرص كثيرة ---------- ١٢

نشوء علم الفولكلور ---------- ١٦

تطور الدراسات الفولكلورية في البلاد العربية ---------- ١٩

المرحلة الأولى – الاستشراق ---------- ٢٠

المرحلة الثانية – مرحلة النهضة ---------- ٢٤

تعريف الفولكلور ---------- ٢٨

عناصر التعريف ---------- ٣٣

علاقة الفولكلور بالعلوم الأخرى ---------- ٣٩

أولا – الفولكلور والأنثروبولوجي ---------- ٤٠

ثانيا – الفولكلور والتاريخ ---------- ٤١

ثالثا – الفولكلور وعلم الاجتماع ---------- ٤٤

رابعا – الفولكلور والأدب ---------------------------- ٤٥
خامساً – الفولكلور وعلم الآثار ---------------------------- ٤٧
سادساً – الفولكلور والعلوم الأخرى ---------------------------- ٤٨
مفاهيم ومصطلحات رئيسية في الفولكلور ---------------------------- ٤٨
مجتمع البحث الفولكلوري – الشعب ---------------------------- ٤٨
الجامع (جامع التراث) ---------------------------- ٤٩
هوامش الفصل الأول ---------------------------- ٥٣

الفصل الثاني (موضوعات التراث الشعبي وميادينه)............ ٥٥

تمهيد ---------------------------- ٥٥
موضوعات التراث الشعبي (الفولكلور) ---------------------------- ٥٨
أولا – الآداب الشعبية ---------------------------- ٥٨
ثالثا– النتاج الفكري – الحكمي ---------------------------- ٦٢
رابعا – المعتقدات والقيم والعادات والطقوس ---------------------------- ٦٦
خامسا– القوانين ---------------------------- ٧١
سادسا – التداوي والطبابة ---------------------------- ٧٣
سابعا – الألعاب الشعبية ووسائل الترفيه ---------------------------- ٧٤
ثامنا – التاريخ الاجتماعي ---------------------------- ٧٨
تاسعا – السحر والشعوذة والرقى وقصص الجان والأرواح ---------------------------- ٨١
قصص الجان والأرواح والمردة ---------------------------- ٨٢




عاشرا – الملل والأقوام وأنسابها ---------------------------------- ٨٣
حادي عشر – اللغات واللهجات البائدة والمحكية ---------------- ٨٥
ثاني عشر – الفلك والتنجيم وقراءة الطالع والحظ --------------- ٨٩
ثالث عشر – الآثار الفولكلورية ---------------------------------- ٩٠
رابع عشر – أبواب اخرى وآراء متنوعة --------------------------- ٩١
الأنماط المعمارية-- ٩١
المهن والحرف-- ٩٠
الملابس والحياكة والتطريز------------------------------------ ٩٤
هوامش الفصل الثاني -------------------------------------- ٩٥

الفصل الثالث (أساليب جمع البيانات التراثية)..........٩٧

تمهيد-- ٩٧
أولا – الاستبيان--- ٩٨
القواعد المنهجية لبناء الأستمارة -------------------------------١٠١
١ – تحديد إطار البحث وأهدافه ------------------------------- ٩٩
٢ – تصميم الجداول الخيالية ----------------------------------١٠١
٣ – تصميم الأسئلة ---١٠٢
٤ – تحكيم الأستمارة --١٠٣
شروط صياغة أسئلة الاستمارة الاستبيانية -----------------------١٠٦
خطوات الاستمارة وإجراءاتها ----------------------------------١١١

أولا – إعداد أسئلة الاستمارة---------------------------- ١١١
ثانيا – تطبيق الاستمارة وتفريغها---------------------------- ١١٢
ثالثاً – اسلوب الملاحظة Observation ------------------------ ١١٣
أنواع الملاحظة -- ١١٤
محاذير الملاحظة المشاركة وعيوبها ---------------------------- ١٢٢
قواعد الملاحظة -- ١٢٧
استخدام وسائل التسجيل الإلكتروني في الملاحظة ---------------- ١٣٠
ثالثا – أسلوب المقابلة Interview ---------------------------- ١٣٢
الإعداد للمقابلة --- ١٣٤
توثيق المقابلة وبياناتها-- ١٣٩
إعداد البطاقات التسجيلية ------------------------------------- ١٤٠
الأشكال الالكترونية للبطاقات والتوثيق ------------------------- ١٤٦
رابعا – المصادر المكتوبة (البحث المكتبي)--------------------- ١٤٦
أنواع المصادر المكتوبة -- ١٤٧
خامسا – التحقيق والتحري والاستقصاء -------------------------- ١٥٢
هوامش الفصل الثالث -- ١٦١

الفصل الرابع (المنهج العلمي في الدراسات الفلولكلورية)

١٦٣...........

المنهج العلمي-- ١٦٤
تمهيد -- ١٦٤

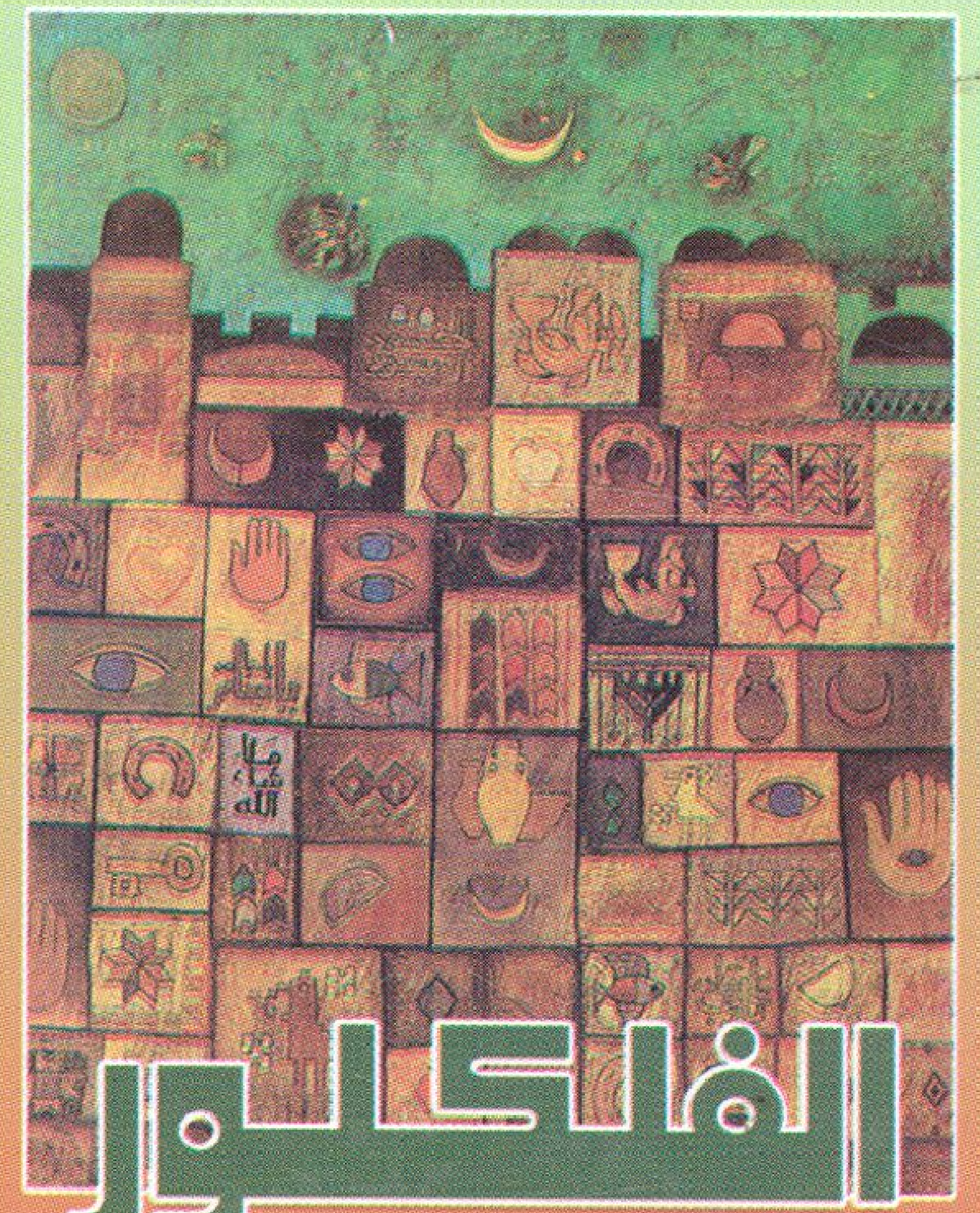
تعريف العلم وخصائص المنهج العلمي ---------------------------١٦٨
تعريف المنهج وتصنيف المناهج ------------------------------- ١٧٠
قاعدة اولى -- ١٧١
قاعدة ثانية ---١٧٢
قاعدة ثالثة--١٧٢
علم المناهج – Methodology------------------------------------١٧٢
المنهجية – (إجراءات البحث)-----------------------------------١٧٣
قضايا واشكالات في الأساليب والمناهج في الفولكلور-------------١٧٤
تصنيفات المناهج -- ١٨٠
خطوات البحث العلمي--١٨٢
الأسلوب الوصفي على مستويات متعددة نتناولها بالتفصيل --------١٨٨
الوصف البسيط --١٨٨
الوصف المتوسط (التحليل والتفسير)------------------------------ ١٩٠
المستوى التجريدي (الدلالي) ------------------------------------١٩٣
أساليب المنهج الوصفي--١٩٥
ثانيا – المنهج التاريخي Historical Method --------------------١٩٦
مصادر البحث التاريخي--١٩٧
أهمية البحث التاريخي -- ٢٠١
النقد والتقييم للوثائق التاريخية والفولكلورية ------------------- ٢٠١
المنهج التاريخي والدراسات الفولكلورية---------------------------٢٠٣

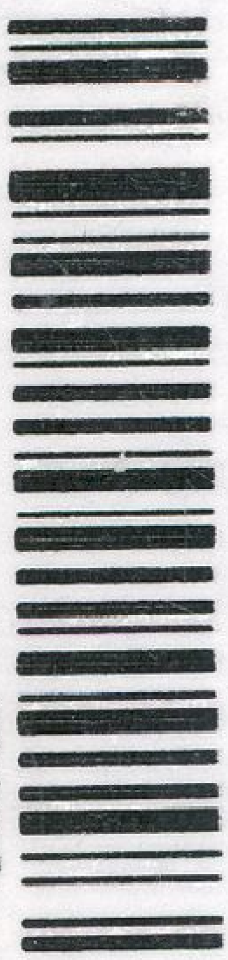
ثالثا – منهج أو أسلوب تحليل المضمون ---------------------- ٢٠٦
محاذير هذا المنهج وعيوبه ---------------------------------- ٢١٠
رابعا – المنهج الارتباطي – العلائقي ---------------------------- ٢١١
أنماط العلاقات بين المتغيرات ---------------------------------- ٢١٣
صعوبات الدراسات السببية ومحاذيرها ----------------------------- ٢١٥
خامسا – الدراسات المقارنة ---------------------------------- ٢١٦
خطوات المنهج المقارن ---------------------------------- ٢١٧
تطبيقات المنهج المقارن ---------------------------------- ٢١٧
اعتبارات المنهج المقارن ---------------------------------- ٢١٨
سادسا – مناهج البحث الأدبي ---------------------------------- ٢٢٠
مسلمات المناهج الأدبية ---------------------------------- ٢٢١
الصعوبات والمحاذير التي تواجه البحث الأدبي ------------------ ٢٢٤
منهجية المنهج الأدبي ---------------------------------- ٢٢٥
سابعا – منهج النظم System Approach ---------------------- ٢٢٦
تعريف النظام ---------------------------------- ٢٢٦
عناصر النظام (هيكل النظام) ---------------------------------- ٢٢٧
المثال الأول – السيارة كنظام ---------------------------------- ٢٢٩
المثال الثاني – القول المأثور كنظام ---------------------------- ٢٣٠
صفات العملية النظمية ---------------------------------- ٢٣١
علاقة منهج النظم بالمناهج الأخرى ---------------------------- ٢٣٢




منهج النظم والدراسات الفولكلورية ---------------------------- ٢٣٣
ثامنا – منهج التحقيق في الحديث النبوي الشريف --------------- ٢٣٨
شروط الرواية في الحديث------------------------------------ ٢٣٩
دقة المنهج في كتابة الحديث -------------------------------- ٢٤٠
هوامش الفصل الرابع-- ٢٤٣
مراجع الدراسة --- ٢٤٥

تم بحمد الله





دار اسامة للنشر والتوزيع
الأردن - عمان
هاتف: 00962 6 5658252 \ 00962 6 5658253
فاكس: 00962 6 5658254 ص.ب: 141781
Email: darosama@wandoo.jo